

دور الإعلام في معالجة ظاهرة الخوف من الإسلام

(الإسلاموفوبيا)

أوراق ندوة علمية

حلب، الجمهورية العربية السورية

20-22 شوال 1427هـ/11-13 نوفمبر 2006م

منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - 1429هـ/2008م

تقديم

تعدّ ظاهرة الخوف من الإسلام التي اصطلح عليها في الغرب بـ **(الإسلاموفوبيا)**، من الظواهر الجديدة التي اقترنت بتصاعد موجة العنصرية والكراهية للإسلام، فهي صناعةٌ إعلامية وبضاعة سياسية، تضافرت في تضخيمها جهودُ دوائر كثيرة معادية للإسلام والمسلمين، وقد أراد بها مروجوها والمشاركون فيها تشويهَ هذا الدين الحنيف، لأغراض سيئة ودوافع شريرة، لعل أبرزها الحدّ من انتشار الإسلام الذي شهد في الربع الأخير من القرن العشرين، ولايزال يشهد، وسيبقى يشهد دائماً إن شاء الله تعالى، اتساعاً كبيرًا وإقبالاً متزايداً على اعتناقه في شتى القارات، والدافع الثاني هو الخوف من تأثيرات العالم الإسلامي في السياسة الدولية، بسبب القضايا العادلة التي تدافع عنها الأمة الإسلامية، وعلى رأسها القضية الفلسطينية التي سخَّر أعداء الإسلام والحق والسلام، كلَّ إمكاناتهم الإعلامية والسياسية لطمسها.

ولمَّا كان لوسائل الإعلام ذلك الدور المؤثر في تشويه صورة الإسلام والمسلمين، فإن من الوسائل الفعالة لمواجهته، استخدام الأساليب والطرق الكفيلة بإبراز الصورة الحقيقية للإسلام، ونشرها في العالم كله، واستثمارها في معالجة ظاهرة الخوف من الإسلام، بما يبطل دعاواها ويفند شبهاتها ويدحض أباطيلها، ومما يقتضي مقارعة الحجة بالحجة، ومواجهة الإعلام المزيِّف للحقائق، بالإعلام الصادق النزيه الموجَّه لخدمة الحقيقة ونشر الوئام والتفاهم والتعايش والسلام بين الأمم والشعوب.

وانطلاقاً من الواجب المناط بالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ في الدفاع عن مبادئ الإسلام وحقائقه وثقافته وحضارته وفي نصرة قضاياه، وفي طليعتها تصحيح المعلومات المغلوطة عن صورة الإسلام في العالم، فقد عملت على عقد الندوات والمؤتمرات، ونشر الكتب والدراسات التي تسعى إلى تحقيق هذا الهدف، ومن ضمنها أعمال الندوة الثقافية التي عقدت في حلب بالجمهورية العربية السورية حول موضوع : "**دور الإعلام في إبراز صورة الإسلام ومعالجة ظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)**" في الفترة من 20 إلى 22 شوال 1427هـ الموافق 11-13 نوفمبر 2006م، بمناسبة الاحتفاء بهذه المدينة العريقة عاصمةً للثقافة الإسلامية لعام

2006 عن المنطقة العربية، بالتعاون مع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية.

ولقد اهتمت هذه الندوة ببحث موضوعات تتصل بدور الإعلام في إبراز صورة الإسلام في العالم، ومعالجة ظاهرة الخوف منه، من خلال مراجعة الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين في الغرب، وتحليل أبعاد الرؤية الإعلامية لبعض المنابر الإعلامية الغربية والوقوف على خلفياتها، وبحث دور الصحافة في تصحيحها بالمنهج السليم، ومناقشة طرق تقديم المعلومات الصحيحة عن الإسلام وثقافته وعن الشعوب الإسلامية، ودراسة سبل تفعيل وسائط الاتصال بما فيها البث الفضائي لخدمة هذه الأهداف النبيلة.

وفي الوقت الذي نشكر فيه الأساتذة الباحثين على البحوث القيمة التي قدموها لهذه الندوة العلمية المهمة والتي ننشرها في هذا الكتاب، نأمل أن يجد القارئ فيها مادة صالحة ومفيدة في معالجة ظاهرة الخوف من الإسلام، التي لا تكفي في علاجها ندوة واحدة مهما كانت درجة نجاحها، لأننا نواجه ظاهرة تعددت وسائل انتشارها وتفاقمت المخاطر المترتبة عليها، كما تعددت وسائط الإعلام واسعة النفوذ والتأثير التي حاولت تعميقها في النفوس وفي العقول بشتى أساليب المغالطة والتضليل والتحريف والتزييف.

والله وليّ التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري
المدير العام للمنظمة الإسلامية
للتربية والعلوم والثقافة

دور الإعلام في إبراز صورة الإسلام في العالم ومعالجة ظاهرة الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)

الشيخ الدكتور بدر الدين حسون(*)

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[1].

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى جميع رسل الله ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

حينما نتحدث اليوم عن ثورة علمية وإعلامية، لابد لنا أن نعلم أن هذه (القفزة العالمية) التي نشهدها منذ منتصف القرن الماضي وبداية هذا القرن، لم تمر على آبائنا أو أجدادنا، إنما عرفناها من خلال رسالات السماء التي هي بين أيدينا.

فحينما تجد وأنت في غرفتك خبراً ما من البرازيل يقع بين يديك وأنت في سورية، فهذه قفزة ولاشك ما لها من نظير، أكدت عليها حيثيات الآية الكريمة في قوله تعالى : **﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾**[2].

ومن هنا أجد أن الحقيقة الجوهرية التي تقول إن الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم (أول الإعلاميين في العالم بل هم أصدقهم).

مصداقية الخبر من حيث المصدر

لقد أسس الصديق رضي الله عنه قاعدة مثلى مفادها (مصداقية الخبر تأتي من صدق المصدر) حينما وقف أمام خبر الإسراء والمعراج الذي حدثته به قريش، والحادثة معروفة، رد قائلاً : إن كان قال ـ يعني رسول الله ﷺ ـ فقد صدق.

(*) المفتي العام للجمهورية العربية السورية، رئيس مجلس الإفتاء الأعلى.

(1) سورة آل عمران، الآية 104.

(2) سورة النمل، الآيتان 39-40.

فلذلك يجب علينا أن ننظر كيف تلقى الصدّيق رضي الله عنه، هذا الخبر بعقلانية وتحليل، وأجاب عنه بعلم وتبيين دليل، فقال رضي الله عنه : «إني أصدقه في خبر السماء ـ يعني رسول الله ﷺ ـ يأتيه ما بين الغدوة والروحة».

ولهذا علينا أن ننتبه إلى قوله رضي الله عنه : «إن قال فقد صدق»، فنحن اليوم نستمع إلى الإعلام دون أن نحلل فكره وفعله وكثيراً من الأحيان ننساق وراءه.

وحينما نخاف من الإعلام الغربي، أو يقتحمنا ذاك الإعلام، علينا أن نتساءل :

ـ هل نحن محصّنون إعلامياً ؟

ـ هل نحن متوازنون إعلامياً ؟

ـ هل الغرب اعتدى علينا أم نحن فتحنا له الأبواب ليدخل بيننا وإلى بيوتنا ؟

أود أن أشير هنا إلى خطورة وأهمية هكذا ندوات من خلال ما فيها من مواضيع تمس واقعنا المعاصر في العالم الإسلامي، وإنه ليحزنني أننا في الغالب لم نُعِرْ أي اهتمام للدور الإعلامي في بناء حضارتنا.

فعلى سبيل المثال، منابرنا ومساجدنا هي مراكز إعلامية، لكن مشكلتها أنها تخاطب ذاتها وكأنها تقف أمام المرآة ولا تقف أمام الآخر، وطلابنا الذين يدرسون الشريعة، يجب أن يكونوا علماء لغيرهم، سفراء لهذا الدين، لكنهم جعلوا من أنفسهم علماء لأهلهم فحسب.

مفهوم الآخر في فكرنا الإسلامي

اسمحوا لي أن أنطلق من مفهوم مغاير هو في لب فكرنا الإسلامي، إذ ليس عندنا في الإسلام مصطلح (الآخر) أو (الحوار مع الآخر)، بل عندنا (الأخ) أو (الحوار مع الأخ). ويجب علينا أن نسقط حرف الراء من مصطلح الآخر فالآخر هو غير الإنسان من المخلوقات (كالحيوان والنبات مثلاً...)، لأن كل أبناء العالم هم إخوة لي، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[1].

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

فنحن كلنا أبناء أب وأم من الأرض خلقوا، ومن الطاقة والروح الإلهي بعثوا. فإذن نحن اليوم في خطابنا (للأخ) مقصرون، لذلك نرى هذا الأخ قد هاجمنا إعلامياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً، لأننا حقيقة لم نعطه هويته الصحيحة.

ومن هنا من خلال استقبالي المتكرر لوفود عربية وأجنبية مسلمة ومسيحية، أجد أننا مقصرون جداً في نقل رسالتنا لغيرنا، فكم من الوفود الذين خرجوا يتمزقون ألماً من إعلامهم وحكامهم الذين جهَّلوا الشعوبَ بالإسلام والمسلمين، وولَّدوا الحقد علينا لديهم.

هل نقلنا صورة الإسلام بشكلها الصحيح ؟.

أود أن أتطرق إلى اجتماع السادة العلماء وأصحاب السماحة في بلدنا سورية مع سيادة الرئيس بشار الأسد على مأدبة الإفطار التي جاءت بعد ست سنوات خلت، وقف الرئيس قائلاً : أتدرون لماذا أدعوكم لإفطار هذا العام يا علماء المسلمين ؟. السبب الرئيس الذي جعلني أدعوكم هو شدة الهجمة على شخصية النبيﷺ وعلى الإسلام العظيم، ثم أريد أن أسألكم ماذا أعددتم وماذا فعلتم لنصرة هذا النبيﷺ ونصرة هذا الدين ؟.

هل نحن الذين أسأنا للصورة النبوية أم هم عرفوها وشوهوها ؟ أظن أن معظمنا هو من أساء للصورة النبوية الشريفة حيث قصرنا في نقلها، ولم نعرف أنه يجب علينا أن ننقلها كما هي.

علينا أن نعلم أيها السادة الأفاضل أن الذي هو أمامنا ليس قوياً، أسوق لكم هذه المقالة التي قرأتها والتي تدل على ضعف من يقف في طريق النور الإلهي، هذه المقالة تتحدث عن رجل دين مسيحي متقاعد في ألمانيا وهو (رولاند بيسلبيرغ) حيث أضرم في جسده النار منذ أسبوعين أمام إحدى الكنائس، والسبب في ذلك كما تقول زوجته، أنه تحدث في رسالة تركها قبيل انتحاره يعلن فيها عن قلقه إزاء انتشار الإسلام في ألمانيا وأنه لم يجد طريقة لتنبيه الناس هناك إلا بهذا العمل الشنيع وهو الانتحار.

ومن هنا نسأل أنفسنا : لم قام بذلك ؟. الجواب هو أن الإعلام الغربي أقلقه من الإسلام، وجعله يخاف من الإحراق من أولئك الجهلة الذين دخلوا إلى أوروبا وأخافوا الناس من الإسلام.

لذلك فإنني في كل حواراتي مع الأوروبيين، وحتى في الرسالة التي وجهتها إلى الرئيس الأمريكي جورج بوش، أقول إنه من بلادنا أرسل الله رسالات السماء كلها،

فلماذا تخافون من الإسلام ولا تخافون من المسيحية، والإسلام والمسيحية كلتاهما شريعتان من عند الله، كانت بلادنا مهبطاً لهما، وكانت أرضنا المكان الذي أضاءت فيه تلك الشرائع، فنور المسيح من أرضنا أضاء، ونور موسى من أرضنا أضاء، وإبراهيم أرضنا التي ضمته، ومحمد صلوات الله عليه أجمعين من بلادنا حمل راية الإسلام العظيم.

فنحن هنا في أرضنا مهد الرسالات نلتقي جميعاً في أسرة واحدة. والعجيب أنني أرى بعض الأسر تعددت أطياف أفرادها، فمنهم المسلم، ومنهم المسيحي، منهم من مذهبه جعفري، ومن مذهبه شافعي.

وأجمل ما رأيته في لبنان عائلة واحدة (آل هاشم) ترى فيها محمد هاشم، وجوزيف هاشم، وعمر هاشم، وكلهم يقول نحن أبناء أسرة واحدة.

إذاً عندما اختار الله تعالى هذه الأرض لتتقبل رسالات السماء، علم أن الإنسان هنا قادر على حمل أعباء هذه الرسالات، ولكن حين نترك دورنا في حمل الرسالة، نرد إلى أسفل سافلين.

محاور الإعلام كما أراها

للإعلام الحقيقي والسليم أساسات ومحاور أربعة، وهي :

أولاً : المرسل.

ثانياً : الرسول.

ثالثاً : الرسالة.

رابعاً : المرسل إليه.

فتعدد وسائل الاتصال في عصرنا، جعلني أتساءل : هل يقوم العالم الإسلامي باستخدامها الاستخدام الأمثل.

أريد أن أفرق بين الإسلام والمسلمين، وبين المسيحية والمسيحيين، وبين شريعة سيدنا موسى واليهود.

نحن في كثير من الأحيان نخلط بين الإسلام والمسلمين، فنصدر الأحكام على الإسلام من خلال أخلاق المسلمين، نصدر أحكاماً على المسيحية من خلال معاملة المسيحيين.

أقول : لا يستطيع إنسان في الكون أن يشوه شريعة الإسلام وشريعة سيدنا عيسى وشريعة سيدنا موسى، لأنها صنعة الله عز وجل، إنما يشوهها من ينتمي إليها انتماء غير سليم، أو يفهمها فهماً خاطئاً.

لهذا، إذا أردنا تعدد كل وسائل الاتصال التي يمكن أن يتصل بها الإنسان بأخيه الإنسان، فإن العناوين الثلاثة التي ذكرتها، وهي المحاور قد حددتها كل الرسالات السماوية.

فالإعلام هو :

1. مرسل يوثق به.
2. ورسول يؤدي الرسالة.
3. ورسالة تحقق مصالح الإنسان في الكون.
4. ومرسل إليه من أجله كانت الرسالة والرسول.

هذا هو مجمل الإعلام مصدر الرسالة وحاملها وجوهرها ومستقبلها.

أولاً : المرسل :

إذا نظرنا إلى المرسل في كل رسالات السماء للإنسان، وجدناه واحداً هو الخالق عز وجل، فلذلك لا تعدد في المصدر، إنما ظهر هذا التعدد من خلال عبث بعض رجال الدين، وبعض رجال السياسة، في الرسالة.

فحينما ألبسوا الدين أثواب سياسية، ومذهبية، وطائفية، عندها مزقوا العالم على أساسها، فمن الضروري الآن أن نركز على وحدة المرسل في إعادة التواصل مع العالم كله.

وقد أثبت العلم اليوم بعد التعرف على ما يسمى الاستنساخ، أثبت أننا جميعاً خلقنا من مصدر واحد، هو من جسد وطاقة.

ـ أما الجسد ﴿ **فكلكم لآدم وآدم من تراب** ﴾.

ـ وأما الطاقة فهي الروح التي نفخها الله فينا.

فالروح هي نفخة إلهية سرت فينا جميعاً، فالطاقة التي تمد لساني عند الكلام، هي عينها التي تمد أذني بالسمع، فلولا الطاقة التي فينا جميعاً، لما فقهنا الكلام الذي نتكلمه أو نسمعه.

إذن وحدة المرسل هي التي تمنع كثيراً من الصدامات في العالم، ولتحقيق ذلك يجب على كل المصادر الروحية والمراجع الدينية في المساجد والمعابد والكنائس، أن

تؤكد أن الإله الذي نعبده (المرسل) هو إله للجميع وليس إلهاً مخصوصاً لطائفة أو جماعة أو أمة معينة. لذلك علَّمنا الحق عز وجل العالمية في خطابنا الإسلامي، فأمرنا أن نقول كل يوم عشرات المرات ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾، لا أن نقول رب المسلمين.

وهذه النقطة إعلامياً تجعلني أنا والأخ في أي مكان، نعود لنفس المصدر الذي خلقنا في هذا الكون، فقد قال تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1].

أي : لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون يوم العودة إلي في الآخرة، لأنه عز وجل المرسِل الأول.

ثانياً : الرسـول :

وهو الذي يحمل الرسالة. ولهذا الرسول صفات معينة يجب عليه أن يكون متصفاً بها، وأن يكون النموذج الأمثل للرسالة التي يحملها، فالله تعالى قال : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[2].

فرسول لا يكون نموذجاً عن رسالته تُردُّ رسالته عليه.

مشكلتنا الإعلامية الإسلامية اليوم في حَمَلَة الإعلام، هل هم أصحاب رسالة أم هم أصحاب تجارة ؟!، وهل إعلامنا له رسالة أم هو إعلام تجاري ؟! وهل هذا الإعلام ينتمي إلى إنسانية وروحانية الإنسان، أم إلى مذهب وطائفة وجماعة ؟!.

فاليوم إعلامنا العربي والإسلامي إعلام مُضَيَّع، فهو إعلام إما في خدمة إنسان جعل من نفسه إلهاً، أو في خدمة فكر أعطى لنفسه العصمة، أو في خدمة مال ليعيش صاحبه مملوء البطن والجيب من خلال استعباده للناس.

فعندنا في العالم العربي 70 قناة عربية، تبث من أراضي عربية للفن والفنانين، أما قنواتنا الإسلامية، فيحزنني أنها تصور المسلم بأنه متواكل، لا يحب العمل، وهو زاهد في الدنيا لا يبالي بمظهره الخارجي، ويدعي أن الله أمره بالزهد، ولم يدر أولئك أن في ذلك تشويهاً للإسلام يجعل الغير يشمئز من هذا الدين، يأمر بعدم النظافة، وعدم الأناقة. وأستغرب من إعلامنا الإسلامي أنه نسي أن يظهر المسلم الذي يقول : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾. ونسوا كيف كان صلوات الله عليه يخرج من بيته وكأنه خارج

---

(1) سورة البقرة، الآية 38.

(2) سورة الأنعام، الآية 124.

من حمام، عليه ريح المسك، عليه ثياب بياضها كبياض الثلج، إذا نظرت إليه وإلى البدر ليلة التمام تجده ﷺ قد تألق كتألق البدر، فهو البدر الكامل ﷺ.

نحن اليوم في مشكلة حقيقية في قضية الرسل مع الغرب ووسائل الاتصال معهم، فالحروب العسكرية والاقتصادية الفكرية تبدأ بالإعلام، فحرب العراق بدأت إعلامياً قبل أربع سنوات، وحرب أفغانستان بدأت إعلامياً قبل ست سنوات، أما فلسطين فمنذ تسعين سنة وقبل أن يستولي الصهاينة على القدس، كان المؤتمر الأول والمؤتمر الثاني للكيان الصهيوني، ونحن نائمون غائبون حتى جاءوا وأخذوا الأرض وهتكوا العرض.

فكما ذكرنا آنفاً للرسول صفات معينة يجب أن يتصف بها، فقبل ألف وأربعمائة سنة استعمل الرسول ﷺ رسلاً معينين، فبعث إلى هرقل دحية الكلبي (وهو من أجمل العرب) هنا نجد أن النبي ﷺ قد استعمل عنصر الجمال، لأن الإنسان يوم صاغه الله وأبدع في مظهره وخلقته، جعله من اللحظة الأولى عندما يرى شيئاً إما أن يقبله وإما أن يرفضه.

بينما اختار رسول الله ﷺ لأقوام أخر أقوى الرجال، فلكل قوم رسول يكون نموذجاً لهم في حياتهم.

لهذا يجب أن ننظر في الرسول الذي يذهب إلى الغرب ليخاطبهم، هل هو مهيأ لحمل الرسالة ؟. فإذا لم يكن مهيأ، سنجد هجمات عديدة على الإسلام، ورسول الإسلام ﷺ.

ثالثاً : الرسالة :

إن الرسالة التي نحملها رسالة عالمية، وبعض المسلمين في العالم الإسلامي يعتقدون أنهم هم المعنيون بالرسالة دون غيرهم. لا هذا فهم قاصر، ذلك لأن رسالتنا ليست محددة لجماعة أو ثلة من الناس، إنما رسالتنا للعالم كله ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾.

ولذلك يجب علينا أن نعرف العالم أننا أمة نؤمن بحقوقه، فهل يستطيع العالم أن يؤمن بحقوقنا ؟. حينما أَجْتَمِعُ مع يهودي أو مع مسيحي أو مع بوذي أو مع هندوسي، أقول لكل واحد منهم : إنني مؤمن بحقوقك، فهل أنت مؤمن بحقوقي، فيقول لي : كيف تؤمن بحقوقي، أقول لأن رسالتي علمتني أن أكون مؤمناً بك كإنسان ومؤمناً بك كروح، أما اختلافي معك في أسلوب عبادتك لله، فسيحاسبك الله عنها يوم اللقاء معه سبحانه.

رسالتنا أيها السادة رسالة مظلومة من أبنائها، مقهورة في هذا الزمن من حملتها، فعندنا أكثر من ثلاثة ملايين منبر في العالم الإسلامي، يدخل ما يقارب السبعمائة إلى الثمانمائة مليون أسبوعياً إلى المساجد ليسمعوا رسالة، فإذا بهم يخرجون كما دخلوا، والكثير منهم يخرج أضعف منه حينما دخل، لأن المتكلم لم يستوعب تلك الرسالة، فكيف يوصلها للمخاطب ؟.

إن التقدم التكنولوجي في الاتصالات الذي يوصل صوتنا ورسالتنا إلى الآخر لم نستعمله استعمالاً مثالياً صحيحاً، بل استعملناه لنشر فكر عبادة الأشخاص وعبادة المذاهب وعبادة الطوائف، وتركنا العبادة السامية التي حملناها للعالم ديناً واحداً لا أدياناً، ذلك لأن الدين واحد مصدره الديّان الواحد سبحانه.

فحينما خاطب رسول اللهﷺ أهل مكة الذين يدينون بالوثنية، قال : ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾. فدينكم هو صنيعكم، وأما ديني فهو من صنع الواحد جل في علاه. وحينما وصل إلى المدينة خاطب أهل الكتاب فقال : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله** ﴾ وقال أيضاً : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾، فكان الخطاب لأهل الشرائع السماوية بوحدة المرسل وتعدد الرسالات.

رابعاً : المرسل إليه :

هم نوعية الناس الذين يجب على الرسول أن يعرف كيف يخاطبهم، ولذلك كل رسالة في الكون متناسبة مع المرسل إليه، قال تعالى : ﴿ **فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين** ﴾.

فالإعلامي الذي يعرف من أين انطلق وأي فكر أو مصدر أرسله، يجب عليه أن يعرف الرسالة التي يحملها ويلتزم بها أولاً، ويعرف من يخاطبهم في العالم، أَهُمْ أبناء له أم إخوة. أعتقد أن هذا ما يمكن أن يتفاعل معه المرسل إليه. وبهذا تكتمل رسالة الإعلامي والإعلام في عالمنا الإسلامي.

بهذا فقط نزيل الخوف والضعف من أنفسنا ومن نفوس الذين نحمل إليهم فكرنا ورسالتنا، فننشئ بذلك عالماً تعيش فيه الأمم والحضارات مع الشرائع بتكامل لا بتصادم، وببناء لا بهدم، وبتآخ لا بتنابز.

هذه هي رسالة السماء التي حملها كل الأنبياء عليهم السلام والتي يجب أن نعود إليها مبتعدين ما استطعنا عن الطائفية والفئوية والمذاهب والأهواء، لتكون هذه الرسالة عالمية تبعث النور لكل البشرية هداية وحباً وعطاء.

والحمد لله رب العالمين.

مداخل للخروج من النمَطِية

د. علي محمد فخرو[*]

ليس من المبالغة القول بأن أحد مشاكل العرب والمسلمين الكبرى، تتمثل في علاقتهم مع الآخر الغربي، فلا توجد مشكلة كبيرة مفصلية في حياة هذه الكتلة البشرية الكبيرة لا يد للغرب، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إما في خلقها أو إبقائها حية أو في تعقيدها. عبر القرون التسعة الماضية وجد العرب والمسلمون أنفسهم في مواجهات لا تنتهي مع الغرب، ابتداء بالحروب الصليبية الدينية التي شنتها أوروبا كموجات متلاحقة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، لاسترجاع بيت المقدس، ومروراً باحتلال استعماري استغلالي ظالم لكل الأرض العربية والإسلامية تقريباً وبتجزئة المشرق العربي إلى دويلات ضعيفة، وانتهاء بتحميل العرب مسؤولية القضية اليهودية الأوروبية من خلال زرع الوجود الاستيطاني الصهيوني في فلسطين العربية. وطيلة كل تلك الفترة، حارب الغرب كل محاولات التوحيد العربي، ابتداء بالقضاء على مشروع محمد علي باشا لتوحيد مصر والشام، ولإقامة نهضة عسكرية وصناعية، وانتهاء بالقضاء على المشروع الوحدوي في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين. وها هو الغرب، ممثلاً في الدرجة الأولى في الولايات المتحدة الأمريكية، يعود من جديد كغرب استعماري استغلالي فيحتل العراق وأفغانستان ومنابع النفط في الخليج، ويحاصر دولاً عربية وإسلامية أخرى لتخضع لإرادته وللمشروع الصهيوني ـ الأمريكي برمته. وفي هذه اللحظة نقف وأيدينا على قلوبنا أمام الأزمة الغربية مع إيران المسلمة.

العرب والمسلمون إذن أمام محنة، فما أن ينتهوا من حل مشكلة حتى يدخلهم الغرب في مشكلة أخرى بحيث يظلون في دوامة التجزئة والتخلف والصراعات والحروب الأهلية وتبديد الثروات، وحتى في الفشل في مواجهة الاستبداد والفساد في الداخل.

(*) وزير التربية والتعليم الأسبق في مملكة البحرين.

يجب عدم التقليل من الذاكرة التاريخية، فهي تحفز بعمق في وجدان وعقول الشعوب، لتصبح شيئاً فشيئاً، قضية اجتماعية رمزية أسطورية، تؤدي إلى عدم التسامح، وإلى النمطية، وإلى انقطاع الحوارات الثقافية والحضارية. ولقد لعبت الذاكرة التاريخية وآثارها الحقيقية والمتخيلة، دوراً كبيراً في ظاهرة سوء الفهم والتجريح والاستهزاء التي يناقشها مؤتمرنا هذا. وفي اعتقادي أنه ما لم تجر مواجهة وتصحيح وفهم وتجاوز لتلك الذاكرة التاريخية، فإن الحوار بين العرب والمسلمين وبين الغرب، سيبقى حواراً متعثراً في أحسن الأحوال.

وإضافة لذلك، هناك أمران بالغا الأهمية أيضاً في هذه المعادلة : الأمر الأول يتعلق بمجموعة من القضايا المعلقة الساخنة، على رأس تلك القضايا موضوع الدعم الغربي الأعمى شبه الكامل للمشروع الصهيوني في الأرض العربية. والأمر الثاني هو عودة الاستعمار، مع ما يصاحبه من نهب واستغلال واستعلاء، إلى الأرض العربية وعلى الأخص في العراق ومنطقة الخليج، وقد يكون قريباً في لبنان. هذان الأمران ينفجران يومياً في وجوه الجميع، وبالتالي يجعلان وسيجعلان دوماً، بناء أجواء الثقة والهدوء والعقلانية، أمراً بالغ الصعوبة.

هذا الوضع الشائك المعقد الذي تحكمه ذاكرة تاريخية مؤلمة، وواقع سياسي عسكري اقتصادي بالغ القسوة والظلم، وازدياد مطرد في الدور الذي تلعبه الأصولية الدينية المتزمتة عند الجانبين على حد سواء، وواقع عربي إسلامي ذاتي يتصف بالتشرذم والفرقة والتخلف الاقتصادي والتكنولوجي والعلمي والضعف العسكري وباللاشرعية السياسية في معظم الأوطان والأزمان، هذا الوضع لا يمكن إلا أن يقود إلى علاقات حضارية وثقافية كارثية.

على رأس هذه الكوارث تقف النمطية، كَأَنْ يُظهر استطلاع للرأي في أمريكا نظرة للشعوب العربية والإسلامية بأنها شعوب متأخرة، بدائية، غير متحضرة، تسيء معاملة النساء، مولعة بالحروب، متعطشة للدماء، غدارة ماكرة، ووحشية قاسية. أو أن يؤمن بعض تلامذة الغرب، بأن المسلمين هم أتباع ديانة غريبة، ديانة عجيبة الأطوار وسحرية، وأن المسلمين هم شعب ذو دين مضحك، وأنهم كفار، وأنهم يمارسون تعدد الزوجات. وفي الآونة الأخيرة أصبحت صورة العربي أو المسلم البشع الإرهابي المخرب المتعصب، الغبي المتخلف المعادي للنساء، جزءاً من التراث الإعلامي الغربي، وعلى الأخص الأمريكي منه. لكن قمة التنميط تصل عند هوليود التي أنتجت عبر العقود الماضية، أكثر من ألف فيلم تُنمِّط العربيَ والمسلمَ كإنسان يعيش في خِيَمٍ في الصحراء

ويركب الجمال ويشتري النساء ويبيعهن في أسواق النخاسة، وأنه إرهابي غدار لا يؤتمن، وأن أغنياءه يعيشون في عالم ألف ليلة وليلة، وأن دين الإسلام يناصر العنف. وقد استبدلت هوليود الآن بكل تنميطاتها السابقة للهنود الحمر والسود والأمريكيين الجنوبيين واليهود، التركيزَ الشديد على تنميط العربي والمسلم.

والواقع أنه أصبح ممنوعاً في الغرب التعرض لصورة الأقليات قانوناً أو عرفاً، إلا التعرض للعرب والمسلمين الذي لا يزال مقبولاً ولا يعترض عليه معترض. ولا تقل صورة الإمعان في النمطية في التفلزيون والإذاعة والصحافة والأنترنيت عنها في هوليود.

ومن الخطأ الاعتقاد بأن هذه النمطية نتيجة لأحداث 11 سبتمبر، فالواقع أن اللجنة الأمريكية ـ العربية نشرت في التسعينيات من القرن الماضي تقريراً عن جرائم الكراهية والتمييز ضد العرب. لكن الخوف هو أن تنقلب ذكرى الحادي عشر من سبتمبر إلى بكائية أمريكية سنوية تتزامن في كل عام مع حملات ظالمة ضد ثقافة ودين العرب والمسلمين. وهو أمر لا يمكن التنبؤ بمخاطره.

والواقع أننا لسنا هنا للدخول في تفاصيل هذه الظاهرة وأسبابها والتي كثرت الندوات حولها. فالتركيز يجب أن ينصبَّ على الخطوات العملية اللازمة لمواجهة تلك الظاهرة. هنا يجب أن نكون صريحين مع أنفسنا. فإسهام العرب والمسلمين في تكوين صورتهم السلبية تلك كبير. فأوطانهم تزخر بالحروب والصراعات وانتهاك حقوق الإنسان وكل مظاهر التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وحضورهم الإعلامي متردد وضعيف، بسبب اللغة أو المنطق أو الخوف من الإفصاح، وجالياتهم في بلاد العالم متشرذمة ومتخاصمة وغير متفقة على موقف. إن أوطاناً مثل تلك لا يمكن أن تحظى بالاحترام، بل وإنها تجتذب الاستعداء. وعليه ففي قلب المواضيع التي يناقشها مؤتمرنا تكمن مواضيع التوحد والنهوض والتقدم والحداثة والتنمية والديمقراطية التي ستؤدي إلى القوة والرفعة، ومن ثم إلى الاحترام وعدم التعرض للمقدسات وعدم التدخل في الشؤون الخاصة. تلك معادلة تبدو بعيدة المنال وصعبة، لكنها على المدى البعيد هي التي ستوقف هذا السيل المنهمر من التهجمات التي يطلقها الآخر.

هل هناك نقاط عملية عاجلة يمكن الانتقال إليها ؟. في اعتقادي أن عمل الآتي سيكون خطوات أولية هامة :

أولاً : هناك حاجة لإجراء حوار مع حكومات الدول الغربية الأساس حول إمكانية تعديل بعض المضامين للكتب المدرسية في التاريخ وعلوم الاجتماع. فمن حق

العرب أن يخصص لإسهاماتهم الحضارية والثقافية التاريخية مكان في تلك الكتب، وأن تزال التعابير النمطية والسلبية التي تراكمت عبر القرون من جراء الاحتكاكات العسكرية والسياسية من جهة، ومن جراء الاعتماد على مصادر استشراقية وثقافية مليئة بالأخطاء وسوء الفهم. وفي الوقت نفسه فإن تلك الدول مسؤولة أخلاقياً عن تبيان الظلم والاستغلال الذي لحق بالشعوب العربية والإسلامية، من جراء فترة المد الاستعماري الغربي في القرون الماضية، ومن جراء الحروب الصليبية العبثية التي شنتها أوروبا عبر قرنين كاملين.

لقد قامت العديد من الدول التي دخلت في حروب واستغلال بعضها بعضاً، سواء في آسيا أو في أوروبا، بمثل هذه الخطوات لتعديل كتب تاريخها على الأخص ولتعترف علناً بمسؤولياتها التاريخية. والجميع يعرف السجالات التي جرت فيما بين اليابان من جهة وكوريا والصين من جهة أخرى، أو فيما بين ألمانيا وجيرانها. وكما تطالبنا الولايات المتحدة الأمريكية بتنقيح كتبنا المدرسية من النظرات المنغلقة المتزمتة، فإنه من الضروري أن نفعل الشيء ذاته، فنطالب الغرب بتنقيح كتبه المدرسية من التزمت والتنميط وسوء فهم التاريخ.

ثانياً : ما من شك في أن حضوراً إعلامياً عربياً وإسلامياً فاعلاً في مجتمعات الغرب أصبح ضرورة قصوى.

وليس المقصود بذلك هو القيام بحملات علاقات عامة تزين الأوضاع السياسية في بلاد العرب والمسلمين، وتخدم المسؤولين في الأساس، ذلك أن حملات التزيين قد ثبت فشلها مراراً وتكراراً. وفي عصر العولمة والقرية الكونية أصبح من المستحيل إخفاء الحقائق أو إنارة المظلم.

المقصود هو وجود فاعل لعرب ومسلمين في كل وسائل الإعلام الغربية من جهة وفي وسائل إعلام عربية وإسلامية موجودة في الساحة الغربية من جهة أخرى. مطلوب أناس يتحدثون اللغات الأجنبية بطلاقة، ويتحاورون بالأسلوب والمنطق اللذين لا يتعارضان مع العقلية الغربية في فهمها للأمور، ويتعاملون مع ما يخص وجهة النظر العربية والإسلامية، بموضوعية وعدالة وعقل متفتح.

وسيحتاج ذلك الحضور أن يكون على مستويين ثقافيين : شعبي ونخبوي، وأن يشمل التلفزيون والإذاعة والصحافة اليومية والمجلات الدورية والأنترنيت وقاعات المحاضرات والندوات وساحات الجامعات ومؤسسات المجتمع المدني المختلفة، وأن يشمل فيما يشمل، بذلَ جهود مكثفة لتصحيح ما يكتب وما يقال من مفاهيم خاطئة أو

ظالمة. ومن الضروري أن يكون الحضور العربي والإسلامي ممثلاً بمزيج من أبناء الجاليات العربية والإسلامية في بلدان الغرب وأبناء العالمين العربي والإسلامي. كما أنه من الضروري أيضاً، أن يتمثل القطاعان العام والخاص في هذه الجهود، على أن يقتصر ذلك على التمويل والإسناد اللوجستي، ولا يمتد إلى الجوانب الفكرية والإيديولوجية. إن هذه معادلة صعبة ولكنها ليست مستحيلة.

ثالثاً : إن الجاليات العربية والإسلامية في بلدان الغرب تمثل خط الدفاع الأول والأساس لصدّ ظاهرة النمطية. ولذلك فإن تحسين أوضاعها التعليمية والثقافية والدينية ومساعدتها على تنظيم نفسها كقوة مجتمعية فاعلة، أمر بالغ الأهمية.

هناك خطوات عملية كثيرة يمكن القيام بها. ولعل من أهمها الدعم المالي واللوجستي لجمعياتها ومؤسساتها المدنية التي تدافع عن حقوقها بما فيها حقها في عدم التعرض بانحياز وتجريح لدينها ولثقافتها ولصورتها العامة في وسائل الإعلام المختلفة. هناك أيضاً الدعم المادي لطلابها المتفوقين لتسهيل دخولهم في المجالات الحيوية من مثل الصحافة والسينما ومراكز الأبحاث والدراسات والجامعات الكبرى.

وكجزء من إبقاء تلك الجاليات على اتصال بثقافتها، وفي الوقت نفسه تشجيع المهتمين من مواطني الدول الغربية بالشؤون العربية والإسلامية، يمكن التفكير في تأسيس جامعة مفتوحة للتعليم عن بعد، تدرس باللغة العربية واللغات الأجنبية، وتمنح شهادات عالية بمستوى الماجستير والدكتوراه. ويمكن لهذه الجامعة المفتوحة التواصل الحضاري مع الآخر الغربي. وفي المجال السياسي فإن دعم المرشحين العرب والمسلمين لمختلف الانتخابات التي تجري في الغرب، هو أمر بالغ الحيوية. وهنا تستطيع المؤسسات الاقتصادية والمالية والخدمية العربية والإسلامية، أن تلعب دوراً كبيراً من خلالها تبرعاتها. ولعل تأسيس إدارة في جامعة الدول العربية لتهتم بشؤون الجاليات العربية في الخارج، سيكون خطوة هامة لتنسيق الجهود الحكومية والأهلية في مجالات الدعم المالية واللوجستية التي ذكرناها. والواقع هناك إمكانيات هائلة لتعبئة الجاليات العربية والإسلامية في الغرب لخدمة القضايا العربية والإسلامية.

رابعاً : هناك خطوات كثيرة تحتاج إلى أن تنفذ في داخل البلدان العربية والإسلامية. على رأس هذه الخطوات، إجراء عملية مراجعة وتنقيح جذرية للفقه الإسلامي نفسه. ذلك أن الزمن والأهواء والمصالح والجهل قد أدخلوا في الفقه الإسلامي الكثير من الأساطير والبلادات وسوء الفهم. وقد انعكس كل ذلك على ممارسات حياتية يومية للعرب والمسلمين لا تنسجم مع روح الإسلام الوسطي السمح ولا تتوافق مع

مقتضيات العقل والمنطق، وتنتهي بأن تستغل من قبل الإعلام الغربي المنحاز لتنميط صورة العرب وتحقيرها. إن جهداً مكثفاً يجب أن يوضع لتنتصر نظرات الإسلام المستنير على نظرات التخلف الذي يرتدي رداء الإسلام. ولعل في قلب هذا الموضوع الحاجة الماسة لتنظيم موضوع الاجتهاد ليصبح اجتهاداً مؤسسياً وليس اجتهاداً فردياً. ففي هذا العصر الذي تعقدت فيه الحياة وتفجرت حقول المعرفة الإنسانية، ما عاد باستطاعة أي عالم ديني فرد، أن يلم بكل جوانب أية مشكلة حياتية يواجهها المسلمون. وبالطبع فإن قائمة ما يجب أن نقوم به في الداخل من أجل تحسين صورتنا طويلة جداً ومتشعبة، ولا يمكن لمحاضرة أن تلم بها. لكن المهم أن ندرك بأن تجديد الفكر الإسلامي ليخدم حاجات العرب والمسلمين في هذا العصر الذي نعيش، هو مدخل أساس في مشروع النهضة.

لقد تحدث العرب والمسلمون عن مشروع للنهضة الحديثة عبر أكثر من قرنين. وما زال المشروع يتعثر في كثير من جوانبه. إن تَحَقُّقَ مكونات هذا المشروع في الوحدة والاستقلال والتنمية الاقتصادية الاجتماعية والعلمية التكنولوجية والحكم الديمقراطي والتجديد الثقافي، سينهي الإشكالية التي ينعقد مؤتمرنا من أجلها إنهاءاً تاماً وجذرياً. عندما نصبح جزءاً فاعلاً في حضارة العالم الحالية ومساهماً منتجاً في تطورها وتحسينها، ستكون حضارتنا وثقافتنا الذاتية نِدّاً للآخرين، وستضعف الذاكرة التاريخية المشوشة المنحازة القديمة، لتحل محلها ذاكرة تاريخية جديدة مبنية على الاحترام المتبادل والتسامح المتبادل والمصالح الإنسانية المشتركة.

في مصادر الرؤية الإعلامية الفرنسية للإسلام

د. الصادق رابح(*)

ما الذي يتبادر إلى الذهن، في فرنسا والغرب بصفة عامة، حينما يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين والعرب ؟. بالتأكيد الصحراء، البدو وإبلهم، القراصنة الأتراك مغتصبي الحسناوات الغربيات في سبيل متعة ساداتهم، عالم ألف ليلة وليلة حيث المتعة الجسدية والأنس، الأحياء البائسة في المدن العربية والإسلامية. كما تتزاحم في الذهن أيدي اللصوص وهي تبتر أعناق غير المسلمين وهي تقطع، والنساء والرجال مرتكبو الزنا وهم يُرجمون، إلخ. هذه الكثافة التخيلية وحمولتها الدلالية اتسعت في السنوات الأخيرة، لتشمل تَيْمات جديدة، أهمها الإرهاب الإسلامي كأحد التيمات الحاضرة بقوة في كل الخطابات. ويبدو أن هذه الخطابات تتوالد وتتآزر بعضها مع بعض، وتتكرر بشكل خطي تصاعدي. فالخطابات حول الإسلام والمسلمين في الآونة الأخيرة، على تعددها من الإعلامي إلى الرغائبي والغرائبي، مروراً بتلك التي يمكن تصنيفها ضمن فئة "البهتان العلموي"، اختصارية وإقصائية تكثف الإسلام في مصطلحات، مثل التعصب والغلو الديني والإرهاب. فلا حديث اليوم إلا عن المتطرفين والأصوليين والمتعصبين والإرهابيين، سافكي الدماء والمناوئين للغرب. وغالباً ما ترتبط هذه الخطابات أيضاً بالمهاجر البائس رمز "العربي الخامل" الذي يمثل مادة إعلامية للكتابات الفرنسية بكل أنواعها، وأيضاً بأبنائه الذين أرضعتهم فرنسا من لبنها، لتجازى في آخر الأمر إرهاباً و"حروباً مقدسة" ضد مؤسساتها وأنظمتها.

وإذا كانت هذه الصور القَبْلِيَّة المتأصلة في العقل الغربي، قد تولّدت من جراء التباعد الثقافي في الماضي بين الكتلتين الحضاريتين المتنافستين والمتعاديتين في الوقت نفسه، فما الذي يبرر وجودها في الوقت الراهن، لاسيما وقد تقاربت الحضارات وتثاقفت الأمم وتلاقحت مع انتشار وسائل الإعلام بكل أنواعها ؟. هل هذه الصور التراكمية عفوية التكوين، أم هي حصيلة كتابات إقصائية حول الإسلام، وبالتالي

(*) أستاذ في قسم الاتصال الجماهيري، جامعة الإمارات العربية المتحدة.

معادية له منذ العصور الوسطى وحتى اليوم ؟. لكي نجيب على هذه الأسئلة، حاولنا أن نتعرض بالدرس لبعض ما كتب حول الإسلام، بهدف التوصل إلى معرفة صورة الإسلام، من جانب، في الخطابات الإعلامية الفرنسية والغربية عموماً، ومن جانب آخر بهدف إظهار أن الخطابات الحالية حول الإسلام تتغذى ولو بطريقة غير واعية، من صور ذهنية ضاربة في القدم ؛ وهي وحدات ذهنية استعصت على "القطيعة الإبستمولوجية"، حسب العبارة الباشلارية، ولم تفلح العقلانية في إخضاعها للنقد الذي يجردها من "قدسيتها" التاريخية.

لقد هدفنا في هذا العمل إلى دراسة المصادر التي غذَّت وما زالت المخيلة (أو المخيال حسب مصطلح الجابري) الفرنسية والغربية عموماً، في رؤيتها وتصورها للإسلام. وهي تنقسم إلى قسمين، الأول منها يحيل على كتابات غربية تحط من قدر الإسلام والمسلمين، والثاني يتمثل في الممارسات داخل الفضاء الإسلامي التي تلصق بالإسلام والتي عادة ما تستغل إعلامياً بشكل سلبي للهجوم على الإسلام.

تشكل عودة الإسلام إلى مسرح الأحداث، من خلال ما أطلق عليه "الصحوة الإسلامية" في الفضاء الإسلامي الإحيائي والدعوي، و"الإسلام الراديكالي" في الأدبيات الغربية، نقطة بداية إعادة تفعيل خطاب "فزّاعي" غربي حول الإسلام، يقوم بإنتاجه "خبراء الإسلام" وتتولى وسائل الإعلام الترويج له. يقدم هذا الخطاب الإسلام وفق نموذج نمطي تتكثف فيه وحدات ذهنية ضاربة في القدم، تشكلت مع الخطاب القروسطي الكنسي حول الإسلام. كما يحاول هذا الخطاب تقديم رؤيته للإسلام في لحاف عقلاني، ويدعي أنها حصيلة دراسات ميدانية محكومة بالانشغال العلمي المحض. وحتى نتمكّن من الكشف عن مرجعيات هذا الخطاب وآليات اشتغاله ونبيّن "تواصليته" التاريخية وماهويته، نستعرض تباعاً حلقاته، محاولين تفكيكه وإعادة بنائه لتوضيح أُحاديته.

خصوصية المغايرة الإسلامية

تندرج إشكالية الحضور العربي الإسلامي في الغرب (فرنسا نموذجاً) ضمن إشكالية كبرى، وهي إشكالية المغايرة (Altérité) أو "الآخرية". والمغايرة مفهوم حاضر في كل الثقافات وقائم على أسس ثنائية الاختلاف بين الأنا والآخر، ولا يمكن استيعابه وفك رموزه، إلا إذا استحضرنا مجموع التفاعلات والعلاقات وطبيعتها بين الفضاءات الثقافية والحضارية المختلفة. فغياب التواصل لأسباب قد تكون جغرافية أو نفسية مثلاً، عادة ما ينتج عنه "ثقافة" قَبليّة عن الآخر تعيد صياغته وفقاً لوحدات ذهنية

تفرغه من حقيقته وتخلق له وجوداً متناسقاً ومتناغماً مع رؤيتنا له. وتفرض القَبْلِيّات نفسها كأساس "معرفي" في تصور الآخر، إذا أخذ في بُعده الديني العقائدي ؛ وهو بُعد يغلب عليه الطابع السجالي "المواجهاتي" ذو النزعة الإقصائية.

فإذا ما نظرنا إلى الرؤية الفرنسية الغربية عموماً للإسلام في هذا الإطار، وجدنا أنها محصلة تراكمات تاريخية غذتها ولا زالت مجموعة من القَبْلِيّات والقوالب المشوهة التي لم تفلح القطيعة الإبستمولوجية الغربية في اقتلاعها واستبدال ثقافة عارفة بها. وبالرغم من أننا لسنا من القائلين بـ "نظرية المواجهة" بين الإسلام والغرب، إلا أننا كدارسين لتاريخ العلاقة بين هذين الفضاءين الحضاريين منذ سنوات، نلاحظ أن مقاربة الإسلام في الغرب حالياً، وبالضبط في فرنسا التي يطلق عليها تاريخياً البنت الأكبر للكنيسة، تراوح مكانها، بل إنها تتنافس مع المقاربة القروسطية اللاهوتية في لغتها ومحتوياتها. فالتواصلية في جمود الرؤية أمر يحيّر الأذهان، إذا ما نظرنا إلى الشوط الهائل الذي قطعته الإنسانية، خاصة في مجال وسائل الاتصال، وإن لم يتزامن ذلك دائماً مع اتساع دائرة التواصل. وهنا تكمن "المفارقة"، إذ أن مساري الاتصال والتواصل يسيران في اتجاهين متعاكسين. إذ يخيل إلينا أنه كلما اتسعت دائرة الاتصال، ضاقت دائرة التواصل خاصة بين الفضاءين الغربي والإسلامي.

وحتى نتمكن من استيعاب هذه "المفارقة" ونفك رموزها، وجب علينا الرجوع إلى التاريخ، لأنه، في اعتقادنا، أفضل معين في استجلاء الكثير من الأمور وكشف خباياها. فالقراءة المستفيضة والمتأنية للرؤية الفرنسية الغربية عموماً للإسلام منذ العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر، تظهر لنا أنها رؤية خطية (linéaire) في مجملها، أحادية، اختصارية، غير تاريخانية، والأهم من ذلك فهي دينية لاهوتية، حتى وإن ادعت غير ذلك.

الخطاب القروسطي : لاهوتية إقصائية

إن الرؤية الفرنسية والغربية عموماً للإسلام هي بالأساس، حصيلة مجموعة من العناصر المتداخلة والمتشابكة، أهمها عنصران : التراكمات السلبية حول الإسلام داخل الفضاء التاريخي الغربي، وبعض الممارسات السائدة داخل الفضاء الإسلامي.

فالصور والوحدات الذهنية والأفكار المسبقة لدى الغربيين فيما يخص الإسلام والمسلمين، ذات طبيعة دينية إقصائية بحتة. فمقاربة الإسلام تتم في غالب الأحيان بطريقة تغلب عليها القَبْليّات المشوهة التي تحمل في ثناياها نكران الآخر كما هو،

وتخلق له صوراً تبسيطية وتسطيحية مهولة تسهل عليها عملية إبعاده وإقصائه بأقل جهد. فالإسلام لدى عموم الغربيين، كما تؤكد ذلك استطلاعات الرأي، ينظر إليه على أنه نظام شمولي، أساسه التطرف، معاد للديمقراطية، يدعو إلى ممارسات غير إنسانية، دين الحرب المقدسة وتعدد الزوجات وبتر أعضاء السارق ورجم الزاني والإرهاب، إلخ...

إن هذه الرؤية التبسيطية والاختصارية التقريبية هي نتاج تراكمات تاريخية كبيرة، كما ذكرنا من قبل، بدأت مع العصور الوسطى في رؤيتها للإسلام والمسلمين والتي تشكل إلى حد الساعة، مصدراً لخيال جامح تجلت فيه اللاعقلانية بكل صورها. وأول مظاهر هذه الرؤية القروسطية التي يُعَبَّر عنها حالياً بصيغ لغوية جديدة، الصفات والأسماء التي أطلقت على المسلمين "Sarrasins"، "Agarènes"، "Ismaéliens"، "Sarracenus" (شرقيون، هاجريون نسبة إلى هاجر، إسماعيليون نسبة إلى إسماعيل، سراقون، إلخ...). وهم أيضاً "أمة اللؤم والخداع (Gentem perfidam sarracenorum)، "شعب هدام ومدمر"، "أناس قبيحي المنظر"، "برابرة"[1]، إلخ.... كل هذه التسميات والصفات تعطينا فكرة عن طبيعة الصورة القروسطية عن الإسلام. وهذه الصورة هي من إنتاج المؤسسة الدينية وعلى رأسها البابا[2]. فالكنيسة أظهرت الإسلام والمسلمين بمظهر "الكارثة الطبيعية المدمرة"[3] (والعبارة موجودة في إحدى الرسائل البابوية). فالبابا جون الثامن (نهاية القرن التاسع للميلاد)، يصف، في رسالة له إلى الملك شارل

---

(1) Dagron (Chantal), Kacimi (Mohamed), Arabe, vous avez dit arabe ? 25 siècles de regards occidentaux sur les Arabes, Ed., Ballard, Paris, 1990, p. 15

(2) هذه المؤسسة ما زالت إلى يومنا هذا تقارب الإسلام من المنظور اللاهوتي القروسطي الإقصائي، ولا أدل على ذلك من المضامين التي حملتها محاضرة بابا الفاتيكان الحالي "الحبر الأعظم" بنيديكت السادس عشر، وهو يستوحي كلمات الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني (القرن الرابع عشر الميلادي)، عندما قال : «أروني ما الجديد الذي جاء به محمد، وعندئذ لن تجدوا سوى الأشياء الشريرة واللاإنسانية، مثل أمره بنشر العقيدة الإسلامية التي كان يبشر بها بحد السيف». وهو موقف رأت فيه الكاتبة كارين ارمسترونغ (Karen Armstrong) «[...] ومن الصعب الاعتقاد بأن إشارته إلى نزعة العنف الموروثة في الإسلام كانت صدفة محضة» (انظر : ارمسترونغ، كارين، ترجمة عمر عدس، "حقيقة الإسلام وما قاله البابا"، جريدة (الخليج)، عدد 10023، 28 أكتوبر 2006، ص 14). يمكن الوصول إلى النص الأصلي على الوصلة التالية :

Armstrong (Karen), "We cannot afford to maintain these ancient prejudices against Islam", The Guardian, http://www.guardian.co.uk/commentisfree/story/0,1874786,00.html.

كما يمكن الاطلاع على بعض القراءات التي تناولت الموضوع من خلال الوصلات التالية : ولد اباه (السيد)، "البابا والإسلام... الخلفية التاريخية للخطاب"، جريدة (الشرق الأوسط)، عدد 10159، 21 سبتمبر 2006.

http://www.asharqalawsat.com/leader.asp ؛ السيد (رضوان)، "تأملات في تصريحات البابا : التاريخ والعوالم الجديدة... والإسلام"، جريدة (الشرق الأوسط)، عدد 10159، 27 سبتمبر 2006.

(3) Senac (Philippe), L'image de l'autre : Histoire de l'Occident médiéval face à l'Islam, Ed., Flammarion, Paris, 1983, p. 17

لوشوف، المسلمين بهذه العبارات : «إن الدمار الذي ألحقه المسلمون، الذين هبطوا على الأرض، يحتاج لوصفه إلى لغات تكون بقدر عدد أوراق أشجار البلاد التي اجتاحوها».

ونجد أن هذه الصورة التي ربما تبدو "معقولة" مقارنة بصور أخرى أكثر تشنيعاً، قد وجدت لها صدى واسعاً فيما يعرف بالأغاني الشعبية التي طبعت الثقافة الشفوية في العصور الوسطى. أما أشهرها فهي أغنية رولان "La Chanson de Roland" التي تعتبر إحدى "معلقات" الأدب الفرنسي إلى حد الساعة. وهي مثيولوجيا تمجد المسيحية والمقاتلين المسيحيين وتصور بطولاتهم وانتصاراتهم وهم يردون العدو الإسلامي. وقد أثبت الكثير من المؤرخين أن أساسها التاريخي ضعيف[1].

وقد تعرض الإسلام كدين لجميع أنواع التّشويه والتّحقير والتّشنيع. فقد صُوِّرَ على أنه "دين ضلال" مبني على ثلاثية "محمد"[*] (Mahomet)، أبولان Apolin وترفجون Tervagan ؛ "الشر" (Le Mal) ؛ "بدعة" اختلقها محمد لضرب المسيحية وتحطيمها ؛ "فرقة ضالة" ؛ دين جنس وملذات" (إشارة إلى تعدد الزوجات، وهو موضوع عادة ما يختصر فيه الإسلام إلى حد الآن).

كما أن الرسولﷺ لم يسلم من القدح والذم وألصقت به شتى أنواع الصفات التي لا يمكن أن نجد لها تبريراً إلا في طبيعة العصور نفسها وطرائق تفكيرها ونظرتها إلى الآخر المختلف. فقد قدم على أنه "الدجال"، واعتبر صورة عكسية للمسيح. كما صورته بعض الكتابات الأخرى على أنه راهب مغضوب عليه (إيروس الجديد Nouvel Arius)، ولكي ينتقم من الكنيسة فقد اختلق ديناً جديداً. وقيل عنه "عالم بفنون السحر". وتم التركيز خاصة على تعدد زوجاته، حيث استثمرت هذه التّيمة في رسم صورة بشعة له[2].

الخطاب "التنويري" : توفيقية واستخدام

أما فلسفة الأنوار كركن أساس مؤسس للفكر الغربي ومرجعية يعتز بها الفرنسيون خاصة، وهي برغم أسبقيتها وفضلها في إخراج الغرب من قبضة اللاهوت

---

(1) Jonin (Pierre), La chanson de Roland, Ed. Gallimard, Paris, 1979 انظر أيضاً : Filhol (Emmanuel), "l'image stéréotypée des Arabes, du moyen age à la guerre du Golf", Hommes et migrations, n° 1183, Janvier 1995, pp. 17-18.

(*) للتذكير فإن اسم الرسولﷺ لا يكتب ولا ينطق إلى حد الساعة بطريقة صحيحة، وهنا يظهر ما يمكن أن نطلق عليه التواصلية في بعض أجزاء التصور والرؤية بين العصور الوسطى والعصر الحاضر.

(2) Caspard (Robert), Pour un regard chrétien sur l'Islam, Ed., du Centurion, Paris, 1981, p. 182

وتحجره، لم تستطع التخلص تماماً من العقلية اللاهوتية الإقصائية، خاصة فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين. فقد ظلت حبيسة رؤية توفيقية براغماتية طبعها الإبهام والتذبذب. فهناك نوع من الثنائية في الخطاب ميز فلاسفة الأنوار : مدح وذم، إعجاب واستهجان، انبهار وسخرية. كل هذا نجده في الكتابات الواحدة.

ففولتير مثلاً (Voltaire)، الذي يُعَدُّ رائداً ورمزاً من رموز هذه الفلسفة، يمثل قمة التناقض والإبهام الذي أشرنا إليه سابقاً. ففي كتابه "Catéchisme de l'honnête homme" (1763) كتب أن الإسلام "أروع دين جاء من الإله"[1]. ويؤكد في كتاب آخر على أن النبوغ العربي وإنجازاته الثقافية قد تمت تحت راية الإسلام، ويدحض فكرة أن يكون الإسلام قد انتشر بالسيف[2]، وهو أمر كان منتشراً ولا يزال في الغرب (الإسلام = الحرب المقدسة Guerre sainte). هذه عينة من آراء فولتير المادح والمعجب بالإسلام إلى حد المبالغة أحياناً، فما هي آراء "فولتير الآخر" ؟.

إنه فولتير الذي كتب "محمد أو التعصب" (Mahomet ou le Fanatisme)، المُهدى إلى البابا، والذي حُوِّل إلى مسرحية تم عرضها في الكوميديا الفرنسية المشهورة حيث نالت نجاحاً كبيراً. وقد تجلى كرهه للإسلام في قدحه لشخص الرسولﷺ، فقد اعتبره "متمرداً"، و"خائناً"، و"مجرماً"، و"دجالاً"، ولم يكوّن أمة إلا من أجل الصلاة والتكاثر والقتال[3]. ويصف القرآن، الذي لا يعترف بربانية مرجعيته، في نفس الكتاب الذي يمدح فيه الإسلام، بأنه جملة من التناقضات، والغرائب، وبه جهل كبير[4]. ونجد في باقي كتبه كثيراً من هذه الآراء القادحة. هذا هو فولتير ذو الوجهين.

ونجد العقلية اللاهوتية نفسها عند باقي فلاسفة الأنوار، فهلفتيس (Helvetius) ركز ذمه على القرآن، واصفاً إياه بأنه «مبهم وغير مفهوم»[5]. ووصل به الأمر إلى المساس بالذات الإلهية. كما اعتبر أن الإسلام قد انتشر بحد السيف : «إن محمداً قد نشر حقيقة عقيدته والسيف بيده»[6].

---

(1) انظر : Hadidi (Djavâd), Voltaire et l'Islam, Ed., Langages et Civilisation, Paris, 1974, p. 156

(2) Voltaire, Essai sur les moeurs, T., 1, Ed., Garnier Frères, Paris, 1963, p. 275

(3) المرجع السابق، ص 274.

(4) المرجع السابق، ص 257.

(5) Helvetius, Claude-Andrien, De l'Homme, de ses qualités intellectuelles, et de son éducation, T., 1, Ed., Librairie Arthème-Fayard, Paris, 1989, p. 258.

(6) المرجع السابق، ص 236.

ولا يختلف الأمر كثيراً عند مونتسكيو (Montesquieu). إذ أنه وصف ميلاد الرسولﷺ بلهجة كلها سخرية وازدراء، فلم ير في القرآن «إلا مجموعة من الأشياء الصغيرة، حيث نجد لغة ربانية وأفكاراً بشرية»[1].

ونجد الأفكار والمآخذ نفسها على الإسلام عند معظم كتاب هذه المرحلة التاريخية، فكندورسي (Condorcet) مثلاً كتب واصفاً الإسلام : «بالنظر إلى كل الأنظمة السياسية والدينية التي يرزح تحتها الجنس البشري، فإن النظام الإسلامي هو أكثر هذه النظم التي لا تترك مجالاً للحرية»[2].

أما المسلمون والعرب خاصة، فقد تم تصويرهم في لغة قروسطية غلبت عليها القوالب الجاهزة والكليشيهات المشوهة. فقد صوروا في عبارات قادحة، مثل "أمة قطاع طرق"، "أمة تقدس الحرب"، "أمة لصوص"، إلخ... فكتاب مثل فولتير وديدرو ومنتسكيو ولمرتنار وكوندياك وجاك كزوت، لم يهتموا بما أنتجته الحضارة الإسلامية والعربية، ولم يروا في الحواضر الإسلامية، مثل بغداد وقرطبة والحمراء، التي كانت مراكز للعلم والمعرفة، إلا مراكز غير متحضرة تسكنها شعوب اتكالية وخاملة لا هم لها إلا القيام بالحرب المقدسة وتحطيم كل المعالم الحضارية للشعوب المغلوبة.

أما تفسير التناقض الذي غلب على كتابات فلاسفة الأنوار، فقد ردَّه الكثير من الباحثين إلى براغماتية هؤلاء وتوظيفهم للإسلام لخدمة أفكارهم في مرحلة كانت وما زالت تحت قبضة الفكر الكنسي التسلّطي. ففلاسفة الأنوار، عموماً، قد استخدموا الإسلام والشرق في حربهم ضد الدوغمائية والتعصب وظلامية الكنيسة آنذاك. فكلما توافق الإسلام مع أفكارهم وتعارض مع أفكار الكنيسة، مدحوه وزايدوا في المدح، أما إذا تعارض مع رؤاهم، هاجموه بأكثر حدة وألصقوا به كل التهم والشائنات.

فالصورة التي رسمها فلاسفة الأنوار للإسلام والمسلمين كانت صورة كنسية قروسطية بحتة في مجملها، حيث إن محاولات بعضهم تقديم صورة موضوعية عن الإسلام، لم تكن حصيلة اقتناع ودراسة وافيين، وبدل أن يكون لهم رأي واضح، بغض النظر عن مطابقته للواقع أم لا، فقد بدت كتاباتهم متذبذبة، تجمع الشيء ونقيضه،

(1) Montesquieu, Lettres Persanes, Ed., Granier-Flammarion, Paris, 1964, p. 159

(2) Condorcet, Esquisse d'un tableau historique des progrès de l'esprit humain, Ed., Librairie philosophique, J. Vrin, Paris, 1970, pp. 100-101.

تستعيد باليسرى ما تعطيه باليمنى، ولا تلقي بالاً للتناقضات الصارخة التي تحتويها والتي تنفي عنها أية مصداقية.

الخطاب الاستشراقي : استعلاء وإثنية غربية في لحاف أكاديمي

أما الاستشراق(*) كرؤية أكاديمية علمية للإسلام، فهو تعبير فوقي يكشف لنا عقلية أصحابه أكثر منه تعبير عن حقيقة موضوعه. لقد خضعت الكثير من كتابات الاستشراق للدراسة والنقد من بعض المفكرين العرب والمسلمين وبعض الغربيين أنفسهم. وأشهر المشاريع في هذا الصدد لتفكيك ميكانيزمات الرؤية الاستشراقية، ما قام به إدوارد سعيد في كتاب "**الاستشراق**". فالباحث ينفي عن المشروع الاستشراقي أية علمية، حتى ولو ادعى غير ذلك، ويعتبره مؤسساً لنظام "رؤياتي" إيديولوجي، عنصري في مقاربته للإسلام، وإمبريالي يطبعه التعالي الإثني. إن الكتابات الاستشراقية، في مجملها كما يؤكد المفكر الأمريكي الفلسطيني، تعتبر الشرقيين، إشارة إلى العرب والإسلام، متخلفين ذهنياً، وغير متحضرين، وخاملين تتحكم فيهم عيوب فطرية تمنعهم من التطلع وتجعل من حركيتهم مراوحة في المكان نفسه. ويخلص الكاتب إلى أن الاستشراق ليس فقط فشل علمي، ولكنه أيضاً فشل إنساني[1].

وقد وجدت كتابات سعيد أصداء لدى مجمل المثقفين العرب. فالعلوي اعتبرها محاولة ناجحة لتعرية النظرة الاستعلائية الغربية[2]. أما الواقدي فيرى في الاستشراق خطاباً إيديولوجياً لم يستطع التخلص من مركزيته الإثنية الغربية وتحقيق "القطيعة الإبستمولوجية" مع عقلية الإقصاء. كما نجد النقد اللاذع نفسه عند عبد الله العروي الذي يرى أن الاستشراق هو عملية إعادة إنتاج للقوالب الذهنية والكليشيهات الغربية المشوهة والتبسيطية حول الإسلام[3]. أما محمد أركون فيؤكد على أن الاستشراق ذا المقاربة الوصفية قد عجز عن أن يتمثل تعددية الممارسات داخل الحضارة العربية

(*) أعتقد أن المصطلح قد تقادم حالياً والأنسب استخدام مصطلح إسلامولوجيا أو الإسلامولوجيا التطبيقية كما يرى محمد أركون، وحتى لا يكون هناك خلط يجب دائماً الرجوع إلى المحددات التاريخية لكل رؤية.

(1) Said, (Edward), L’Orientalisme. L’Orient crée par l’Occident, Ed., du Seuil, Paris, 1980

(2) Kerrou (Mohamed), “Etre sociologue dans le monde arabe ou comment le savent épouse la politique”, Peuples méditerranéens, N° 54-55, janvier, 1991, 249.

(3) Laraoui, Abdallah, Islam et modernité, Ed., la Découverte, Paris, 1987, p. 161

الإسلامية بتركيزه على بعض الجوانب تركيزاً استخدامياً يبتعد عن المعايير العلمية والموضوعية[1].

أما في المشرق العربي، فقد تعرضت الكتابات الاستشراقية لنقد لاذع وراديكالي أحياناً. فحسن حنفي يعتبرها نتاج ثقافة غربية استعمارية ذات صبغة إيديولوجية بحتة، وهي تعبير عن الإثنية الأوروبية حيث تسود التسلطية وحب الهيمنة[2]. ويعتبر المفكر السوري الطيب تزيني، الذي يمثل موقفاً وسطياً، أنه لا يمكن وضع كل الاستشراق تحت العباءة نفسها، ويقسم المستشرقين إلى قسمين : استعماريون ومتعالون، وإنسانيون منفتحون على الثقافة العربية الإسلامية[3].

وكما أشرنا سابقاً، فإن الاستشراق لم يسلم من الانتقاد حتى من الغربيين أنفسهم، ومن دائرة بعض المنتمين إليه. فمكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) يرى أن الاستشراق لم يعط إلا نتائج معرفية هزيلة في دراسته للإسلام، والسبب في ذلك هو عجزه عن التخلص من المعايير الإثنية الغربية عند تناوله للإسلام[4]. والمفكر الإسباني خوان غويتسلو (Juan Goytisolo) لا يقول غير ذلك. فهو يعتبر أن الاستشراق ظهر لخدمة المصالح الاستعمارية الغربية، وتسهيل عملية السيطرة على الشعوب الإسلامية[5].

والحقيقة أن المشروع الاستشراقي في أغلبه لم يكن مهيَّأً، في طبيعته الأولى، لأن يقارب الإسلام عقيدة وحضارة مقاربة تبتعد عن الاستعلاء، وذلك لعدة عوامل، منها أنه رأى النور مع بداية التوسع الاستعماري الغربي، مما جعله وسيلة في يد السياسيين من أجل تحكم أكبر في الشعوب الإسلامية المستعمرة، أو من كان الاستعمار يطلق عليهم مصطلح "الأهالي". فالدراسات التي قام بها المستشرقون حول ثقافة تلك الشعوب الإسلامية وأنماط حياتها في جميع الميادين، وظّفت في قمعها والسيطرة عليها. وباستثناء القليل من المستشرقين، كان أغلبهم مطبوعين بالإثنية الغربية المتعالية التي لم تر في الشعوب الإسلامية إلا تجمعات تحتاج إلى التحضير والخروج من البربرية.

---

(1) Arkoun, Mohammed, Ouvertures sur l'Islam, Ed., Jaques Grancher, Paris, 1989, p. 146

(2) Hanafi (Hassan), "De l'orientalisme à l'occidentalisme", Peuples méditerranéens, N° 50, Janvier-mars, 1990.

(3) انظر : Kerrou (Mohamed), op. cit, p. 250

(4) Rodinson (Maxime), "Fontomes et réalités de l'orientalisme", Quantara, N° 13, oct-nov-déc 1994

(5) Goytisolo (Juan), Chroniques sarrasines, Ed., Fayard, Paris, 1985

فالعوائق السياسية والسيكولوجية الموروثة عن الحقب السابقة، حالت دون مقاربة الإسلام كواقع ثقافي يمكن دراسته دون تدخل اعتبارات الانتماء. قلة هم المستشرقون الذين حاولوا إرجاع الأمور إلى أسبابها وهم يكتبون عن الأوضاع في العالم الإسلامي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فأغلبهم قدم تفسيرات عنصرية في شرحه للأوضاع آنذاك، وربطوها بعنصرين : الأول يكمن في العاهات الفطرية وحتى الأنطولوجية للشعوب التي تُدين بالإسلام، والثاني متعلق بالإسلام كدين "مطبوع بطابع التخلف" و"عدم الحركية" والثنائية المعروفة بـ "التعصب ـ التوكل". ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك مستوحياً ومتمثلاً للصورة الكنسية عن الإسلام. وأشهرهم إرنست رينان (Ernest Renan)، الذي تخلى عن أبسط القيم الأكاديمية، وراح يشبع الإسلام والمسلمين سباً وشتماً. فلم يكن يرى في الإسلام إلا "السلسلة الأكثر ثقلاً والتي لم تحمل البشرية مثلها من قبل". أما عنصريته فلم يتوان عن نشرها في كل المحافل. ففي محاضرة له حول "دور الشعوب السامية في الحضارة" لخص الإسلام في هذه العبارات «إن الإسلام هو التعصب، إن الإسلام هو احتقار العلم، إنه إلغاء للمجتمع المدني». وقد ذهب مذهب رينان كثيرون، ولكن ليس بالعنف نفسه، منهم لويس ماسينيو (Louis Massignon) الذي لم يكن قط متسامحاً مع الرسول ﷺ، واصفاً إياه بأنه صاحب «أفكار ضحلة، يرجع في التدبير إلى قلبه وليس إلى عقله»[1] ومنهم من تعاطف مع الإسلام وحاول دراسته بعيداً عن القوالب الجاهزة والمشوهة، مثل جاك بارك (Jacques Berque) الذي صرح في إحدى المقابلات «بأنه كاثوليكي روماني ولكنه يحب الإسلام».

أما نظرة المستشرقين الجدد إلى الإسلام، فتتسم كسابقتها بتنوعها، وذلك راجع إلى تعدد مشارب أصحابها، ولكنها تختلف عن سابقتها في مصدرها، إذ أنه ليس كُتُبياً (الدراسات الاستشراقية السابقة اهتمت أساساً بالموروث الإسلامي المكتوب، وخاصة فيما يعرف بالفيلولوجيا Philology) بل سوسيولوجيا، ومرجع ذلك إلى غلبة المدرسة الأمريكية الاجتماعية الأصل (التي تهتم بدراسة المجتمع في حركيته وتفاعله).

فالجيل الجديد يركز على دراسة الظاهرة الإسلامية معتمداً منهجيات العلوم الإنسانية والاجتماعية. وقد اعتقد الكثيرون أن هذا المنحى الجديد سيخلص الدراسات التي تتناول الإسلام، من التصورات القديمة ويخلق "قطيعة إبستمولوجية" مع عقلية

---

(1) ورغم ذلك، نذكر للتاريخ، أنه لم يمنعه ذاك من مساعدة المهاجرين المسلمين في فرنسا وشد أزرهم في الأوقات الصعبة.

الإقصاء. لكن الظاهر أن غالبية "المستشرقين الجدد" كغيرهم، يحبذون الاختصار على الجهد العلمي ذي النتائج المتوازنة. فهم كمن سبقهم، يلغون تعددية الممارسات الحضارية داخل الفضاء الإسلامي، من خلال ما يمكن أن نطلق عليه "استراتيجية التحاشي"، ويهتمون فقط بالحركات ذات الماهية السياسية، أو ما يعرف حالياً بالإسلام السياسي أو الحركة الإسلاموية. وهذا الاهتمام المشروع علمياً، كان سيجد كل مصداقيته لو اكتفى هؤلاء بدراسته دراسة علمية تنشد المعرفة، لكنهم قاربوه بطريقة استخدامية براغماتية تبتعد كل البعد عن المعايير العلمية من أجل إعادة إنتاج الصورة الكنسية القروسطية للإسلام. فمعظم ما كتبوه يتناول "الإسلام الراديكالي"، و"الإسلام المتعصب"، و"الإسلام الأصولي"، و"الإسلام المتطرف"، و"الإسلام الظلامي"، "إسلام تعدد الزوجات"، "إسلام الحرب المقدسة (الجهاد)"، إلخ...

والأخطر في كتابات هؤلاء، على عكس الجيل القديم، أنها تتوفر على وسائل عادية وترويج هائلة، تتمثل في وسائل الإعلام الحديثة بترسانتها التقنية الهائلة التي تمكنها من الوصول إلى أكبر عدد من الناس. فهذا الشريك الإعلامي الفاعل لعب ولا يزال دوراً هاماً في "شيطنة" الإسلام والمسلمين. والحاصل أن هذه "الشراكة" غير المعلن عنها، قد كانت وبالاً على الإسلام. فبدل أن تكون الدراسات الاستشراقية عنصر توازن ومصدر معرفة متوازنة ووسيلة للتواصل الحضاري بين الإسلام والغرب، في عالم تغلب عليه العقلية الإثارية الدرامية التي كرسها الإعلام في معظمه، فإن غالبيتها تتنافس في طرائق عملها مع هذا الإعلام، ويجد فيها هذا الأخير مرجعية وشرعية على أساس أنها دراسات "أكاديمية وعلمية".

وما يلاحظه الدارس عند قراءته للإنتاج الاستشراقي الجديد، أن غالبية المشتغلين به يستعملون في مقاربتهم للإسلام لغة إعلامية درامية أكثر منها أكاديمية عقلانية. ونجد هذا خاصة عند جيل كبيال (Gilles Kepel) (الذي ينتمي إلى فئة "المثقفين الإعلاميين Intellectuels médiatiques" بعبارة بيار بورديو)، وهو ذائع الصيت وترجمت كتبه إلى العديد من اللغات، منها العربية. هذا "المثقف الإعلامي" يقترب أكثر في لغته وأسلوبه من الصحافة الأسبوعية الفرنسية[1]، والفرنسية عموماً، في تناولها للإسلام منه إلى المنهج المعرفي المحكم. "فخبراء الإسلام" كما يسميهم الإعلام في لغة تهليلية مدحية، لم يستطيعوا التخلص من ذاتية انتمائهم وتحويل

---

(1) انظر دراستنا المفصلة في هذا الشأن : Rabah (Saddek), l'Islam dans le discours médiatique. Comment les medias se représentent l'islam en France ?, Al-Bouraq, Paris, 1998.

"القطيعة المعرفية" المنشودة إلى ممارسة، وهم بذلك قد اختاروا أسلوب المواجهة مع الإسلام، الذي يخول لصاحبه كل الوسائل "المشروعة" لقذف الآخر والتشنيع عليه وقدحه والتجني عليه.

ونذكر هنا أن الشيء الآخر الذي نزع عن هذه الكتابات كل مصداقية خاصة لدى الرأي العام العربي والإسلامي، هو طريقة مقاربتها "لإسلام الهجرة" الذي تعايشه يومياً. فقد قيل في تفسير التحيز الاستشراقي إنه لم يعايش المجتمعات العربية والإسلامية، ولذلك كان إنتاجه عن هذه المجتمعات حصيلة قوالب ذهنية جاهزة ومشوهة. وإذا قبلنا هذا التبرير على علاته، فما الذي يفسر تحامله على الإسلام في فرنسا مثلاً ؟. ما الذي يدفعه إلى إقصاء تعددية الممارسات داخل هذا الإسلام في كتاباته والتركيز على بعض الظواهر التي يقدمها على أساس أنها نموذج الممارسة الإسلامية في مجموعها ؟. إن الإجابة موجودة فيما ذكرناه سابقاً. لكن نضيف فقط أن الإسلام في فرنسا لم يشفع له وجوده داخل الفضاء الثقافي والجغرافي الفرنسي، في أن يقارب بطريقة أكثر موضوعية. "فخبراء الإسلام" وهم يكتبون عن الضواحي الفرنسية (باريس وليون ومرسيليا تحديداً) التي تقطنها جالية عربية ومسلمة كبيرة، لم يهتموا بتشريح أسباب الواقع الاجتماعي والثقافي البائس لهذه الجالية حيث الإقصاء والعنصرية، تزكيهما ثنائي الخطاب السياسي الذي يتغنّى بالعدالة وحقوق المواطنة، بينما الممارسات تحيل على واقع آخر، بل يشاركون، ولو "بحسن نية" في توسيع فجوة اللاتفاهم بين المجتمع الفرنسي والجالية العربية الإسلامية، ويسبغون شرعية على مطالب التطرف اليميني الداعية إلى طرد كل المهاجرين من أصل عربي إسلامي. فبتركيزهم على مظاهر "التطرف" التي تجتاح الضواحي وتحويلهم للمسلمين إلى "مجاهدين" يريدون "فتح" فرنسا، يعيدون إحياء القوالب الذهنية السابقة ويضيفون عليها، ويكونون قد نجحوا في إقصاء المشاكل الموضوعية لهذه الجالية وإخفائها.

وإجمالاً، فإن الاستشراق الجديد في معظمه[1] إعلامي ـ درامي اللغة، هزيل المنهجية، ذو إنتاج اختصاري تبسيطي، تحيزي الرؤية، ومتأثر كمن سبقه بعقلية الإقصاء والاستعلاء واختصار الآخر في مجموعة من الكليشيهات.

---

(1) للموضوعية، فإن بعض الأسماء المعروفة في هذا الميدان تبذل جهوداً محمودة من أجل التعريف بحقيقة الإسلام، وهي تندرج ضمن جهود كبرى لتقريب الأديان والحضارات، مثل كتابات الفرنسيِّين فرونسوا بورغ (François Burgat) وبيرنو اتيان (Bruno Etienne).

خطاب الكتاب المدرسي : العيوب الأنطولوجية للفضاء الإسلامي

أما المصدر الآخر الذي يؤكد هذه الرؤية ذات الطابع الخطي التواصلي للإسلام فهو الكتاب المدرسي. فصورة الإسلام وخاصة العرب في الكتب المدرسية الفرنسية مثلاً، هي امتداد للصورة التاريخية التراكمية السلبية لهذا الدين وحضارته وأتباعه. فإذا عرفنا أن المصادر المعرفية لهذا الكتاب تتغذى وبطريقة غير مباشرة، من الإنتاج اللاهوتي المسيحي الغربي حول الإسلام ومما خطت أيادي "خبراء الإسلام"، تصورنا بسهولة رؤيته للإسلام. ففي دراسة دومنيك منجنيو (Maingueneau Dominique)[1] حول خطاب وإيديولوجية المدرسة في عهد الجمهورية الثالثة، يذكر أن الدين الإسلامي قدم على أنه مأخوذ من الديانتين اليهودية والمسيحية، ويحمل بين ثناياه الكثير من الخرافات والممارسات العقيمة ؛ وهو دين جنس وملذات وتطرف يحث أتباعه على شن الحروب المقدسة ضد الشعوب الآمنة والمسالمة ؛ إنه دين غزوات ومذابح، وهو لا يشجع على تطور الإنسانية. أما الرسولﷺ فهو «شخص يدعي أنه بعث من طرف الإله، وتتسم عقيدته بأنها تجمع بين الحقائق والأكاذيب. وقد كون أمة من المتطرفين لا هم لهم إلا الغزو وذبح الآخرين». أما المسلمون والعرب خصوصاً فهم أناس "شبه متحضرين"، تتحكم فيهم قيم "التواكل"، "كسالى خاملين"، "يحملون دائماً خناجر وسيوفاً". يتضح من خلال هذه العبارات المقتطفة من بعض النصوص، كما أوردها الكاتب، أن الإسلام دين "غير رباني"، وأن رسوله رجل استهوته الأهواء، وأن أتباعه قوم يغلب عليهم الخلود إلى الأرض ولا يعرفون غير إراقة الدماء وتدمير الحضارات.

أما في الدراسة الثانية، والتي قامت بها الباحثة مارلين نصر[2] (صدرت في كتاب تحت عنوان "**صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**"[3]) والتي تناولت الموضوع نفسه في الكتب المدرسية في الوقت الحاضر، فالإسلام يختصر في "العربي"، "البدوي"، "ساكن الصحراء"، وهي مترادفات تستعمل عوض بعضها. والعربي في هذه الكتب ليس له وجود مستقل، فهو موجود بوجود الفرنسي. أما علاقته بهذا

---

(1) Maingueneau (Dominique), Les livres d'école de la République (1870-1914). Discours et idéologie, Ed., le Sycomore, Paris, 1979.

(2) Nasr (Marlène), "l'image des arabes dans les manuels de lecture de l'enseignement primaire", Mots, les Langages du politique, N° 30, mars 1992.

(3) مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995.

الأخير، فهي علاقة دونية، بمعنى أنه يحتل موقعاً دونياً مقارنة بالفرنسي. و"دونية" المسلم أو العربي ثلاثية الأطراف، فهي عقلية وأخلاقية واقتصادية.

والدراسة الثالثة أجرتها الجمعية الفرنسية "الإسلام والغرب"[1]. وقد أظهرت أن صورة الإسلام، في الكتب المدرسية، تحسنت قليلاً، إلا أنها ما زالت تخضع للنموذج نفسه التاريخي والاختصاري السلبي والتضخيمي للإسلام في الرؤية الغربية عموماً ؛ فهي وإن لم تتسم بالعداوة المفرطة والمباشرة لكل ما هو إسلامي، فإنها تحمل في طياتها وبصورة، غير واعية أحياناً، مفاهيمَ وأفكاراً تحط من شأن الإسلام والمسلمين. وتظهر العالم العربي والإسلامي في الوقت الحاضر كعالم متخلف، يعتمد على المساعدات الخارجية الغربية ؛ غير منتج، ولا يملك إلا تصدير البترول واليد العاملة. أما الحضور الإسلامي في فرنسا، فلا ذكر له ويتم تحاشيه تماماً، وإن تم التطرق إليه فمن خلال "موائد رمضان" حيث التأكيد على البعد البذخي والإسرافي للمسلمين، أو كما تسميه بعض وسائل الإعلام الفرنسية "شهر الأكل والتخمة". وهنا نشير إلى خطورة هذه الصورة القاتمة والسلبية عن الإسلام والمسلمين، وخاصة ونحن نعرف أن الكثير من أبناء الجالية العربية والإسلامية يزاولون دراستهم بالمدارس التي تدرس فيها هذه الكتب. وهنا نطرح بعض الأسئلة على القائمين بإنتاج الكتاب المدرسي الفرنسي : لماذا يتم تحاشي الحديث عن الحضور العربي الإسلامي في فرنسا بكل معطياته ؟. ولماذا يتم التركيز فقط على بعض الجوانب الهامشية في هذا الحضور ؟، وهل فكروا، وهم يضعون هذه المناهج الدراسية، في أبناء الجالية العربية الإسلامية ورد فعلهم وهم يقرأون ما كتب عن دينهم وحضارتهم وأمتهم ؟. الواضح أن هذه الأسئلة وغيرها غير حاضرة في ذهن القائمين على إنتاج المعرفة المدرسية، وتلك عدم مسؤولية يجب تداركها.

ولا يخلو الكتاب المدرسي من مصطلحات تحمل أحكاماً قيمية خطيرة بشأن الإسلام والمسلمين : كالتطرف وعدم التسامح والتواكل والعنف والقمع. فالإسلام يُقَدَّم على أنه دين غير سماوي، أتى به رجل يدعي أنه أوحي به إليه، وهو دين حدد فيه الله ـ ونلاحظ هنا أن استخدام مصطلح الله بدل "Dieu" في الفرنسية يوحي بأن للمسلمين إلهاً خاصاً بهم، كما كان للرومان معبودهم "جوبتار" ـ مصير الإنسان إلى

(1) Islam et Occident, L'image de l'Islam dans les manuels scolaires français, Ed., Association française "Islam et Occident", Paris, 1984.

الأبد (وهي مصدر فكرة انتشار "تواكل" المسلمين في الغرب). كما يؤكد الكتاب المدرسي أن المسلمين فرضوا الإسلام على الآخرين، وهو تأكيد لفكرة انتشار الإسلام بحد السيف.

الخطاب الإعلامي : ماهوية "معقلنة" تباركها ممارسات جانحة في الفضاء الإسلامي

أما المكون الأخير لهذه الرؤية والذي دخل بفاعلية في إعطاء دفع وقوة كبيرين لهذه القراءة الخطية، فهو الإعلام بكل ترسانته وقوة تأثيره في صياغة الأذهان. فبالإضافة إلى القوالب التاريخية الجاهزة والوحدات الذهنية المستعصية على الطرح العقلاني، دخل هذا الفاعل الاجتماعي الحديث والأكثر حضوراً، حلبة "المعركة" مستغلاً كل إمكاناته لإحياء الصور القديمة ـ الجديدة وتفعيلها وتقديمها للغربي كحقائق بديهية. هذا الإعلام، ومن خلال دراسة قمنا بها حول كيفية مقاربته للإسلام (الإعلام الفرنسي كنموذج)، بإثاريته ودراميته وتركيزه في معالجة الإسلام على كل ما هو شاذ، يزيد من توسيع الفجوة بين المواطن الغربي وكل ما هو عربي وإسلامي. فهو لا يقارب الإسلام إلا من خلال مفاهيم ومصطلحات من قبيل : التطرف، والأصولية، والحرب المقدسة، تعدد الزوجات، والجهاد، والإرهاب، إلخ... فكيف لمواطن غربي بسيط، يتغذى من الثقافة الإعلامية، أن يفهم الإسلام فهماً معقولاً بعد كل "القصف" الإعلامي اليومي الذي يتعرض له من كل وسائل الإعلام. فالأصوات "الناشزة" إعلامياً والتي تقدم صورة معقولة عن الإسلام، لا تُسمع ويتم إقصاؤها، وتُرحب معظم وسائل الإعلام "بخبراء الإسلام" الذين يصيحون صباح مساء بأن الإسلام هو عدو الغرب بعد سقوط المعسكر الشرقي[1].

ونجد أن هذه القراءة الخطية ذات الطبيعة التراكمية، "يباركها" ويعطيها مصداقية، بطريقة غير مباشرة ولكنها فاعلة، الواقع المزري داخل الفضاء الإسلامي من خلال مجموع القراءات والممارسات الجانحة ؛ وهي عادة ما ترجع إما إلى خلط جاهل بين الدين والتقاليد، وإما إلى قراءة مغال فيها وذات رؤية اختصارية عاجزة عن مقاربة الإسلام بطريقة معرفية شاملة تأخذ بعين الاعتبار مجموع المتغيرات الدينية والدنيوية. وهنا نذكر بغياب الفرق بين "الفعل القرآن أو الإيماني" و"الفعل الإسلامي"

---

(1) انظر الدراسة المفصلة التي قام بها الكاتب : .Op., cit

بعبارات محمد أركون ؛ هذا الغياب أو التغييب جرَّ على الإسلام الكثير من الويلات، وهو أساساً مصدر ثري يتغذى منه الخطاب السائد حالياً حول الإسلام. "فالفعل القرآني" بربانية مصدره رحب الآفاق ويترك للفرد هامشاً واسعاً من الحركة داخل العالم، وتكمن قدسيته في قدرته على احتواء الفعل الإنساني في حركيته التاريخية. هذا "الفعل القرآني" الثابت والمتحول في الوقت نفسه هو الذي مكّن الإسلام من البقاء داخل التاريخ، وتأسيس حضارة وبناء أمة شاركت في الصرح الإنساني، وهي الآن "متقاعدة" وخالدة إلى الأرض بالتعبير القرآني. كما أنه في آخر المطاف غير متحجر ويمكن تفعيله للتجاوب مع المتغيرات التاريخية. ولسنا هنا في حاجة للتذكير بأن "الفعل القرآني" يُثمِّنُ القيم الإنسانية العالمية ويجعل منها أساساً للتقارب والتواصل بين الأمم ويحث المؤمنين به على "الانتشار في الأرض" وتعمير الأرض وإصلاحها (وهنا يجب التدبر في المصطلح القرآن : الإصلاح في الأرض، لأن استيعاب هذا المصطلح استيعاباً إيجابياً أمر مهم جداً في البناء اللاحق لبناء فعلي "السعي" والمعرفة").

ومشكلة الفضاء الإسلامي لا تكمن في هذا "الفعل الإيماني"، ولكن مبعثها "الفعل الإسلامي"، ونقصد هنا النظام المعياري الإسلامي. هذا النظام الذي صاحب الأمة الإسلامية وجعلها تشارك في فعل التاريخ، أصبح اليوم أحد عوامل جمودها ووجودها خارج التاريخ. فالطابع "القدسي" الذي يحاط به هذا النظام، يجعل من الحركة "ردة"، ومن التفكير "بدعة" ومن الجهد المعرفي لتفعيل المعايير الإسلامية خيانة "للإسلام". وهنا يكمن داء الفضاء العربي الإسلامي ومبعث آلامه. وهذه السلبية القاصمة تجعل الفضاء الإسلامي يدور حول نفسه ويراوح مكانه ويبدو من الخارج كصحراء قاحلة لا نبت فيها ولا زرع، يقطنها أناس أنظارهم متجهة إلى الماضي، مجتمعين حول أطلال يعبدونها ويقدسونها، ولا هم لهم إلا تقبيح الحضارة الحالية ونعتها بصفات اللاأخلاقية والمجون.

وإذا كان الفضاء الغربي ينتج خطاباً اختصارياً وكاريكاتورياً عن الإسلام، فإنه لا يجب أن يكون المشجب الذي تعلق عليه كل الأخطاء كما يقول مالك بن نبي وهو يتكلم عن الاستعمار. فالفضاء الإسلامي، وهو يشارك بطريقة غير واعية في بناء صورة الإسلام عند الغرب، مسؤول إلى حدود كبرى عن هذه الصورة المشوهة. وربما يميل بعضهم إلى القول إن هذا القول فيه بعض التجني، ولكنه وللأسف حقيقة نعايشها ولسنا في حاجة إلى معرفة متعمقة للتدليل على ذلك.

خلاصة : حدود المقاربات الماهوية الغربية للإسلام

بعد الذي تقدم، هل يمكننا الحديث دائماً عن "المفارقة". إن استعراضنا للصورة التاريخية للإسلام، قد بين لنا أن الرؤية الفرنسية والغربية للإسلام، في عمومها، كدين وحضارة، والتي يعاد إنتاجها بصيغ مختلفة منذ العصور الوسطى إلى حد الآن، تسيطر عليها عقلية الإقصاء والقبليات النمطية الجاهزة، وتتسم بالماهوية واختصار الإسلام في مجموعة من السلبيات المضخّمة. وقد أعادت "مجتمعات المعلومات" إنتاج هذه النمطيات في قوالب جديدة ضمن سياقات تسودها "الثقافة الجماهيرية"، حيث يشكل الإعلام بجميع وسائله، أحد أهم مصادر المعرفة، بما في ذلك إنتاجه "المعرفي" حول الآخر. وإذا عرفنا طبيعة هذا الإعلام وفلسفته والآليات التي تتحكم فيه وطرائق مقاربته للإسلام، فهمنا استمرارية الرؤية الفرنسية والغربية الحالية "لدين محمد Religion de Mahomet" كما يقول الفرنسيون.

ومجمل القول إن المقاربات الغربية للإسلام هي مقاربات ماهوية في عمومها عجزت عن تمثل حركية الإسلام داخل التاريخ، بحيث أفرغته من أي محتوى إنساني وحضاري، وجعلت منه كياناً ثابتاً لا حراك فيه، وأنكرت عليه مشاركته في فعل التاريخ وصياغته. فإسلام المقاربات الماهوية، سواء تلك التي تدعي العلمية أو الإعلامية الإثارية، كم هائل من السلبيات المضخمة : تطرف، تعصب، راديكالية، تخلف، تواكل، إرهاب، شمولية خانقة للفرد، مصادرة حريات باسم "إله تسلطي"، إلخ... هذه الرؤية الماهوية هي محصلة تراكمات ضخمة كما ذكرنا، بدأت مع القرون الوسطى الكنسية وتواصلت حتى الآن. فبنيات الخطاب المنتجة للإسلام عبر هذه الفترة الطويلة وإن تباينت في أشكالها اللغوية وتعددت في تعبيراتها، فهي متجانسة المحتوى وذات وحدات ذهنية ثابتة، تتغذى من المصادر نفسها التي لا تنضب أبداً.

ويمكن اختصاراً إجمال ما تقدم في النقاط التالية :

1. إن إشكالية الإسلام تندرج ضمن إشكالية كبرى وهي الخطاب حول الآخر، الذي عادة ما يكون رهن تصورات قبلية لا علاقة لها بحقيقة كيانه ووجوده الثقافي. فالإسلام بهذا المنظور كيان تعاد صياغته وفقاً للمفاهيم الغربية فحسب ؛
2. إن الصورة المشوهة للإسلام هي نتاج لتراكمات تاريخية بدأت في العصور الوسطى وتواصلت حديثاً. فهي وإن تغير شكل التعبير عنها، فهي ذات محتوى

ثابت. فالتأكيد على البعد الديني فقط في الإسلام وإقصاء الجوانب الحضارية الأخرى من خلال ما يمكن أن نطلق عليه استراتيجية التحاشي، يخلق بالضرورة رؤية سيئة عن الإسلام ؛

3. إن إخضاع الإسلام بِبُعْدَيه العقدي والشعائري للنموذج الإعلامي ذي الطابع الدرامي الإثاري والاختصاري، لابد وأن يخلف تصورات غير موضوعية عن الإسلام، وبعيدة عن تعددية الممارسات الثقافية والاجتماعية داخل هذا الدين ؛

4. إن المخيلة الجماعية للمجتمع الغربي عموماً والفرنسي تحديداً والمتأثر بالثقافة المسيحية الغربية، تبنت التصور التاريخي اللاهوتي للإسلام الذي تحمله هذه الثقافة. فبالرغم من العقلانية التي يتبناها المجتمع الغربي، خطابياً على الأقل، إلا أنه يتلقى الإسلام وفقاً للأحكام المسبقة التي روجتها كتابات الإقصاء من العصور الكنسية، ومروراً بفلسفة الأنوار (للقارئ أن يرى ما كتبه فولتير، وديدرو، ومونسكيو، وتوكفيل، إلخ...) وصولاً إلى الدرامية الإعلامية في الوقت الحاضر ؛

5. إن الكتابات التي تناولت الإسلام بطريقة "أكاديمية" كبعض كتابات الاستشراق، قد عملت على تدعيم غالبية الصور القبلية عن الإسلام. فبالرغم من ادعائها الأخذ بالعلمية والموضوعية، إلا أنها لم تفلح في التخلص من مركزيتها الإثنية والدينية، وتقارب الإسلام بطريقة بعيدة عن العقلية اللاهوتية القروسطية الإقصائية في طبيعتها ؛

6. إن الكتب المدرسية التي يستقي منها المواطن الغربي (يتعلق الأمر تحديداً بالكتاب الفرنسي) ثقافته عن الآخر العربي الإسلامي، لا تساعد على إبراز الإسلام على حقيقته. فبعض الدراسات، التي أشرنا إليها سابقاً، والتي تناولت هذه الكتب، تبرز، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الإسلام والمسلمين والعرب بصفة خاصة، يصورون بطريقة تتنافى مع واقعهم بكل أبعاده المختلفة ؛

7. إن الوحدات الذهنية المكونة للمخيلة الجماعية الغربية السلبية عن الإسلام، تزكيها وتدعمها وتغذِّيها الممارسات الحاصلة في بعض الفضاءات العربية والإسلامية. فما يسميه البعض "اللحظات" البارزة (الصراعات التي عرفتها وتعرفها بعض المجتمعات العربية والإسلامية، مثل مصر والجزائر وفلسطين

والسودان والعراق وأفغانستان وأندونيسيا)، والتي تعد مصدراً ثرياً في تضخيم الصورة السلبية للإسلام في الغرب، عملت على تثبيت وخلق نموذج لا يعبر عن حقيقة الإسلام في العالم الغربي. وقد أدى ذلك إلى تعميم هذه القراءة كنموذج قابل للتطبيق على العالم العربي والإسلامي كله. ودليلنا على ذلك طريقة مقاربة واقع الإسلام والمسلمين في فرنسا، حيث يتم إقصاء خصائصه بصورة منتظمة، وهو ما يؤدي عادة إلى بناء صورة غير واقعية عن هذا الإسلام بخصوصيته وعن الإسلام عموماً ؛

8. بالرغم من كل مفردات هذه الصورة المشوهة عن الإسلام، فإن محبي التآخي بين الأديان بدأوا يسمعون صوتهم للوقوف في وجه مخطط الإقصاء المتبادل الذي تمارسه جماعات الغلو والتطرف في الحضارتين، ومن أجل خلق تواصل حضاري مبني على قبول الآخر باختلافه الديني والحضاري. وتلك خطى واثقة على طريق تحقيق تفاهم يقوم على احترام الآخر والتخلي عن إقصائه، مهما كان مختلفاً دينياً وثقافياً.

دور الصحافة في تصحيح صورة الإسلام في الغرب ومعالجة ظاهرة (الإسلاموفوبيا)

د. حسن عزوزي(*)

تقوم منابر التثقيف والتوجيه والإعلام في أي مجتمع، بوظيفة أساسٍ هي صنع الصور الذهنية لأفراد المجتمع وتكوينها والترويج لها وترسيخها في العقل الجماعي. والمقصود بالصور الذهنية تلك التصورات العقلية الشائعة بين أفراد جماعة معينة والتي تحدد اتجاه هذه الجماعة نحو شخص أو شعب أو فكرة أو غير ذلك، وهذه الصور الذهنية قد تتحول إلى صور نمطية (Stéréotypes) عندما تتكرر على نحو ثابت وجامد، وتتسم بالتبسيط المفرط والتعميم الواسع، وتبرز وسائل الإعلام بوصفها أهم وأخطر المؤسسات الاجتماعية التي تسهم بدور فاعل ومؤثر في صياغة الصور الذهنية والنمطية في العقل الجماعي للمجتمعات الحديثة.

وبالنسبة للإساءة للإسلام وحضارته ومحاولة الترويج للصور النمطية الكريهة والمسيئة وتشويه صورة الإسلام والمسلمين، يمكن القول بأن الأمر ليس جديداً في المجتمعات الغربية، بل هي ظاهرة قديمة لكنها متجددة، فالغرب المسيحي يستمد صورته الذهنية عن الإسلام من خلال الاحتكاك العنيف الذي طبع تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب خلال القرون الوسطى وإلى نهاية الحروب الصليبية، بيد أن النظرة إلى الإسلام وقتئذ كانت شعبية مفعمة بالحقد ومشبعة بالخيالات الغريبة والتصورات الموغلة في التهويل والتشويه والتمييع.

ومع تراجع الزحف الصليبي وبروز الخلافة العثمانية بزخمها وقوتها وتوسعها الكاسح، ظهر نوع من التخوف من الإسلام والمسلمين دفع من عُرفوا بالمستشرقين إلى إنجاز دراسات عن الإسلام والمسلمين بمختلف اللغات، شحنت بأفكار وصور نمطية

(*) أستاذ بكلية الشريعة، جامعة القرويين، فاس، المملكة المغربية.

سلبية موغلة في الازدراء والاستخفاف بالإسلام ونبيه وتعاليمه. وقد كانت الأوصاف التي أطلقها المستشرقون كاشفة عن مدى التعصب والحقد الذي كان يهيمن ويسود في البلدان الغربية. وإذا انتقلنا إلى المرحلة الاستعمارية، وجدنا أن واقع الاستعمار الأوروبي للبلدان الإسلامية كان منبعاً لكثير من الصور النمطية الزائفة التي صنعها الغرب عن الشرق، وهي الصور التي عادت فيما بعد لتزكي وتبرّر نزعة الاستقلال والاستعلاء في الوعي والشعور الغربي. وفي العقود الأخيرة وابتداء من نصف القرن العشرين، اضطرت الحكومات الغربية للجوء إلى متخصصين في شؤون الشرق الأوسط يهتمون بطبيعة الحال بظاهرة الصحوة الإسلامية التي أخذت تتنامى مع عقد الثمانينيات. وهؤلاء الخبراء الاستراتيجيون هم في غالب الأحيان إما أساتذة العلوم السياسية والاجتماعية، أو خبراء في معاهد الدراسات الاستراتيجية التي يشرف عليها صناع القرار الغربيون. إن معرفة هؤلاء بالإسلام سطحية جداً، لكن لهم دراية وخبرة في اقتناص وتصيّد "كليشيهات" معينة عن الإسلام صاغها المستشرقون التقليديون في كتبهم أو تناقلتها وسائل الإعلام الغربية بمختلف مكوناتها. وبذلك يكون الإسلام هدفاً مستساغاً من أجل تكوين وعي محدد عنه يتلاءم ومصالح الغرب ومطامحه، وبذلك يسهل تحقيق عملية "**كيفية الصنع والتصوير**" وتجديد طبيعة المعرفة الواجب تشكيلها عن العالم الإسلامي، وهي معرفة بالغة السلبية وموغلة في نهج أسلوب التخويف والترويع والتحذير.

دور القَوْلَبَة الإعلامية المعاصرة

إذا انتقلنا إلى وسائل الإعلام الغربية المعاصرة، وجدناها أخطر المؤسسات التي تسهم في تشكيل صور نمطية عن الإسلام وتكوينها، وإذا كانت هي ذاتها ترتكز على ما تفرزه جهات ومصادر أخرى مما سبق ذكره، فإنها تعيد صياغة تلك الصور الذهنية وحبكها بما يجعلها أكثر إثارة وجاذبية، فهي بما تمتلكه من إمكانات جبارة وقدرة هائلة على الانتشار وقوة الجذب والتأثير، تعمل على جعل المادة الإعلامية التي تصنع بها الصور النمطية المسيئة، مادة جماهيرية يتلقفها المشاهدون أو القراء فيتأثرون بها وترسخ في أذهانهم بشكل طبيعي وتلقائي.

وتعتبر القولبة الإعلامية Stéréotypie أبرز وسيلة ينهجها الإعلام الغربي من أجل توصيف الإسلام في إطار قوالب نمطية موغلة في الازدراء والتشويه. ويعبر مفهوم القولبة الإعلامية عن تحديد مسبق لفكرة أو مجموعة من الأفكار تغذيها خلفيات معرفية محددة، وتهدف بشكل تبسيطي وتعميمي إلى وصف الآخر انطلاقاً من انتماءاته الدينية أو العرقية أو غير ذلك.

والقولبة الإعلامية التي يحلو للإعلاميين الغربيين اللجوء إليها عندما يراد الحكم على الإسلام وتوصيفه، تستند إلى جهاز كامل من الأحكام المسبقة préjugés والتي لها رصيد ضخم في المخيلة الغربية، مما يجعل تصور العالم الإسلامي بكل مكوناته ومقوماته، إنما يتم من خلال خلفيات فكرية سابقة تهدف بالأساس إلى الدفاع عن مصالح وأهداف معينة. وعملية القولبة الإعلامية كما يمارسها الغرب في حق الإسلام، يبتغي من ورائها إلصاق تهمة الإرهاب والعنف بالإسلام، وذلك من أجل الحيلولة دون إقبال الغربيين على الإسلام أو حتى التعرف عليه. فالصورة النمطية المشوهة التي ترسخها عملية القولبة الإعلامية الغربية في ذهن الإنسان الغربي تهدف إلى التخويف من هذا الدين والترويع من كل ما يمت بصلة إلى المسلمين الذين يوصفون أحياناً بأقذر الأوصاف وأقبحها.

ولا يخفى في هذا السياق أن القولبة الإعلامية الغربية قد عملت خلال العقدين الأخيرين على تكوين عملية دعائية استهدفت تعريب وأسلمة "الإرهاب"، وبذلك أصبح العالم العربي والإسلامي الضحية النموذجية لما يطلق عليه بلغة الإعلام "شيطنة العدو" أي تحويل العرب والمسلمين من دون استثناء، إلى شر مستطير وإلى مصدر رعب وتخويف. وتسعى وسائل الإعلام الغربية إلى تكريس ذلك وتأكيده من خلال تقديم إحصائيات مهولة أو رسوم كاريكاتورية مثيرة، أو تحقيقات ميدانية في بلدان العالم الإسلامي تبعث على تصوير المسلمين متخلفين ومتطرفين وناقمين على الغرب إلى غير ذلك.

ظاهرة الإسلاموفوبيا وأسباب تفاقمها

لقد أصبحت لفظة "إسلاموفوبيا" مصطلحاً جامعاً ودالاً على عمليات التشويه والتمييع لصورة الإسلام انطلاقاً من مرض الخوف منه. إنه المصطلح الأكثر تعبيراً عن عقدة الخوف والهلع من انتشار الإسلام ونفوذ قوته الدينية والثقافية والبشرية داخل المجتمعات والدول الغربية. وترد كلمة "الفوبيا" Phobia في القواميس النفسية بمعنى الخوف المرضي والرهبة[1] والإرهاب، إنها تدل تحديداً على القلق العصبي أو العصاب النفسي الذي لا يخضع للعقل ويساور المرء بصورة جامحة من حيث كونه رهبة في

(1) جاء في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة القصص (الآية 32) : ﴿ **واضمم إليك جناحك من الرهب** ﴾ أي من الخوف.

النفس شاذة عن المألوف يصعب التحكم فيها[1]. وتدل اللفظة أيضاً، على خوف لاشعوري من أشياء أو أشخاص أو مواقف ليس له في الشعور ما يبرره أو يفسره.

وفي الاصطلاح العام تدل لفظة "إسلاموفوبيا" على ما تم ترسيبه وتكريسه وإشاعته من قلق مرضي وخوف نفسي لاشعوري لدى الغرب من الإسلام، وكل ما يتصل به. وينتعش هذا المصطلح بصورة أكبر عندما يحتد العداء الغربي للإسلام ويظهر من خلال القيام بحملات تشويهية لصورة الإسلام، خاصة عبر الإعلام الغربي بكل مكوناته.

من جهة أخرى، لم يكن صعباً على الغرب في فترة من الفترات، العمل على إشاعة الخوف من الإسلام وإحداث نوع من الاقتناع لدى الإنسان الغربي بأن الإسلام دين مخيف وعدو جديد وخطر محدق بالحضارة الغربية. ومنذ قرون تمكن الغربيون، من كنسيين ورهبان ومستشرقين واستعماريين، من إيجاد صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين تُجَرِّدُ الإسلام من كامل خصائصه وملامح حضارته الإنسانية، وذلك ضمن ملامح جديدة محددة وثابتة تعبر عن صور ذهنية عن الإسلام والمسلمين ترسخ في العقل الغربي.

إن الإسلاموفوبيا تعني إجمالاً توليد الخوف من الإسلام وأهله وإشاعته في العالم أجمع، وذلك عن طرق شن حملات مشحونة بالدسائس والأكاذيب الموجهة إلى الإسلام وحضارته. وإن مصطلح (الإسلاموفوبيا) وإن كان من نتائج حملات التشويه الضارية، فإنه في الوقت نفسه من أبرزها وأكثرها شهرة وشمولاً، وهو مصطلح جامع لعمليات التشويه ونتائجها وصارت الكلمة هي الأكثر دلالة على ذلك.

وقد عبر أحد الصحفيين السويديين عن ذلك عندما قال : «لو أن مائة ألف عربي قتلوا لما انتابني أي شعور غير عادي، أما بالنسبة لقوات الحلفاء الغربيين فالأمر مختلف لأني أشعر بالتعاطف معهم ومع أسرهم، إن العرب يبعثون الخوف في نفسي على أية حال».

وقد عبر "إريك هرستاديوس" Eric Horstadins عن هذا الشعور كتابة في مجلة (سليتز Slitz) السويدية بعيد انتهاء حرب الخليج عام 1991 بوقت قصير، وباستثناء صوتين اعترضا عليه، مر هذا الموقف برغم كل ما ينطوي عليه من عنصرية واضحة

---

(1) د. أسعد رزوق : **موسوعة علم النفس**، طبعة بيروت، 1979، مادة فوبيا.

دون أي سجال يذكر أو حتى اكتراث، ويرجع ذلك إلى سبب في غاية البساطة، هو أن هذا الموقف ليس شاذاً عن آراء الغالبية الساحقة من السويديين ومشاعرهم[1].

ويكمن إجمال أسباب تفاقم واستمرار ظاهرة الإسلاموفوبيا فيما يلي :

أولاً : قدرة الإسلام على الانتشار والامتداد، فالغربيون يعترفون مع شيء من الحيرة والدهشة، بأنه فعلاً هناك ما يخيف في الإسلام كدين كاسح له قابلية التنامي والانتشار بسرعة مذهلة، كما رأوا فيه ديناً يحمل في جوهره روحاً وثابة وقدرة خارقة على الامتداد جغرافياً في شتى بقاع العالم، وهذا ما أثبته بعض الخبراء الاستراتيجيين الغربيين أنفسهم عندما اعترفوا بأن الإسلام هو أكثر الأديان نمواً وأقواها تأثيراً في النفوس وأوفرها أتباعاً جداً، يقول جون اسبوزيتو وهو يتحدث عن جذور الصراع بين الإسلام والغرب : «إن النجاح والتوسع الكبيرين كانا بمثابة التحدي للغرب على المستوى الديني والسياسي والثقافي، وشكل تهديداً للغرب المسيحي، وكل من الإسلام والمسيحية لديه شعور برسالة ومهمة عالمية، ولذلك كان محتماً أن يؤدي ذلك إلى المواجهة بدلاً من التعاون[2] ويبدو أن الوجود الإسلامي المكثف بالدول الغربية دفع إلى الاعتقاد بأن ذلك يشكل تهديداً محتملاً على مستوى التركيب السكاني لمنظومة الغرب (الأورو ـ أمريكي).

ثانياً : إن إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام بكثافة وبكل تلقائية وطواعية واقتناع، يجعل مواطنيهم من المهتمين والمتتبعين، يتخوفون من احتمال تناقص أتباع المسيحية لصالح الإسلام، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن الإحصائيات الغربية ذاتها تثبت أن مجموع أعداد المسلمين بأوروبا وأمريكا ينيف على الخمسة والعشرين مليوناً، ستة منها تتحرك داخل أمريكا، وتأتي بعدها فرنسا التي يوجد بها ما يناهز الخمسة ملايين.

ثالثاً : استمرار العلاقة غير المستقرة بين الإسلام والغرب عبر التاريخ، وهي علاقة معقدة سمتها الغالبة حصول التواصل حيناً والتنافر حيناً آخر، لكن التنافر وحصول الصدامات والصراعات كانا أمراً غالباً، ولذلك اعتبر الإسلام ديناً غريباً يشكل خطراً على الغرب، ويرجع السبب الرئيس في استمرار هذا العداء إلى أن الغربيين ورثوا

---

(1) انجمار كارلسون : **الإسلام وأوروبا : تعايش أم مجابهة**، ترجمة سمير بوتاني، مكتبة الشروق، القاهرة، ط 2003/1، ص 13.

(2) جون اسبوزيتو : **التهديد الإسلامي، خرافة أم حقيقة**، ص 318.

ذلك منذ قرون عديدة، وبقيت صورة الإسلام في الغرب مشوهة، لكن بشكل أقل حدة. يقول المؤرخ الفرنسي الشهير جوستاف لوبون Gustave le Bon : «إننا لسنا أحراراً قط في تفكيرنا حول بعض المعلومات، فقد استمر التعصب الذي ورثناه ضد الإسلام ورموزه خلال قرون عديدة حتى أصبح جزءاً من تركيبنا العضوي»[1].

رابعاً : إن تزايد أعداد العرب والمسلمين وأبنائهم وأحفادهم في البلدان الغربية ودخول نخبة منهم إلى البرلمانات الأوروبية، يمكن أن يؤدي في المستقبل المنظور إلى إمكانية بروز دور للجاليات العربية والإسلامية على القرارات السياسية للدول المضيفة، وهي دول تخضع إلى حد كبير إلى تحالفات اللوبيات اليهودية والمسيحية الغربية المتعاطفة معها في إطار التراث اليهودي المسيحي Juéo-christianisme، ومن المنطقي أن تحس اللوبيات بالخطر المحدق بنفوذها.

واجب تصحيح وإبراز صورة الإسلام

لاشك أن من أكبر دواعي استمرار وتمادي الإعلام الغربي في تهجمه وتشويهه لصورة الإسلام، هو سكوتنا ولزومنا للصمت حيال مختلف الحملات الإعلامية المغرضة ضد الإسلام، فأمست بذلك الآلة الإعلامية الغربية لا تجد غضاضة في نهج السبل لعرض الإسلام وتحليله وتصويره بشكل يجعله "معروفاً" حسب طريقتها للقراء والمشاهدين الغربيين، فتكون من جراء ذلك صور مشوهة عن ديننا طالت كل مجالاته وتعاليمه ومبادئه، وتكرست في أذهان الغربيين وأمست شيئاً مألوفاً، فأصبحنا نقرأ ونسمع أوصافاً فظيعة وتهماً مكذوبة وأراجيف مختلقة توجه ضد الإسلام والمسلمين. ولا ينكر أحد ما تقوم به بعض الجهات الرسمية والمؤسسات الإعلامية والمنظمات الإسلامية وعلى رأسها الإيسيسكو، من واجب ممارسة حق الإنكار والاحتجاج من جهة، والعمل على تصحيح المعلومات عن صورة الإسلام من جهة أخرى. لكن الواجب يفرض القيام برسم خطة محكمة لرصد كل الحملات والانتهاكات الإعلامية التي تمارس ضد الإسلام والمسلمين بهدف البحث عن أسبابها وخلفياتها ثم مواجهتها والتصدي لها[*].

---

(1) مالك بن نبي : **مستقبل الإسلام**، طبعة بيروت، ص 29. صدر هذا الكتاب في سنة 1954 باللغة الفرنسية عن دار سوي (Seuil) بعنوان (Vocation de l'Islam). وظهرت ترجمته الأولى إلى العربية في القاهرة بعنوان (**وجهة العالم الإسلامي**) من إنجاز الدكتور عبد الصبور شاهين. ثم ظهرت ترجمة ثانية للكتاب في بيروت بعنوان (**مستقبل الإسلام**) من إنجاز شعبان بركات، ثم ظهرت الترجمة الثالثة له بعنوان (**نداء الإسلام**) من إنجاز رمضان لاوند ـ **المحرر** ـ

(*) أعدَّت الإيسيسكو هذه الخطة واعتمدت من طرف المؤتمر الإسلامي لوزراء الثقافة ـ **المحرر** ـ

ولاشك أن واجب إبراز صورة الإسلام يستدعي الإحساس المتزايد بضرورة مساءلة النفس ومراجعة الذات للنظر في مستوى مسؤوليتنا نحن المسلمين بخصوص طبيعة صورة الإسلام في الغرب، فالأمة الإسلامية مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى، بممارسة ضرب من ضروب النقد الذاتي البناء لمواجهة التحديات والضغوط التي تتعرض لها دون انكفاء أو التواء أو تقهقر[1].

والمقصود من هذا هو أن تصبح معركة تصحيح صورة الإسلام وإبرازها ومواجهة المتغيرات الدولية بصفة عامة، معركة ذاتية بالدرجة الأولى، تخص العالم الإسلامي بدل أن نلقي اللوم دوماً على الآخرين، وذلك انطلاقاً من المبدأ القرآني الذي ينص على ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾.

إن مما لاشك فيه أن اللبنة الأساس لتغيير صورة الإسلام والمسلمين في الغرب على نحو إيجابي، تكمن في تصحيح صورة الأمة الإسلامية، وذلك بترشيد أحوالها وتحسين ظروفها وتغيير أوضاعها وفقاً للمنهج السليم والأسلوب القويم، حيث إن المسألة تتعلق أولاً بتصحيح صورة الإسلام في العالم الإسلامي قبل التفكير في إبراز هذه الصورة في المجتمعات غير الإسلامية، وذلك أن صورة الإسلام في الخارج قد تظل غير واضحة القسمات ولا مكتملة الملامح ما لم يقم المسلمون بتصحيح صورهم في الداخل بما يتناسب ومتطلبات العصر ومستجداته، وفقاً لتعاليم الإسلام السمحة وقيمه الكريمة. والعمليتان التصحيحيتان ينبغي أن تسيرا بشكل متواز ومتناغم.

من هنا تبدو مسؤولية الصحافة المكتوبة باعتبارها وسيلة مهمة من وسائل الإعلام في العمل في هذا الاتجاه، متضاعفة في هذه المرحلة الدقيقة التي يمر بها العالم الإسلامي الذي يعاني من شدة تشويه صورته، وتصاعد موجات الكراهية والعداء للإسلام وتحريف مبادئه وحقائقه.

عوامل نجاح الصحافة المكتوبة في تصحيح صورة الإسلام

لكي يكون للصحافة المكتوبة دور رئيس في إبراز صورة الإسلام وتصحيحها يتعين البحث عن سبل تحقيقها للتأثير المطلوب والفاعلية المنشودة، فالإنسان يحتاج إلى زمن طويل لكي يغير نمط تفكيره، وهذا التحول لا يتحقق إلا من خلال تعرضه لمصادر معلومات غير التي نشأ وهو يستقي منها أفكاره، وهذا ما ينبغي أن تحققه

(1) الإيسيسكو : **رؤية الإيسيسكو إلى المتغيرات الدولية**، نص مرقون، ص 4.

الصحافة المكتوبة كمصدر معلومات جديد بالنسبة للقراء الغربيين الذين قد تتغير مواقفهم من الإسلام والمسلمين بفعل تأثير الصحافة المكتوبة الهادفة إلى تصحيح صورة الإسلام المشوهة وبناء صورة بديلة. والصحافة المكتوبة إذا صح أداؤها وحسن توجهها وانبنى عملها على رؤية استراتيجية واضحة، تبصر بالأهداف وتحددها بحسب الأولويات، وتضع البرامج والمناهج الموصلة إليها، فإنها كفيلة بأن تحقق في مجال التعريف بالإسلام وإبراز صورته الانتشار والفاعلية وتحقق التأثير المستهدف.

إن الصحافة المكتوبة مسؤولة إلى حد كبير عن تشكيل رأي عام صحيح تجاه الإسلام محلياً ودولياً، وهي فاعلة بقدر واسع في صنع النماذج الثقافية والحضارية. وفي طمس وتبديد وتذويب النماذج المضادة التي تسهم في تشويه الإسلام وحضارته، وتستطيع الاضطلاع بأدق المهام وأخطر الأدوار لما تتمتع به من التنوع والتعدد وسعة الانتشار والقدرة على الوصول إلى أكبر عدد ممكن من القراء في أي وقت وفي أي مكان. ولكي يكون للصحافة المكتوبة تأثير واضح، لابد من اعتبار جملة من الشروط والعوامل منها :

1. نفوذ وخبرة مصادر الكتابة الصحفية، وهو ما يضفي قدرة تأثيرية على الرسالة ونفوذاً لها على القارئ. ويقصد بالخبرة مدى معرفة الكاتب الصحفي بالموضوع الذي يحدث عنه ويرمي من خلاله إلى إقناع المتلقي. كما ينبغي تحقيق المزيد من إتقان فن الصحافة المعاصرة واستيعاب تقنياتها ووسائلها الفعالة في التأثير والإقناع والقدرة على تكوين الرأي العام وتوجيهه.
2. المصداقية والموضوعية، حيث تزداد قوة تأثير الصحافة المكتوبة كلما كانت المقالات والتحقيقات الموجهة لإبراز صورة الإسلام مبنية على أسس ذات مصداقية متينة وموضوعية عالية. وبهذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن الإعلام الغربي في تهجمه على الإسلام وسعيه إلى تشويه صورته، قد فطن إلى أهمية التمويه باعتماد المصداقية، فعمل على الاستعانة بمتحدثين وكتاب صحفيين منتسبين إلى الإسلام لكي يتم إضفاء نوع من المصداقية على حديثها وكتابتها عن الإسلام.
3. اختيار الصحافة المكتوبة الرائدة ذات الإشعاع الإعلامي الواسع وجمهور القراء العريض، إذ لا يخفى أن الوسيلة الإعلامية تتفاوت درجة تأثيرها، فالتلفزيون ليس هو الصحيفة والصحيفة ليست هي الإذاعة، وهكذا. ثم إن الصحف والمجلات تختلف قيمتها ومكانتها وقدرتها على الجذب والانتشار

الواسع، فالصحافة ذات البعد الدولي، ليست هي الصحافة الوطنية المحدودة الانتشار من حيث شهرتها ومدى تأثيرها.

4. إن مضمون الرسالة الإعلامية التي يؤمل من الصحافة المكتوبة أن تحققه ينبغي أن يكون هادفاً ومؤثراً، فالهدف هو إبراز صورة الإسلام وتبديد الصورة المشوهة والمسيئة، وهذا يتطلب إتقان تحرير المضمون وحسن صياغته وتوجيهه، فضلاً عن اختيار وانتقاء الأقلام المشهورة وأصحاب الرأي المشهود لهم بالخبرة والتجربة والريادة في مجال تصحيح صورة الإسلام.

5. العمل من أجل خلق تدفق إعلامي إسلامي مكتوب نحو المجتمعات الأخرى. ولاشك أن إلغاء الحدود الجغرافية والسياسية وامتلاك الإعلام المعاصر القدرة على الوصول إلى جميع أنحاء العالم، هو في صالح مهمة إبراز صورة الإسلام وتصحيحها.

دور الصحافة المكتوبة باللغة العربية في إبراز صورة الإسلام

إذا كان ينبغي إبراز صورة الإسلام وتصحيحها في داخل العالم العربي والإسلامي قبل التفكير في إبراز هذه الصورة للمجتمعات غير الإسلامية، فإن الصحافة المكتوبة باللغة العربية الصادرةفي البلدان العربية والإسلامية، لها دورها البارز في القيام بهذه المهمة والإسهام في توضيح الصورة الحقيقية والأصيلة للإسلام ومبادئه وحقائقه. إن صورة العالم الإسلامي إنما تنعكس من خلال «تصحيح أوضاع الأمة الإسلامية وترشيد أحوالها وتكييفها وفق المبادئ الإسلامية الحقة، التي تقوم على العدل والشورى والمساواة واحترام حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية، وتقوية التضامن الإسلامي وتعزيز التعاون والتنسيق بين البلدان الإسلامية، وإعلاء شأن العلم وتطوير البحث العلمي والحث على العمل وإتقانه إلى أبعد الحدود، إن ذلك كله يمثل الوسائل الكفيلة بتقويم أوضاع العالم الإسلامي، وبتحصين الذات والارتقاء إلى مستوى التعامل مع المتغيرات الدولية...»[1].

إن الصحافة المكتوبة باللغة العربية تحتل في العالم العربي مكانة مرموقة، فلها قيمتها وجاذبيتها، وتتميز بقوة التأثير، كما أنها تتمتع بجمهور عريض. لذا فإن توظيف الصحافة المكتوبة باللغة العربية من أجل إبراز المعالم الحقيقية والصحيحة

---

(1) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري : **الجاليات والمؤسسات الإسلامية ودورها في إبراز صورة الإسلام**، منشورات الإيسيسكو، 2003، ص 36.

لصورة الإسلام، يبدو واجباً مفروضاً وضرورة ملحة، خاصة مع وفرة الأدوات والوسائل من صحف ومجلات ومنشورات صحافية وتنوع الكفاءات والطاقات الإعلامية والثقافية العاملة في حقل الثقافة الإسلامية بمختلف جوانبها.

ومن أبرز المهام التي يمكن للصحافة المكتوبة باللغة العربية أن تضطلع بها، ما يلي :

1. العمل على تصحيح الأوضاع المنحرفة في العالم الإسلامي والتي تسهم في تكوين صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين، إذ لا يخفى أن صورة الإسلام في شمولها إنما تتجلى في الأمة الإسلامية، لأن العالم الخارجي ينظر إلى الإسلام ويحكم عليه من خلال حكمه على واقع العالم الإسلامي. ولاشك أن قيام الصحافة المكتوبة بالتنبيه والاستنكار والتقويم والتصحيح من شأنه أن يسهم في تغيير الأفكار وأنماط السلوك والمعاملات، خصوصاً في ميادين التربية والتعليم والثقافة وحقوق الإنسان وغيرها.
2. التأكيد على إبراز القيم الإسلامية الأصيلة بالصورة التي تجعل القراء يغيرون من مفاهيمهم وتصوراتهم عن حقائق ومبادئ الإسلام، مع العمل على توضيح قيم الإسلام ومبادئه المتعلقة بالعدالة والتسامح الديني وإقرار الأمن والسلام ونبذ العنف والتطرف والإرهاب.
3. دعم الصحافة العربية الدولية التي تتخذ من العواصم الغربية مقراً لها، بما يجعلها تنخرط في عملية إبراز صورة الإسلام وتصحيحها، ولاشك أن هذا النوع من الصحافة يعدُّ أقرب إلى مواطن صنع الصور المشوهة عن الإسلام، وبالتالي فهي ـ أي الصحافة الغربية الدولية ـ أقدر على فهم طبيعة الإعلام الغربي والمسيء للإسلام، كما أنها في موقع مناسب لنشر ما من شأنه أن يصحح الصورة ويبرزها بوضوح.
4. تفنيد الشبهات والافتراءات والطعون التي توجه ضد الإسلام والقيام بدراسات وردود تعيد الاعتبار لحقائق الإسلام الصحيحة. وهذه المهمة هي ذات جدوى وأهمية بالغين خاصة في صفوف الطلبة الجامعيين وعموم المثقفين الذين قد ينطلي عليهم ما يروجه الإعلام الغربي من جهة وبعض الجهات الإعلامية الجانحة في العالم الإسلامي من جهة أخرى، من شبهات ومغالطات مسيئة للإسلام وحضارته.

5. صناعة الصورة البديلة، إذ لا يكفي أن تقتصر جهود التغيير والتصحيح على تفنيد الشبهات والطعون فحسب، بل لابد أن يقترن ذلك بتقديم صورة بديلة للإسلام تحل محل الصور المشوهة عنه.

دور الصحافة المكتوبة باللغات الأجنبية في إبراز صورة الإسلام

لاشك أن التعريف بالإسلام ومبادئه باللغات الأجنبية يعدُّ مظهراً من مظاهر الطابع العالمي للإسلام. كما يُعدُّ مبدأ عالمية الرسالة الإسلامية الأساس الثابت الذي تقوم عليه علاقة المسلم مع أهل الثقافات والأديان الأخرى. ومن هذا المبدأ تنبع رؤية الإسلام في توجيه الدعوة نحو غير المسلمين الذين يفرض واجب الدعوة تعريفهم بالإسلام الصحيح ومبادئه السمحة من جهة، والعمل على تصحيح صورته وتحسينها من جهة أخرى، ويتحمل العلماء والدعاة والمفكرون واجباً كفائياً يحملهم على ضرورة استخدام اللغات الأجنبية كوسيلة لنشر الإسلام والتعريف به ونقل معطياته إلى العالم برمته. ومن المعلوم أن حاجز اللغة كأداة للتواصل والتفاهم، هو أبرز الأسباب التي تحول دون تعرف الشعوب الأخرى على حقائق الإسلام وتعاليمه، لذلك بات من الضروري تجاوز هذه العقبة من أجل إبراز صورة الإسلام الناصعة عن طريق إصدار صحافة مكتوبة باللغات الأجنبية.

ولما كان لوسائل الإعلام أبرز الأدوار في عملية تصحيح صورة الإسلام، فإن الصحافة المكتوبة باللغات الأجنبية والموجهة أساساً للغربيين، لها أثرها الكبير في تعديل الصورة وتغييرها. وإذا كانت الصحافة المكتوبة باللغات الأجنبية والصادرة داخل بلدان العالم الإسلامي لها أهميتها في سياق تصحيح صورة الإسلام في الداخل وترشيد أحوال المسلمين وتعديل أوضاعهم بما يتناسب مع متطلبات العصر ومستجداته، فإن الصحافة المكتوبة باللغات الأجنبية والصادرة في البلدان الغربية، لها أهمية قصوى وأثر بالغ في إبراز صورة الإسلام الحقيقية والصحيحة، فهي تخاطب الغربيين مباشرة وتستحوذ على نسبة عريضة من الجمهور الذي يمكن أن تستهدفه عملية التعريف بالإسلام الصحيح، ومن ثم إبراز الصورة الناصعة والواضحة للإسلام وتبديد كل صور ومظاهر الخوف من الإسلام.

إن مما لا ريب فيه أن من أنجع وسائل إبراز صورة الإسلام في الغرب عن طريق الصحافة المكتوبة باللغات المختلفة العملَ على إيجاد إعلام إسلامي مكتوب ينطلق من داخل الدوائر الغربية ذاتها، ويتوجه إلى جمهور كبير من القراء. وهذا الإعلام يرتكز أساساً على تحقيق هدفين متكاملين :

أ) تبديد ظاهرة الخوف من الإسلام وتفنيد الشبهات والمغالطات والآراء الخاطئة عن الإسلام والمسلمين.

ب) تقديم معطيات الإسلام وحقائقه ضمن صورة بديلة عن الصورة المشوهة والمسيئة، وذلك وفق أحسن صور الإقناع والتأثير التي يؤمل أن تبدد وتمحو صور التشويه والتضليل الإعلامي الغربي.

ويمكن تحقيق ذلك من خلال تطوير ما هو متوفر ومتاح والعمل على إيجاد إصدارات أخرى جديدة.

ومن أجل تحقيق مستوى أفضل للصحافة المكتوبة باللغات الأجنبية، يمكن اقتراح ما يلي :

1. إذا كان الإعلام الغربي الموجه يؤثر على صورة الإسلام في الغرب ويعرقل مهمة القائمين والساهرين على الشأن الثقافي الإسلامي في البلدان الغربية، فإنه مما ينبغي توجيه العناية إليه بخصوص تفعيل دور الصحافة المكتوبة في إبراز صورة الإسلام والعمل على الدفاع عن قضايا العالم الإسلامي والتخفيف من حدة الكراهية والازدراء التي تكنها له بعض الجهات والأوساط الإعلامية والثقافية في الغرب، وهو ما يمكن تحقيقه من خلال ما يلي :

أ) الرفع من مستوى الصحافة المكتوبة الموجهة لخدمة قضايا الإسلام والمسلمين وإبراز الصورة الصحيحة والناصعة التي من شأنها أن تحد من تفاقم الإسلاموفوبيا وتعاظم خطرها، وهو ما يمكن تحقيقه من خلال توفير الوسائل اللازمة لتقديم الإعلام المكتوب بالصورة المناسبة التي تتوافق مع الواقع الغربي.

ب) البحث عن سبل توفير إمكانات النشر والتوزيع الملائمة والكفيلة باستقطاب جمهور أوسع وأكبر.

ج) تنويع وسائل الصحافة المكتوبة : صحف، مجلات، منشورات، كتاب الجيب، وغيرها، والعمل على تعزيز كل ذلك بما يؤهلها لمواكبة التطورات الحاصلة في ميدان الإعلام المكتوب، مع الأخذ بالاعتبار تطور الصحافة المكتوبة الغربية وتقدمها.

2. الإسهام في تفعيل جسور الحوار والتعاون مع الإعلام الغربي المكتوب والتواصل مع المشرفين والمسؤولين عن الصحافة المكتوبة الغربية بمختلف

مكوناتها، وتزويدهم بالحقائق التي تصلح مادةً إعلامية متوازنة ومنصفة عن الإسلام والمجتمعات الإسلامية، وهذا يكفل تحقيق ما يلي :

أ) السهر على متابعة طبيعة الكتابة الصحفية الغربية التي تتعرض للحديث عن الإسلام والمسلمين والعمل على توجيهها بالنقد والتصويب والاحتجاج، وهو ما يجعل المسؤولين عن الإعلام الغربي يتعاملون بحذر وحيطة مع الشأن الإسلامي، ويحرصون على تفادي أسباب الاستفزاز والازدراء وإثارة المشاعر الدينية.

ب) التعاون مع منابر الصحافة المكتوبة الغربية في إنجاز مقالات أو دراسات أو تحقيقات واستطلاعات تهم الإسلام وقضايا العالم الإسلامي. وهي طريقة يلجأ إليها الإعلام الغربي بصفة عامة من خلال اتفاقيات تعاون وتنسيق، وهذا ما يكفل ـ بشكل طبيعي ـ الحدّ من محاولات التشويه المغرضة التي يدأب العالم الغربي على تكريسها. ويندرج في هذا الإطار مساهمة المسلمين بالكتابة في الصحف والمجلات الغربية بمختلف الطرق، مثل الكتابة في صفحات الرأي والمساهمة في إنجاز التحقيقات والاستطلاعات والمشاركة في صفحات القراء، لما لمثل هذه الإسهامات عبر الصحافة الغربية المكتوبة، من أهمية في إبراز الصورة الحقيقية للإسلام وتنوير الرأي العام وتغيير الصورة النمطية المكونة لديه.

3. العمل على تجنيد وتوفير الأطر والكفاءات الإعلامية والثقافية العاملة بالديار الغربية والتي يؤمل أن يكون لها دور فاعل في الإسهام في الصحافة المكتوبة الهادفة إلى إبراز صورة الإسلام والتعريف بقضاياه، ويعدُّ المسلمون ذوو الأصول الغربية أفضل الناس تحاوراً وتواصلاً مع القراء الغربيين في هذا المجال، لأنهم أدرى بطبيعة المحاور الغربي، وأقدر على الإقناع والإبانة عن حقائق الأمور، وهم عندما يكونون على علم ودراية واسعين بحقائق الإسلام ومبادئه، يكون لهم أكبر الأثر في ردّ ما يثار من مغالطات وما يزعم من شبهات ضد الإسلام والمسلمين.

من جهة أخرى، فإن العمل على ربط علاقات تعاون مع الشخصيات والمؤسسات والهيئات والجمعيات الغربية المعتدلة في نظرتها إلى الإسلام، كفيل باستقطاب واستكتاب أقلام غربية منصفة لها دور كبير في التأثير والإقناع والتعاطف مع القضايا ذات الصلة بالإسلام والمسلمين، ويدخل في

هذا الإطار ربط علاقات تعاون مع صحفيين وإعلاميين غربيين تتسم مقالاتهم واستطلاعاتهم بالحيدة والموضوعية، ويشكلون أصواتاً منصفة ومعتدلة ترفض تشويه صورة الإسلام والإساءة إلى المسلمين.

4. العمل على تجفيف منابع ظاهرة التخويف من الإسلام والمسلمين، والسعي إلى فضح الحملات الإعلامية المسيئة للإسلام والمسلمين، وهو ما يعود أصلاً إما إلى عداء وحقد دفينين، أو إلى جهل وسوء فهم بالغين لحقائق الإسلام وتعاليمه. ويمكن تحقيق ذلك من خلال ما يلي :

أ) رصد كل الحملات التشويهية التي تثار ضد الإسلام والمسلمين عبر وسائل الإعلام الغربية، وكذا ما تروجه الكتابات الاستشراقية، ثم القيام بالتنبيه والرد عليها.

ب) نهج أسلوب الحوار والتواصل مع الكُتَّاب الصحفيين الغربيين المختصين في الشأن الإسلامي ممن يشكلون ما يعرف بالاستشراق الصحفي، وهم فئات من الصحفيين مزجوا بين العمل الصحفي الإعلامي والبحث الاستشراقي واختصوا في تغطية الأحداث العربية والإسلامية لفائدة قطاع الصحافة الغربية بكل شبكاتها الإعلامية يزودونها بمقالات وتحقيقات واستطلاعات تتسم بالإثارة التي تستدعي من هؤلاء تشويه الحقائق والغلو في إطلاق الأحكام والاستنتاجات وتحريف الوقائع بشكل يثير الاستغراب.

ولقد أخذ كثير من هؤلاء يعززون مواقعهم الصحفية بإنجاز دراسات ميدانية في بعض الدول الإسلامية، وتغطية الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية ذات الطابع الإسلامي، بصورة نزاعة إلى التهويل والترويع من كل ما له صلة بالإسلام. إن الذي نود التأكيد عليه هو أن مقالات ودراسات هؤلاء تعدُّ الأصل والركيزة لسياسة التخويف من الإسلام، لذلك بات من الضروري التفكير في عقد صلات تعاون وتفاهم بين الصحافة المكتوب باللغات الأجنبية والصحافة الغربية التي تحتضن كتابات هؤلاء المستشرقين الصحفيين، وذلك بهدف احتواء توجهات حملاتهم الإعلامية المسيئة والعمل على إقناعهم بالتزام الموضوعية والنزاهة والحياد أثناء قيامهم بالتحقيقات الصحفية ذات الصلة بالإسلام والمسلمين. ويمكن للإعلام المكتوب أن يفتح صفحاته لهؤلاء بعد توطيد الصلة بهم وفتح

قنوات التواصل والتفاهم معهم، وهو ما يسهم ـ بدون شك ـ في تجفيف منابع تشويه صورة الإسلام والتخويف منه.

ج) نهج أسلوب الإنكار والاحتجاج عبر الصحافة المكتوبة باللغات الأجنبية، والمقصود بذلك متابعة كل ما يفرزه الإعلام الغربي بمختلف مكوناته، من محاولات التشويه والتمييع تجاه الإسلام والمسلمين، ومن المعلوم أن الاحتجاج يثير الرأي العام ويدفع الجهات الإعلامية التي تقف وراء التحامل ضد الإسلام، إلى التحفظ وأخذ الحيطة والحذر[1]. ومن جهة أخرى ينبغي العناية بتطوير وسائل الضغط وتكثيفها، التي يمكن للصحافة المكتوبة أن تلعب دوراً أساساً في قيام المسلمين بتوظيفها خدمة لجهود التصحيح وصناعة الصورة البديلة.

من مهام الكاتب الصحفي

إن مسؤولية الكاتب الصحفي الغيور بصفته مؤتمناً على تبليغ الحقائق وإشاعتها والدفاع عنها، تبدو في سياق تحقيق مهمة إبراز صورة الإسلام وتصحيحها، أكثر إلحاحاً. ويمكن اقتراح بعض من المهام التي ينبغي أن يضطلع بها فيما يلي :

1. المبادرة إلى إفشال حملات الكراهية والتحريض ضد الإسلام من خلال التصدي لها واستنكارها وفضحها عبر المقال والخبر مع نهج سبيل الاحتجاج والإنكار.

2. التركيز على مبادرات الحوار الإيجابية الهادفة إلى إزالة الغشاوة والتضليل المتراكمين في العقلية الغربية (الحوار الديني ـ الحوار الثقافي ـ الحوار الإعلامي). وهنا تبرز أهمية التنسيق والتعاون وفتح قنوات الاتصال مع مختلف الجهات الإعلامية والثقافية والفكرية الغربية، والعمل على إقناع الإعلاميين الغربيين بوقف نشر الأكاذيب والمفتريات عن الإسلام والمسلمين.

3. العمل على رفع مستوى الوعي بظاهرة الإسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام) ورفض قوالب التفكير المسبقة والجامدة، وتحديد أساليب مواجهتها وفضح الجهات والمؤسسات الإعلامية التي تقف وراء تشويه صورة الإسلام.

(1) د. حسن عزوزي : **من أجل تصحيح صورة الإسلام في الغرب**، إصدار (المجلة العربية)، عدد 63، الرياض، 2002، ص 16.

4. العمل على تكوين مجموعات من الكُتَّاب الصحفيين المتخصصين في موضوع إبراز صورة الإسلام وتصحيحها، والمتوفرين على مهارات معينة في مخاطبة الآخر الذي ليست لديه معرفة بالإسلام وحضارته وتحكمه تصورات ومفاهيم خاطئة.

إن الكاتب الصحفي الذي يُؤَمَّل منه أن يقوم بمهمة التعريف بالإسلام باللغات الأجنبية وتصحيح صورته، مطالب بأن يكون قادراً على إبلاغ الرسالة إلى الجمهور بمهارة ويسر، مع القدرة على التأثير فيه باقتدار من خلال اختيار الطرق والمناهج المناسبة لنقل الأفكار والمعطيات المراد تبليغها وإبرازها، دون إغفال متابعة طبيعة الاهتمامات المتغيرة للمخاطبين ومستوياتهم وطرق فهمهم واستيعابهم لمعطيات الإسلام وحضارته، مع القدرة على تكييف مهمة إبراز صورة الإسلام تعريفاً بها وتصحيحاً لها وفق متطلبات الواقع.

5. من الطبيعي أن يكون الكاتب الصحفي المؤهل للقيام بمهمة إبراز صورة الإسلام، متوفراً على مؤهل ومهارات فعالة يستطيع بفضلها مخاطبة الغربيين، ولاشك أن الكتّاب الصحفيين المؤهلين تأهيلاً جيداً هم حجر الزاوية في نجاح جهود الصحافة المكتوبة في إبراز صورة الإسلام. ومن بين المواصفات والمهارات المطلوبة ما يلي :

أ) أن يعرف الكاتب الصحفي كيف يبلغ رسالة التعريف بالإسلام وتصحيح صورته بما يمنحها أكبر قدر من التأثير، وهو ما يتطلب رسم الطريق بخطة وإحكام واستشراف الغايات والمقاصد مع البحث المتواصل عن أمثل الطرق وأجداها لإقناع المخاطبين.

ب) أن يكون مؤهلاً على مستوى المعرفة بواقع صورة الإسلام واستيعاب معطيات الإعلام الغربي ومختلف الجهات المسؤولة عن تشويه صورة الإسلام وما يحفل به هذا الواقع من متغيرات ومستجدات.

ج) الأخذ بعين الاعتبار لنمط تفكير جمهور القراء الغربيين، وهو جمهور تتنوع معاييره الفكرية والثقافية والإدراكية.

د) الوعي التام بطبيعة النسيج العقدي والسياسي والإيديولوجي التي تصطبغ بها المجتمعات الأخرى التي يتوجه إليها خطاب التعريف بالإسلام وتصحيح صورته.

هـ) العمل على إبراز صورة الإسلام الناصعة وحقائقه وقيمه ومثله السامية بحكمة وحسن بيان ومجادلة بالتي هي أحسن، مع التركيز على شرح وإيضاح المبادئ والقضايا الإسلامية التي يجهلها الغربيون بأسلوب الإقناع والتبصير الذي يجعل العالم الخارجي يغير من مفاهيمه وتصوراته عن الإسلام، مع الرد على الأفكار والآراء الخاطئة وكشف الأهداف المغرضة التي تسود دوائر معينة في الإعلام الغربي.

المضامين التي ينبغي التركيز عليها

إن من عوامل نجاح عملية إبراز صورة الإسلام وتصحيحها من خلال الصحافة المكتوبة، الاهتمام بالمضامين التي ينبغي أن تحتويها الصحافة المكتوبة الموجهة للغرب، ويمكن في هذا الصدد اقتراح ما يلي :

* التركيز على الموضوعات المرتبطة بطبيعة محتوى الصورة الذهنية لدى الغربيين، أي أن مضامين الرسالة الصحفية الموجهة للغرب، ينبغي أن تشتق من محتوى الصورة الذهنية لدى المجتمعات الغربية، وذلك من خلال التعرف المستمر على مكونات الصورة الذهنية لديهم.

* التركيز على المضامين المشتقة مما ينشر في مختلف وسائل الإعلام الغربية للرد عليها بشكل مستمر. وهذا الهدف يتحقق من خلال المزج بين عمليتي التصحيح والتعريف، وهو ما يتم عبر المراوحة بين طريقة تفنيد ما يقال عن الإسلام والدفاع عن ثوابته وحقائقه، وطريقة البناء وإبراز الصورة الحقيقية للإسلام.

* الاهتمام بالموضوعات التي تثير اهتمام غير المسلمين ويحدث فيها تشويه متعمد أو غير متعمد، وقد يتردد ذكرها في أوساطهم بشيء من الازدراء والاستخفاف (حقوق الإنسان ـ الجهاد ـ الحجاب ـ أحكام الأسرة...) مع التركيز على القضايا المرتبطة بالحياة اليومية والعادات والتقاليد في المجتمع الإسلامي وقضايا العنف والتطرف والتسامح الإسلامي مع غير المسلمين.

* العمل على تقديم القضايا والموضوعات المرتبطة بالإسلام وحضارته في إطار الرؤية العالمية الواسعة المنسجمة مع تطلعات الإنسان واحتياجاته النفسية والفطرية والمتناسبة مع تطور العصر الحاضر بمستجداته ورهاناته وتحدياته.

الاستفادة من رصيد الجاليات الإسلامية في الغرب لإبراز صورة الإسلام

لاشك أن الجاليات والأقليات الإسلامية في الدول الغربية تتوفر لها فرص كثيرة للعمل على إبراز صورة الإسلام من خلال الصحافة المكتوبة، بيد أن الأمر يتوقف أساساً على مدى نجاحها في إقامة علاقات ثقافية وإعلامية غنية ومثمرة مع مختلف شرائح المجتمعات التي تندمج فيها وتتعايش معها، وكذا من خلال الوعي بالقيم الإسلامية والعمل بمقتضاها والحرص على تمثل الإسلام ديناً وسلوكاً ومعاملة.

ولاشك أن العلاقات الثقافية التي تقيمها الأقليات الإسلامية في مختلف المهاجر، يمكن استثمارها لدعم عملية تصحيح صورة الإسلام التي تتعرض للتشويه وتبليغ الرسالة الإسلامية إلى العالم في صورتها الناصعة. ويقتضي هذا الأمر حسن التصرف والفهم الرشيد لمقتضيات العمل الثقافي في قنواته الدولية، مع الوعي المتفتح بمتطلبات التحرك في هذه الميادين الحيوية.

إن الحضور الفاعل والمؤثر لأبناء الجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب يوفر فرصاً كثيرة لخدمة تصحيح صورة الإسلام والتعريف بحقائقه وتعاليمه ودحض الشبهات وتصحيح الأخطاء والمغالطات.

ويعدُّ استغلال وسائل الإعلام بمختلف مكوناتها، أبرز وسيلة لتحقيق ذلك، وتأتي الصحافة المكتوبة باللغات المحلية لبلدان المهجر ضمن أبرز الوسائل الإعلامية الكفيلة بإبراز صورة الإسلام، ويمكن لهذه الوسيلة أن يكون لها دور قوي في هذا المجال من خلال ما يلي :

1. تفعيل دور المؤسسات والمراكز الثقافية والمنظمات الإسلامية في البلدان الغربية باعتبارها أبرز مكون مؤسساتي للمشهد الثقافي الإسلامي في الغرب، وذلك بالنظر إلى الأدوار الثقافية التي تقوم بها، ويمكن لها إصدار صحف ومجلات ونشرات ثقافية ومطويات تعريفية بالإسلام ومبادئه وقيمه، ولا يخفى أن هناك تجارب رائدة في هذا المضمار حيث إن ثمة صحفاً ومجلات عديدة تصدرها اتحادات المنظمات الإسلامية وبعض المؤسسات والهيئات الثقافية العاملة في البلدان غير الإسلامية.
2. دعوة وتشجيع قادة العمل الثقافي الإسلامي في الغرب (إعلاميون، أساتذة جامعيون، مفكرون وفنانون...) على الإسهام بالكتابة في المنشورات الصحفية بما يخدم مجال التعريف بالإسلام وحقائقه.

3. توسيع فكرة استئجار صفحات أو أعمدة في الصحاف المكتوبة الغربية والعمل على استغلال هذا المنبر الإعلامي من أجل تقديم مادة إعلامية مفيدة تهتم بإبراز صورة الإسلام الحقيقية، كما يمكن بهذا الصدد البحث عن إمكانية القيام بحملات إعلانية مدفوعة الأجر للتعريف بالإسلام وحضارته في الصحافة الغربية.

4. الاستفادة من جهود الكفاءات الإسلامية المهاجرة التي أخذت مكانها في منظومة العمل الثقافي والإعلامي في الغرب بطواعية، من أجل انخراطها في توظيف الصحافة المكتوبة لإبراز صورة الإسلام، وهذه الكفاءات العلمية تحتاج من العالم الإسلامي ومن أبناء الجاليات والأقليات الإسلامية، إلى الرعاية والتشجيع والتعاون لتمكينها من الإقدام على الإسهام بقوة وفاعلية في استغلال الصحافة المكتوبة الصادرة في البلدان غير الإسلامية للتعريف بالإسلام وتغيير الصورة المسيئة إليه.

وتمتاز هذه الشريحة من أبناء الأقليات والجاليات الإسلامية في الغرب بقدرتها على الحوار والتواصل مع مختلف الدوائر السياسية والثقافية والإعلامية في الغرب، وهو ما يسمح لها بالدفاع عن القضايا الإسلامية والعمل على إبراز صورة الإسلام الصحيحة للغربيين، من خلال اقتحام صفحات وأعمدة كبريات الصحف الغربية، التي تسعى إلى استقطاب أقلام الكفاءات العلمية ذات الحضور البارز.

5. دعوة الجهات المسؤولة عن الصحافة المكتوبة في البلدان الإسلامية لربط جسور التعاون مع أبناء الجاليات الإسلامية، من كفاءات علمية وقادة العمل الثقافي وغيرهم، لاستكتابهم واستقطاب أقلامهم، من أجل تقديم وجهات نظرهم في مجال تصحيح صورة الإسلام، خاصة في أوقات الأزمات التي يثيرها الإعلام الغربي، ويكون الإسلام فيها مستهدفاً. وقد أبانت التجربة عن مدى أهمية وقيمة المقالات الصحفية التي يحررها كتاب مسلمون مقيمون في الديار الغربية، إذ هم أقدر على متابعة الأفكار والمصادر المغذية لتشويه صورة الإسلام، كما أنهم الأقدر على اقتراح وإيجاد سبل التصحيح وخطط التعريف بالإسلام في الأوساط الغربية، ويمكن أن يكون لهؤلاء الذين هم سفراء لبلدانهم الإسلامية في الغرب، دور في إقامة جسور الحوار والتواصل والتفاهم بين العالم الإسلامي والإعلام الغربي المكتوب، الذي يسهم بقوة في تشويه صورة الإسلام وتمييعها.

وفي الأخير، لابد من الإشارة إلى أن إسهام أبناء الجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب في التعريف بالإسلام وإبراز صورته الصحيحة عن طريق الصحافة المكتوبة، يتطلب مجهودات كبيرة على جميع المستويات وبمختلف الوسائل، فضلاً عن الدعم المادي والمعنوي المطلوبين. لكن ينبغي أن نضع في الاعتبار أن الجهود المبذولة في هذا المضمار كفيلة بأن تحقق نتائج ملموسة ومثمرة، قد تكون أجدى من تلك المبذولة داخل العالم الإسلامي.

المراجع

- البنا (رجب) : **الغرب والإسلام**، طبعة دار المعارف بالقاهرة، 1997.
- ابن نبي (مالك) : **مستقبل الإسلام**، طبعة بيروت، بدون تاريخ.
- التويجري (د. عبد العزيز بن عثمان) : **الجاليات والمؤسسات الإسلامية ودورها في إبراز صورة الإسلام**، الإيسيسكو، 2003.
- رزوق (د. أسعد) : **موسوعة علم النفس**، طبعة بيروت، 1979.
- سبوزيتو (جون) : **التهديد الإسلامي، خرافة أم حقيقة**، طبعة القاهرة.

سعيد (إدوارد) : **تغطية الإسلام**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.

- عزوزي (د. حسن) : **من أجل تصحيح صورة الإسلام في الغرب**، الرياض، 2002.
- كارلسون (انجمار) : **الإسلام وأوروبا، تعايش أم مجابهة**، ترجمة سمير بوتاني، مكتبة الشروق، القاهرة، ط. 2003/1.
- المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة : **رؤية الإيسيسكو لسبل التعاون مع المتغيرات الدولية** (نص مرقون).

المصطلحات الإعلامية ومرض الخوف من الإسلام

د. عبد العاطي محمد عبد الجليل(*)

من الصعب تناول هذا الموضوع الشائك دون توصيف دقيق له، والتوصيف الذي نعنيه ينطلق من السؤال التالي : هل مرض الخوف من الإسلام أو الخوف المرضي من الإسلام ظاهرة أم قضية ؟.

لقد حالت صعوبة التوصيف هذه دون أن نُقدِم في مجلة "**التواصل**" على تناوله طيلة أشهر، إلا أننا ـ وإثر نقاش معمق، وخوفاً من ضياع المحتوى في خضم النقاش حول التوصيف ـ رأينا التعامل معه باعتباره قضية أكثر من كونه ظاهرة، خاصة حين وجدنا أن الموضوع قديم جداً، تزامنت بداياته منذ لحظات البعثة الأولى، وأقدمنا على نشر ملف حول هذا الموضوع / القضية في العدد الرابع من مجلة "**التواصل**" الصادر في شهر كانون أول / ديسمبر من عام 2004.

لا أريد هنا أن أعرج على ما تم نشره في أكثر من مائة صفحة بتلك المجلة ـ ونظراً لأهميته فقد رأيت أن أرفقه بهذه الورقة ـ إلا أنني أرى أنه من المهم الإشارة إلى تشعب هذا الموضوع وتنوعه وعمقه، إذ يكفي أن نعلم أن مرض الخوف من الإسلام أو الخوف المرضي من الإسلام، يكاد يتجسد في كل مناحي الحياة السياسية والدينية والإعلامية والفكرية والفنية والتاريخية، وغيرها، فهو على سبيل المثال موجود في : الكتب والمجلات والصحف والمسرح وأشرطة الخيالة (السينما) بكل اهتماماتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والترفيهية، حتى أشرطة الأطفال لم تخل من هذا الموضوع، وهو أيضاً مطروح على ساحة البحث في المؤتمرات والندوات، كما أنه متغلغل في الإذاعات المرئية والمسموعة، ناهيك عن شبكة المعلومات الدولية (الأنترنيت)، وتجسد في لوحات فنية مشهورة رسمها فنانون أوروبيون، ورسوم ساخرة

(*) أستاذ الإعلام الإسلامي والأدب الأندلسي، رئيس تحرير مجلة (**التواصل**)، وصحيفة (**الدعوة الإسلامية**) التي تصدر بخمس لغات : العربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية والهوسا، من الجماهيرية الليبية.

غزت أوروبا، فضلاً عن أن عدداً لا بأس به من الساسة ورجال الدين لم يسلموا من هذا المرض.

يبدو للوهلة الأولى أننا سنجد أنفسنا أمام وضع ربما يكون غريباً، لكن بعض الإشارات ستجعله من حيث الطرح منطقياً إلى حد ما. أولى الإشارات الدالة جاءت على لسان السيد كوفي أنان الأمين العام للأمم المتحدة (الذي سيمنح قريباً لقب : السابق) في خطاب ألقاه حين افتتاح حلقة دراسية بعنوان "مواجهة الخوف من الإسلام وتعليم التسامح والتفهم" نظمتها إدارة الإعلام بالأمم المتحدة، حيث أشار إلى الخوف من الإسلام أو (إسلاموفوبيا) بقوله : «عندما يضطر العالم إلى نحت مصطلح جديد لوصف تعصب واسع النطاق على نحو متزايد، يعتبر التطور مؤسفاً ومثيراً للإزعاج، وينطبق ذلك على مصطلح الخوف من الإسلام إسلاموفوبيا»، وأكد السيد أنان بصفة خاصة على الحاجة إلى نبذ القولبة التي تجذرت في عقول الكثيرين، وفي وسائل الإعلام العديدة.

أيعني هذا أن الموضوع الذي تعالجه اليوم ثلة من العلماء والإعلاميين والصحفيين والباحثين هو (ظاهرة) وليس (قضية) ذات أهمية إعلامية دولية ؟. ومع ذلك فإن الواضح حتى الآن هو أننا أمام (ظاهرة)، ومن الذين يرون ذلك : البروفيسور أكمل الدين إحسان أوغلي الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي في كلمة له في اجتماع اللجنة المالية الدائمة في دورتها الثالثة والثلاثين المنعقد في الشهر الخامس من سنة 2005، والوثيقة المقدمة إلى مؤتمر وزراء خارجية الدول الأعضاء في المنظمة المذكورة المنعقد في مدينة باكو.

سؤال مهم لابد من طرحه : هل نحن أمام (ظاهرة إعلامية) أم (ظاهرة مرضية) ؟.

إن تحديد نوعية ما نحن بصدده، من شأنه أن يضع أقدامنا على الطريق الصحيح المؤدي إلى الهدف المنشود.

سؤال آخر : حينما نتناول هذا الموضوع باعتباره (ظاهرة) تحكمها قواعد الظواهر المتعارف عليها، هل نحن على ثقة من أننا سنحسن التعامل مع أولئك الساعين إلى أن يصبح هذا الموضوع (قضية أساساً) في عملهم على مختلف الأصعدة ؟.

إن وقوع خطابنا الإعلامي أسير أسلوب ونمط مدرسة إعلامية لم نساهم فيها بشكل واضح ومؤثر، من شأنه أن يحول دون معالجة فعالة وإيجابية لظاهرة أو قضية (مرض الخوف من الإسلام).

اسمحوا لي أن أسوق بعض الأمثلة على شكل أسئلة أو تساؤلات :

هل ساهمنا في صنع ونشر ما يخصنا من مصطلحات، أم أننا استقبلنا واستعملنا في وسائل إعلامنا ما تم تسويقه لنا من مصطلحات ؟. لن أكون مبالغاً إذا قررت أمامكم أن عدداً لا بأس به من المصطلحات المتعلقة بالإسلام والمسلمين هي من صنع غيرنا، خاصة من قبل وسائل الإعلام في الدول القوية، وعلى سبيل المثال أسوق بعض المصطلحات التي انتشرت في وسائل إعلام الدول القوية، ثم ـ وبسرعة منقطعة النظير ـ احتلت مكانة بارزة في وسائل إعلام الدول الإسلامية، ومن تلك المصطلحات : (الإسلام الراديكالي، الإسلام اليساري، الإسلام المتطرف، الإسلام المقاتل، الإسلام المجاهد)، إضافة إلى : (الإسلاميين، الإسلامويين، الأصوليين الإسلاميين، الجماعات الإسلامية، المتطرفين الإسلاميين).

وفي محاولة لخلط المفاهيم، انتشر في الآونة الأخيرة ما بات يعرف (الإسلام والغرب)، وإضافة إلى انتشار مثل هذه المصطلحات وغيرها كثير، فإن عدداً لا بأس به من الكتابات في العالمين العربي والإسلامي، تأسست على تلك المصطلحات، كتب ألفت، مقالات نشرت، ندوات ومؤتمرات عقدت انطلاقاً من تلك المصطلحات التي كان من الأَوْلى بنا في وسائل إعلامنا، أن نضعها تحت مجهر التدقيق لنرى المقصود منها، وسبب انطلاقها ونتائج استخدامها.

واسمحوا لي هنا أن أتوقف لحظة لأوضح مفارقة بدت لي غريبة، وأظن أن لها صلة بـ (مرض الخوف من الإسلام)، فأقول : إذا ما عدنا إلى استعراض تلك المصطلحات التي أوردت بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر، فإننا سنلمس أن فترات ظهورها كانت فيما يبدو لي تمهيداً لما هو أكبر من كونها مصطلحات إعلامية، وأظن ـ وليس هذا من باب الظن المذموم ـ أن تراتبيتها الزمنية كانت توطئة لتنامي (مرض الخوف من الإسلام)، كانت المصطلحات التي ذكرت بعضها، من مثل : (الإسلام الراديكالي واليساري والمقاتل) إلى آخر تلك المصطلحات، سبقت ما بات يعرف فيما بعد بـ (الإسلاميين، الإسلامويين، الجماعات الإسلامية). وهاتان المجموعتان من المصطلحات سبقتا (الإرهاب الإسلامي، التطرف الإسلامي) وغيرها من المصطلحات ذات الصلة بهذه المعاني، والنتيجة حسب رأيي أن وسائل الإعلام في الدول القوية كانت تهيئ الذهنية العامة لتصاب بمرض (الخوف من الإسلام).

ومثلما هيئت الذهنية لدى المتلقي للتعامل بشكل غير واع مع عدد من المصطلحات ذات النشأة والمدلول غير الواضحين، تم أيضاً استخدام مصطلحات أخرى

بهدف استعداء المسلمين ضد ثقافتهم، ربما لتتم تهيئتهم هم أيضاً لينضموا إلى الفئات المصابة بـ (مرض الخوف من الإسلام). ولعل مصطلح (الأصولية الإسلامية) من بين المصطلحات / الأسلحة التي تم استخدامها في معركة غير متكافئة، تلقفت وسائل إعلامنا هذا المصطلح دون أن تضع في اعتبارها أنه في منشئه ودلالاته لا علاقة له بأي حال بدلالته عند المسلمين، وعدم فهم مدلوله الجديد من شأنه أن يلغي علوماً مثل (أصول الفقه و(أصول الجدل)، و(أصول الحديث)... ناهيك عن : الأصالة والأصل و(ابن الأصول).

يخيل إلي أن الناس كانت تحقن بهذا الفيروس بهدف ضمان تقبلها لمصطلحات أخرى مثل (الإسلام والغرب)، هذا المصطلح الذي وضع (الإسلام) في مواجهة (الغرب) بمدلوليه : الجغرافي والثقافي، وكأني بالمحصلة النهائية تود أن تقول إن الإسلام هو النقيض الواضح للغرب جغرافياً وثقافياً. نتجاهل وينكر غيرنا من المتحكمين في وسائل الإعلام في الدول القوية، أن الإسلام مكون أساس في الحياة في الشرق والغرب، وأن الثقافة والمدنية الغربية مكون أساس في الحياة في الشرق والغرب.

في المقابل لا أجد أننا استطعنا تغذية وسائل الإعلام المسيطرة والقوية بأي مصطلح من شأنه أن يدل ولو على استحياء، على مساهمتنا في إثراء المعجم الإعلامي الدولي، وباستثناء مصطلح (الانتفاضة) الذي فرضه أطفال وشباب ونساء وشيوخ فلسطين، فلن تجد مصطلحاً آخر فرض نفسه، حتى مصطلح (الجهاد) الذي لم يكن في يوم من الأيام يعني (القتال) دون غيره، تم تدجينه من قبل الأقوياء إعلامياً، والأكثر انتشاراً، ليدل عل غير ما يدل عليه في ثقافتنا وموروثنا الحضاري.

وفيما يحقق الإسلام تقدماً واضحاً، تصر دوائر صناعة المصطلحات ومؤسسات تدجين الفكر والعقائد، على وصف المسلمين في غير البلدان الإسلامية بـ (الجاليات) الإسلامية مثلما يحدث مع المسلمين في أوروبا. ونحن لم نقصر في شرح هذا المصطلح الذي يعني وبكل وضوح أن الوجود الإسلامي في البلدان غير الإسلامية هو وجود مؤقت، إذ أن الفكرة من أساسها تكمن في الحيلولة دون توطُّن الإسلام في هذه القارة أو تلك، ومع كل ذلك سيظل هناك رغم أنف الجميع سؤال : بماذا نصف الذين يعتنقون الإسلام كل يوم ؟. علماً أن بعض الإحصائيات تقول إن ما يقرب من سبعين شخصاً يشهرون إسلامهم كل يوم في بعض الدول الأوروبية، هل نطلق على المسلمين الفرنسيين : الجالية الإسلامية الفرنسية في باريس مثلاً ؟، وعلى المسلمين الإنجليز في إنجلترا : الجالية الإسلامية في لندن ؟.

ولترسيخ مرض الخوف من الإسلام، انقسم الإعلام حول التعبير الأمثل من حيث الاستخدام، هل هو الإسلام الأوروبي أو أوروبا المسلمة أم الإسلام في أوروبا ؟. على الرغم من أن الأمر في مجمله يعيد فكرة التمييز المبني على العقيدة، الأمر الذي حاولت الشعوب تخطيه ونسيانه. ولكن، ولأن القضية من أساسها لا تهدف إلى إشاعة روح التسامح والعيش المشترك في عالم لم يعد مجرد قرية صغيرة بل غدا غرفة جلوس صغيرة، فإن الفرز القاري وليس الفرز الدولي الضيق، سيصبح مبنياً على العقيدة والدين. وهذا أمر في حقيقته مجرد محاولة لمحاصرة دين لا يقبل الحصار، ولا تحول دون انتشاره الحواجز أو الجدران.

في المقابل ما الذي قدمه الإعلام في الدول الإسلامية من مصطلحات ومساهمات من شأنها أن تحول دون انتشار فيروس (مرض الخوف من الإسلام) ؟، ما الذي يمكن أن يذكر في هذا الإطار غير مصطلحات تم تداولها تطبيقاً لقانون الفعل ورد الفعل. بدأ الإعلام في الدول الإسلامية يستخدم مصطلحات : التسامح، الوسطية، الحوار، وكأن المعضلة تكمن فقط في مجرد إثبات أن قاموسنا الإعلامي المستند إلى العقيدة الإسلامية يعرف هذه المصطلحات، في محاولة خجول لإثبات حسن النوايا، وعدم الوقوع في أي نوع من أنواع الصراع أو الصدام. وزيادة في إثبات حسن النوايا، ظهرت قنوات لا حصر لها تثبت فعلاً وقولاً، أن المسلمين ليسوا كما يوصفون، ليسوا منغلقين أو متخلفين أو غير حضاريين، فها هي قنوات تقدم آناء الليل وأطراف النهار ما يثبت مدى الانفتاح والتحرر والتفاعل الحضاري، وغير ذلك من الأنماط التي لا تعرف حدوداً أو خصوصيات اجتماعية وثقافية.

وإذا كان الإعلام في الدول القوية مارس الهجوم، فإن الإعلام في الدول الإسلامية مارس ـ ربما دون أن يدري مُسَيِّروه ـ التبريرَ، والدفاع عن الإسلام وكأنه في موقف ضعيف، بينما نجد أن الإسلام في موقف قوي ربما لا يشعر به المسلمون، وذلك يتجسد في انتشاره في كل مكان، ولا أظن أن مكاناً ما يخلو من ذكر الله، ولعل متابعة دقيقة ستثبت أن الأذان لا ينقطع على مدار الساعة، وهنا أنبه إلى ظاهرة تبدو غريبة للوهلة الأولى، ذلك أن المألوف هو أن العقائد ترتبط بقوة معتنقيها، إلا الإسلام، فعلى الرغم من الضعف الواضح، وعلى الرغم من تصنيف المسلمين في خانة التخلف والفقر، فإن الإسلام كسر هذه القاعدة، وها هو ينتشر بشكل غير مسبوق إلا في العصور الذهبية لمعتنقيه، أما عصر الإسلام الذهبي فلا نهاية له.

الإعلام في الدول القوية وبهدف ترسيخ (مرض الخوف من الإسلام) عمد إلى ربط الإرهاب بالإسلام ـ رغم الخلاف الكبير والعميق حول معنى مصطلح : الإرهاب ـ وفي

المقابل نسي العاملون في وسائل الإعلام ـ خاصة في الدول الإسلامية ـ أنه مثلما يوجد إرهاب ينسب إلى العقيدة، فإن هناك إرهاباً ينتسب إلى جماعات لا دينية، وهذا يعني أنه ومثلما يقال (التطرف الديني) فإنه من الممكن القول بـ (التطرف اللاديني).

ربما نتفاءل حين نسمع كلمات مطمئنة مثل ما أعلنه معالي المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في الملتقى الدولي حول تحالف الحضارات الذي عقد في مدينة شفشاون المغربية الشهر الماضي(*) حين أشار إلى أن وتيرة اهتمام المجتمع الدولي بالحوار بين الحضارات والثقافات قد ازدادت بعد صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بإعلان سنة 2000 السنة الدولية لثقافة السلام، وسنة 2001 السنة الدولية للحوار بين الحضارات، وأن المنظمات الدولية تعاونت في إقامة العديد من الندوات والمؤتمرات، وأصدرت كتباً حول الحوار بين الحضارات، ووضعت برامج لسفراء الحوار بين الحضارات. وهنا نتساءل : هل حالت تلك الخطوات دون تنامي (مرض الخوف من الإسلام) ؟. أعتقد أن الهجمة اشتدت، وتنامت الإساءة بشكل أكثر مما كانت عليه من قبل.

في هذا السياق لابد من طرح سؤال مهم وكبير : ما مصير استصدار قانون دولي يحرّم ويجرّم الإساءة إلى الأديان الذي بذلت مساع حثيثة من أجل استصداره ؟.

واسمحوا لي أن أضع أمامكم بعض الملاحظات التي أبداها وزير العدل الإيطالي الذي التقيته الأربعاء الماضي وناقشته في هذا الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه في هذا الملتقى، لقد أكد على أن عدم الفهم وضعف وسائل الاتصال، عوامل مؤثرة في انتشار ظاهرة (مرض الخوف من الإسلام)، وعدم احترام معتنقيه.

وهذا يعني ضرورة تقديم الدين بصورة صحيحة عبر وسائل الإعلام، ليس للمتلقي المسلم فقط، بل للباحثين عن المعرفة بشكل عام، دون ربط ذلك بخصوصية اجتماعية أو سياسية أو ثقافية محددة، كما يعني ضرورة التعامل مع وسائل الإعلام بطريقة لا تدعم بأي شكل مفهومَ أن الإسلام دين خاص بشعب أو أمة أو منطقة جغرافية.

إن تقديم الإسلام على أنه ينتمي إلى جماعة معينة، أو مذهب معيّن، أو طائفة معيّنة، هو الخطأ بعينه، وهو الخطر الذي لا ينبغي أن نغض الطرف عنه، كما أن حصر الإسلام في منطقة جغرافية محددة، من شأنه أن يجعل منه عنصراً غريباً في أماكن أخرى. ألسنا نقول : إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ؟ فَلِمَ يا ترى نسمح لجماعات

(*) 30 أكتوبر 2006م.

أو طوائف أو مذاهب بأن تقدم الإسلام وكأنه ملكية خاصة ؟ ولم لا تتصدَّى وسائل الإعلام في الدول الإسلامية لهذا المنهج الإقصائي ؟.

نحن في أمس الحاجة إلى خطاب إعلامي منتج ومؤثر يسعى إلى المتلقي بكل الوسائل، وبمختلف طرق التواصل، لا يهمّش ولا يقصي ولا يسعى للصدام، لا يمارس الاستعلاء، وفي الوقت ذاته لا يشيع الشعور بالنقص، ولا يكون متقوقعاً، ولا يمارس الانتقائية في التوجه.

الخطاب الإعلامي الذي نحتاجه ليس مجرد قناة فضائية دينية، وليس مجرد صحيفة أو مجلة دينية، بل الخطاب الإعلامي الذي يقدم الفكرة بوضوح وبساطة، لا يعيش في الماضي ولا يقفز على الحاضر ولا يصادر المستقبل.

الخطاب الإعلامي المؤثر الذي ينبغي أن نسعى إليه، هو الذي يكون على صلة مع الناس، يراعي لغاتهم وثقافاتهم وخصوصياتهم مع عدم التنازل عن الثوابت.

لسنا في حاجة إلى إعلام يغرق ويغرقنا ويغرق المتلقي في فروع الفروع، يثير الفرقة والخلاف.

ثم :

هل أقدم العلماءُ والباحثون والدارسون المسلمون على تحليل نفسية أولئك الذين ينتشر بينهم (مرض الخوف من الإسلام) ؟. وهل زودت وسائل الإعلام في الدول الإسلامية بنتائج تلك الدراسات والبحوث حتى تستطيع أن تتعامل مع هذه الظاهرة ؟. هل تدرك وسائل الإعلام أن (مرض الخوف من الإسلام) ربما وقع تحت مفهوم (التعميم) في علم النفس، بمعنى أن من يخاف (مسلماً) يخاف بالضرورة من كل المسلمين ؟.

هل درسنا أسباب هذا المرض ؟. هل وقعت وسائل الإعلام في مأزق ربط السياسي بالديني ؟. هل أن الشعور الكامن في العقلية المعادية للإسلام هو الشعور ذاته الذي تختزنه شعوب عديدة نتيجة ما مر بها من صراع مرير بين (الدين) و(السلطة).

ألم يرد بالقرآن الكريم خطاب النبيﷺ : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ فلم ننفّر الناس بخطاب إعلامي يشيع البؤس واليأس بين الناس ؟. ألم يقل النبيﷺ : «بشروا ولا تنفروا»، فأين يا ترى الإعلام المبشر ؟.

أين هي ملامح الجمال والذوق الرفيع في الإعلام الإسلامي ؟. أين هي مبادئ الحياة الحرة الكريمة ؟. أين هي الحياة المتوازنة «لا تفريط ولا إفراط» و«لا ضرر ولا ضرار» في المعالجة الإعلامية التي تقدم الإسلام سواء للمسلمين أو غيرهم ؟.

إن من أسباب استشراء (مرض الخوف من الإسلام) هي تلك النماذج المنفرة، التي تقدم الإسلام على أنه دين التواكل والخوف والكآبة والمظهر المنفر والخطاب الجامد، ولذا ليس مبالغة إذا تجرأت وقلت إن من بين المسلمين من هو مصاب بمرض لم نوفق بعد في معالجته أو حتى ملامسته، ويمكن أن نسميه (مرض الخوف من التوازن والاتزان في الإسلام) والركون إلى نوع من الدين لا يعرفه أحد من المسلمين الأسوياء، حتى إننا بدأنا نقترب شيئاً فشيئاً من دين لا علاقة له بأي شكل من الأشكال بدين الله الحق الذي هو رحمة للعالمين في كل ما يدعو إليه.

في المقابل، هل من الممكن التعامل مع الوضعية التي تعيشها وسائل الإعلام في الدول القوية باعتبارها حرية فكر وتعبير ؟. ما المعايير التي بناءً عليها تم تحديد مبادئ تلك الحرية ؟. وما المنطلقات الأخلاقية والمهنية التي تم الركون إليها في تحديد معايير هذه الحرية المدعاة ؟.

الإعلام في الدول القوية يعلن مبدأ حرية التعبير فيما يتعلق بالغير من منطلق ومنظور لا يضع في اعتباره تحديد معنى الحرية، وعدم الأخذ في الاعتبار الفارق بين الحرية الشخصية والإباحية على سبيل المثال، أو الحرية والإساءة للآخرين، أو الحرية وعدم وضع ضوابط من شأنها أن تحول أن تكون حرية سالبة لحرية الآخرين.

الإعلام في الدول القوية يعلن مبدأ الحرية في كل مناحي الحياة المتغيرة، لكنه يطلب من الإعلام في الدول غير القوية أن يطبق هذا المبدأ عى الثوابت، ومن الثوابت عند المسلمين : قداسة الدين، قداسة الرموز الدينية، لكن الإعلام في الدول القوية خاصة أوروبا وأمريكا، لا يرى في (الدين والرموز الدينية) أية قداسة لأنها من المتغيرات.

إعلام الدول القوية ساهم في نشر وانتشار (مرض الخوف من الإسلام) بشكل احتفالي حين يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين، وهي احتفاليات كان الهدف منها تلمس مواطن القوة والضعف لدى المسلمين، وليس في الإسلام، وهي محاولات ربما يكون الهدف منها تهيئة لما هو أكبر من مجرد الإساءة إلى الإسلام، ولكن رد الفعل كان دون مستوى الفعل، إضافة إلى أن رد الفعل ليس أسلوباً منتجاً في أحايين كثيرة. وهنا لابد من وضع مؤسسات عديدة في العالم الإسلامي أمام مسؤولياتها من حيث إنها ساهمت في إعطاء مصداقية إعلامية دأبت على النيل من الإسلام، وأصبحت بذلك ذات تأثير مباشر، سواء على المستوى الإسلامي أو على المستوى الدولي، بينما تم تجاهل وسائل الإعلام في الدول الإسلامية مما جعلها في ذيل القائمة، وسلب منها أي تأثير في المتلقي، وهذا أمر ساهم إلى حد كبير في غياب التأثير المطلوب من وسائل الإعلام في الدول الإسلامية.

إن المهمة التي نضع أنفسنا من أجلها، ليست سهلة، وأُولى خطوات العمل التي ينبغي أن نخطوها نحو معالجة (مرض الخوف من الإسلام)، أن نحرر أنفسنا من الخوف من كوننا لسنا في مستوى العمل المؤثر والفعال، وأن نحرر وسائل إعلامنا من عقدة الشعور بالنقص، وأن نتعامل بكل ندية مع وسائل الإعلام الساعية إلى تجميد حركتنا الإعلامية على المستويين الرسمي والمؤسسي. وهذا يعني أنه لابد من الانطلاق نحو إعلام يتجاوز بمراحل الأسلوبَ السائد والمألوف، مع التركيز على ضرورة أن يتم هذا الانطلاق من اتفاق على طريقة العلاج، وأسلوب التناول، وقياس مدى التأثير، قبل أن نعلن أننا استطعنا أن ننجز شيئاً ما، ثم نكتشف أننا لم ننجز شيئاً يذكر.

وأقترح أن تبذل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة جهدها من أجل توسيع دائرة التعامل مع وسائل الإعلام حسب مدى التزامها باحترام الإسلام، واحترام المسلمين الذين يستحقون الاحترام.

وعليها أن تنبه وسائل الإعلام بكل أشكالها وعلى مختلف مستوياتها، حين ترى أن الأمر يستحق ذلك، وأن يتم التنسيق بينها وبين المراصد التي تحاول أن تتابع كل أشكال الإساءة للإسلام وغيره من العقائد، وأن تكون على تواصل مستمر مع وسائل الإعلام التي تسعى إلى نشر (مرض الخوف من الإسلام) بهدف إيضاح الحقيقة أمامها، وأن تشجع وسائل الإعلام التي تسعى للاتزان والتوازن في عرض الإسلام، والحديث عن المسلمين.

أسئلة كثيرة يمكن طرحها، إلا أن الأجوبة هي وحدها التي ربما نسعى إليها، ولا أعتقد أننا استطعنا أن نطرح ما ينبغي طرحه من أسئلة حتى نستطيع أن نطرح ما هو مطلوب منا من أجوبة.

ختاماً :

أشكر لكم حسن انتباهكم، وأشكر لحلب حسن ضيافتها، وأشكر للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة تنظيمها هذه الندوة التي أتمنى أن لا تكون واحدة وحيدة، وأرحب بإنتاجكم في مجلتكم (**التواصل**) وصحيفتكم (**الدعوة الإسلامية**)، لتخاطبوا من خلالهما قراء بخمس لغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية والهوسا، ولتخاطبوا قراء في أكثر من ستين بلداً، قراء من مختلف الثقافات والأعراق والعقائد، كما أرحب بكم في طرابلس ليبيا عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2007، ليس باعتباري مسؤولاً، بل باعتباري مواطناً من مواطنيها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الإسلام ـ تقديم الذات للآخر :
الفضائيات نموذجاً

عدنان الصباح(*)

كان ذلك في مطلع شهر مايو / أيار 2002. وكنت مشاركاً في مؤتمر منظمة حرية الصحافة العربية في لندن، ومع أن انعقاد مؤتمر حرية الصحافة العربية في بلاد الإنجليز نفسه مأساة، إلا أن ما يهمني هنا هو لقائي في إحدى الأمسيات مع مجموعة من الإنجليز دخلوا إلى بهو الفندق وجلسنا معهم بالمصادفة. وحين سألونا من أين، قلنا من فلسطين، فلم يفهموا أبداً، ولم نتمكن من إيصال اسم موطننا لهم، إلا حين قلنا من القدس فصرخوا جميعاً "أووووه إسرائيل". هذه هي القدس عندهم ونحن مجرد قتلة إرهابيين نحتل أرض اليهود ونقاتلهم. تلك هي صورتنا عند العامة، أما الخاصة فقد كانت بلقائي مع الناطق بلسان وزارة الخارجية البريطانية آنذاك، قلت له أنتم المسؤولون عن كل كوارث الشرق الأوسط، وعليكم أن تكفروا عن جرائمكم، فأجابني : «إن ما يهم صانع القرار في بلادنا هو رأي الناخب البريطاني، توجهوا إليه أنتم أقنعوه بعدالة قضاياكم ليلزمنا بتأييدكم، وبدل أن تؤسسوا الصحف والإذاعات والفضائيات للشتائم والهجوم على بعضكم بعضاً، التفتوا لإعلامنا وجماهيرنا وعندها تكسبون وتؤثرون في جمهورنا».

هناك خياران لا ثالث لهما أمام العالم الإسلامي فيما يختص بموقف الآخر منه أو العكس، فالمسألة لها وجهان ؛ كيف ننظر نحن للآخر حقاً، وهل لدينا موقف موحد بهذا الشأن أو موقف للأغلبية يعتمد على رؤية واضحة ومحددة ومبررة، وهل نملك القدرة على إيصال هذا الموقف إليه بشكل لا يحتمل التأويل، أم أننا نترك أمر نقل موقفنا للغوغاء من جانب، وللآخر نفسه باستخدام أدواته المشبوهة في المنطقة لرسم موقفنا هذا، ذلك أن

(*) كاتب صحافي من فلسطين.

الآخر أياً كان يجد نفسه مضطراً إلى تحديد موقفه منك بناء على موقفك أنت منه. والمسألة هنا تبادلية. والوجه الثاني ؛ كيف ينظر الآخر لنا. والوجهان قطعاً هما مكونان لعملة واحدة، ويعتمدان على بعضهما بعضاً، فالمطلوب أولاً تحديد موقفنا من الآخر بشكل واضح ودقيق. ولا يقبل التأويل ولا يعطي للمغرضين فرصة صياغة هذا الموقف كما يحلو لهم، أو جرّنا رغماً عنا لاتخاذه بدافع العاطفة وعدم القدرة على مناقشة الصوت العالي أو الصوت الذي ينطلق من فوهة بندقية أو يستخدم العبوات الناسفة لإيصال رأي صاحبه، وقبل أن يسعى الغرب لتفسير من هو الإرهابي أو ما هو الإرهاب، يفترض بنا نحن أن نفعل ذلك دون مواربة وبشكل محكم، وأن يأتي هذا التحديد من مكونات الأمة، وفي المقدمة قادة الفكر وغير الرسميين منهم تحديداً حتى لا يجد دعاة التفكير والاستعداء مبرراً لاستخدام الرأي الرسمي كموقف للحكومات لا رؤية للفكر الديني القويم.

يعاني العالم الإسلامي من الصورة التي يرسمها له الإعلام الغربي هذه الأيام والتي ترسخت ونمت أكثر منذ الحادي عشر من سبتمبر الشهير، ومع ذلك فإن في أوساطنا من يشعر بالسعادة لمثل هذه الصورة ونمط الإرهابي الذي يصوره الغرب للإسلام والمسلمين. ومن يحاول متابعة التطورات التي جرت بعد الحادي عشر من سبتمبر، يرى أن الغرب وفي المقدمة الولايات المتحدة الأمريكية، كان بحاجة لتقديم إثباتات على ما يقدمه من رؤية عن الإسلام والمسلمين.

كيف نرى أنفسنا، ما هي الاقتناعات التي نحملها نحن، وما هي معرفتنا بالآخر، وأية صورة نحملها له، وما حجم المعرفة لنمط تفكيره، وما هي الأدوات التي نقدمها إليه طواعية للمساهمة في رسم صورتنا، وهل نحن من نقدم هذه الصورة أم نترك للدوائر والجهات المعادية حق رسم صورتنا ونكتفي إما بالتفرج أو السخط على الأمر في صدورنا أو بين ثنايانا، ومن يذكر حادثة الكاريكاتير في الدنمارك وما رافق ذلك من مظاهرات وأنماط احتجاج عنيفة عمت بلادنا دون أن تؤثر في الآخر بشيء، بل إن بعض تلك الأنشطة أصابت بالدمار مؤسساتنا وثروات بلادنا.

من نحن ؟

ـ هل نحن مجرد أتباع ديانة عادية كباقي الديانات وبالتالي فإن دورنا مناكفة الديانات الأخرى ومهاجمتها وتكريس نمط دائم للعداء بيننا وبينهم ؟.

ـ هل دور مفكرينا إيجاد التخريجات اللازمة لتكريس العداء واستفحاله وتصوير الإسلام بأن له مهمة واحدة هي محاربة من يحلو للبعض تسميتهم بالصليبيين، رغم

إدراكنا للقيمة الدينية والقداسة التي يتمتع بها الصليب لدى المسيحيين واحترام الدين الإسلامي للمسيحية، بل وإيمانه بها ؟.

ـ لماذا نوحد في خطابنا الناقد للغرب بين الإدارات الحاكمة التي تقاتلنا وتحتل بلادنا وبين رجل الشارع المسيحي العادي حين نهاجم المسيحية. وينسحب الأمر على الديانة اليهودية أيضاً، هل نحن ملزمون دينياً بالمساواة بين الرئيس الأمريكي وسائر مواطنيه على الإطلاق، وإذا كان الأمر كذلك، فما موقفنا إذن من المسيحيين الذين يشاركوننا الانتماء الوطني والقومي ؟.

ـ لماذا نصر على امتلاك خطابين متناقضين، في الداخل نتحدث عن التسامح الديني ونضرب المثل بالمسيحيين الذين يعيشون بيننا ونفعل ذلك أحياناً حيث يوجد عدد من اليهود مهما كان قليلاً، وفي الحديث في الخارج، حين نكون بين ظهرانيهم كأولئك الذين يقيمون في البلدان الأوروبية والذين يقدمون تنازلات خطيرة لصالح اندماجهم في تلك المجتمعات، وتقف قلة منهم موقف التطرف فتهاجم المسيحية والمسيحيين وتطالب بقتهم رغم تمتعهم بجنسية بلدانهم، ومما لاشك فيه أن هذا يساهم أكثر من غيره في تأليب الرأي العام الغربي ضد الإسلام والمسلمين.

نحن في عيونهم

أحاول هنا إيراد نماذج للصورة التي يحاول الغرب رسمها للإسلام بشكل عام، ومنها :

ـ يقول "صموئيل هنتغتون" : «أربعة عشر قرناً من التاريخ تخبرنا أن العلاقات بين الإسلام والمسيحية، سواء الأرثوذكسية الشرقية أو الغربية، كانت عاصفة غالباً. كلاهما كان الآخر بالنسبة للآخر. صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية والماركسية اللينينية، ليس سوى ظاهرة سطحية زائلة إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية، الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك، وقد فعل ذلك مرتين على الأقل».

ـ يقول "برنارد لويس" : «لمدة ما يقرب من الألف سنة، منذ أول رسو مورسكي في إسبانيا، وحتى الحصار التركي الثاني "لفيينا"، كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من الإسلام».

ـ يقول دانيال بيبيس، اليهودي الصهيوني وأحد زعماء جماعة المحافظين الجدد والذي قام بتأسيس مركز للدراسات، "معهد مكافحة الإسلام" "Anti-Islamist Institute" :

«على المدى الطويل تؤدي الأنشطة الإسلامية من الناحية القانونية إلى فرض مخاطر وتحديات كبيرة تفوق تلك التي تفرضها الأنشطة الإسلامية غير القانونية». وبسعي هذا المعهد إلى محاولة استبدال أسس الإسلام وعقيدته وكذا السعي في سبيل إيجاد آليات لإباحة المحرمات عند المسلمين كالخمر ولحم الخنزير وما شابه.

ـ يقول الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن : «يجب أن نقدم بديلاً يحمل الأمل لإيديولوجية الحقد الإرهابية». واعتبر أن الإدارة الأمريكية تحت قيادته تعمل في سبيل إقامة الديمقراطية في الشرق الأوسط الذي يحاول فيه «الإرهابيون إنشاء إمبراطورية إسلامية توتاليتارية يسمونها الخلافة يحكم فيها الجميع وفقاً لعقيدة الكراهية».

ـ وجاء في دراسة أعدها متخصصون إيطاليون بعنوان "**صورة المهاجرين العرب والمسلمين في إيطاليا بين وسائل الإعلام والمجتمع المدني**" أن صورة العرب والمسلمين عند الإيطاليين كما تم تشكيلها من قبل وسائل الإعلام جاءت على النحو التالي :

ـ 62,9 % اعتبروا العرب والمسلمين سبباً للمشاكل.

ـ 36,2 % ممن لهم صلات خاصة بالعرب والمسلمين اعتبروهم مساهمين في تنمية موارد البلاد. وعن الصورة التي يقدمها الإعلام عن الإسلام، قالت الدراسة إنه على مدى السنوات (2000-2003) فإن نسبة 95 % من المواد الإجمالية المقدمة كانت عن الأصولية الإسلامية وأعمال العنف والإرهاب التي ترتكب باسم الإسلام، وهي صورة مشوهة حسب الدراسة نفسها.

ـ يقول بول فندلي عضو الكونغرس الأمريكي عن ولاية الينوي في كتابه "لا سكوت بعد اليوم" : «معظم الأمريكيين لا يعرفون أي مسلم، لم يناقشوا يوماً الإسلام مع أي شخص مطلع على هذا الدين، ولم يقرؤوا يوماً آية واحدة من القرآن الكريم، بل ولا أي كتاب عن الإسلام. وتنبع أغلب تصوراتهم عن الإسلام من الصور السلبية المزيفة التي تظهرها التقارير الإخبارية والأفلام والمسلسلات التلفزيونية والحوارات في الإذاعات والتلفزيون».

الموقف من الإرهاب

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾[1].

(1) سورة البقرة، الآية 208.

كثيرة هي النصوص والقوانين التي أصدرتها الأمم المتحدة للحدّ من الإرهاب، وقد عرّفته بأنه استخدام غير شرعي أو قانوني للعنف أو القوة أو التهديد بهما لأهداف سياسية، واعتبرت أن الإرهاب هو كل عمل يخالف القوانين الداخلية للدولة أو القانون الدولي حتى لو لم يخالف قانون الدولة الداخلي. وقد اعتبرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإرهاب أنه يشمل سائر الأعمال والطرق والممارسات التي ترعب الجمهور عامة أو حتى مجموعة من الأشخاص لأسباب سياسية بغض النظر عن المبررات.

لقد كان الإسلام سباقاً في الدعوة للسلم ونبذ الإرهاب والعنف والحض على السلام بين الفرقاء أياً كانوا، فالإسلام منع الحرب كلياً في الأشهر الحرم مهما كانت الأسباب. والأيام الحرم أو الأشهر الحرم هي عشرون يوماً من ذي الحجة والمحرم وصفر وربيع الأول، وعشرة أيام من ربيع الآخر. وهذا يعني أن الأيام الحرم تساوي ثلث العام أي أربعة أشهر وهي فترة كبيرة تؤسس للبحث عن السبل الكفيلة باستتباب السلم بين بني البشر، كما أن الحديث النبوي الشريف يقول : «لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا شيخاً». ويعتبر هذا الحديث أول توجيه إسلامي ضد الإرهاب وجرائم الحرب. والإسلام كان واضحاً عبر قادته التاريخيين ووصاياهم لجنودهم، والخطبة الشهيرة : «لا تقطعوا شجرة» أكبر نموذج لذلك. ولذلك يبدو واضحاً أن الإسلام في أصله ضد الحرب وجرائمها وضد ترويع الناس والإضرار بالمدنيين. وهي إشارة واضحة جداً ضد الإرهاب بكل أشكاله.

التكفير

أياً كانت الجهة التي تستخدم التكفير ضد منتقديها فرداً أو جماعات، ديناً أم فلسفة أم نمطاً سياسياً محدداً، فهي تنطلق من نفس الخلفية النظرية القائلة بمطلق الرؤية التي تتبناها الجهة التي تستخدمه دفاعاً عن رؤيتها لمعتقداتها. وهم بذلك متساوون، سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين أم عقائديين دنيويين، كالشيوعية مثلاً، وبالتالي فإن جذور التكفير واحدة سواء تلك التي استخدمها الإسلاميون ضد ابن المقفع وحنين ابن إسحاق وأحمد بن سهل والحلاج والطبري وابن رشد قديماً، وكذلك طه حسين وعلي عبد الرازق حديثاً، أو ما استخدمته الكنيسة، وكذلك ما استخدمه الستالينيون ضد معارضيهم أو منتقدي سياساتهم، وهي الطريقة نفسها التي تستخدمها الأنظمة الديكتاتورية في تخوين معارضيها. فالتهمة جاهزة لكل من يستخدم فكرة بعكس رؤية الحاكم. يقول محمد عبده : «إن الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن يتهموا بالكفر والإلحاد كل نابه في العلوم العقلية». والظاهرة لدى المسلمين

عجيبة غريبة، رغم أن الإسلام دين التسامح والعقل وليس ديناً كهنوتياً، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾، وعلى إثر معركة صفين قال علي بن أبي طالب : «قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار»، وهذه إشارة واضحة إلى حق الاختلاف. وقد قال الفخر الرازي : «يجب على المحق استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير إيذاء». وقد وردت الردة والارتداد في القرآن الكريم أكثر من مرة، وقد حصلت الردة أكثر من مرة من أفراد ومجموعات، ومع ذلك لم يقتل منهم أحد على الإطلاق. فكيف بالاختلاف في القراءة أو التفسير أو الرؤية.

والتكفير هو المصدر الأول للإرهاب والمنتج الحقيقي له، والقبول بالتكفير في الداخل هو الذي يقود إلى إعطاء المكفرين القدرة على مواصلة الرؤية من جانب واحد وإعطاء أنفسهم حق إقامة الحد أو حق مقاتلة الغير وإيجاد التبريرات لذلك فما دمت ملكت القدرة على تمليك الإيمان والكفر للبشر دون إرادتهم، فإنك بذلك قد أجزت لنفسك وأبحت لها كل محرم بما في ذلك مقاتلة البشر، وذلك يقود إلى أن البداية تأتي من الداخل، بمعنى أن علينا أولاً أن ننبذ من بين أوساطنا أولئك الذين يضعون الحدود بين الكفر والإيمان، ويقسمون البشر إلى مؤمنين وكفرة وفقاً لأهوائهم وبعيداً عن النصوص القرآنية والسنة النبوية، ويجيزون لأنفسهم ما يمنعونه عن غيرهم.

تقديم الذات للآخر

أية أفكار يمكن أن نستخدمها ونحن نتوجه للآخر لتقديم أنفسنا ؟ ومن أية منطلقات ننطلق ؟ يجب أن ننطلق ونحن نتوجه للآخر المتمثل بالغرب المسيحي، مما يلي :

1. الإسلام يقبل الآخر :

﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾[1].

وحده دون الأديان الأخرى، يقبل الدين الإسلامي الآخر، أياً كان هذا الآخر، فهو إلى جانب إيمانه وتقديسه للأديان السماوية التي سبقته، يدعو إلى التعامل مع الآخر على قاعدة أن البشر كل البشر متساوون. والآية الكريمة تدعو للحكم بين الناس بالعدل. والدعوة هنا غير مقتصرة على المسلمين، بل على كل بني البشر. ثم إن الإسلام يؤمن بالحوار مع الآخر في قوله تعالى : ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾، وفي قوله

(1) سورة النساء، الآية 58.

تعالى : ﴿ **وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾، وبالتالي فإن الإسلام لا يضع (فيتو) على فكر واحد. وهو مقارنة مع الآخرين دين احترام الرأي الآخر. ويعتبر المسلمون سائر الأنبياء أنبياء لهم، وبالتالي فإن الإسلام أقرب عملياً إلى فكر الغرب الحديث، وهو يوفر للبشرية كل الأحلام التي ينادي بها الغرب من الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات، وما قوله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾، إلا إثبات حي ومثبت على أن الإسلام دين العقل والحوار والإقناع، وليس أبداً دين الإكراه والإلزام وفرض الرأي على الآخرين ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾، فالله سبحانه وتعالى قدم للبشرية عبر الإسلام ما كان ضرورياً للوصول إلى عالم الحداثة والتقدم العلمي والتنمية المستدامة، متمماً بذلك رسالة السماء للبشرية.

2. الإسلام عدو العنصرية :

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾[1].

قدم الإسلام لأتباعه مبادئ إنسانية راسخة لا يتميز بها أحد عن سواه، فهو اعتبر نفسه متمماً وليس بديلاً للأديان السماوية الأخرى وتعامل مع أتباعها بشكل إيجابي، فالمسلمين يقبلون التزاوج مع أتباع الأديان الأخرى، ويحق للمرأة الكتابية الإبقاء على دينها رغم زواجها من رجل مسلم، كما أن الإسلام يقدس الإنجيل والتوراة معترفاً بأنهما كتابان إلهيان تماماً كما هو القرآن الكريم، وهو لذلك يقدس سائر الأنبياء والرسل الذين سبقوا محمداً عليه السلام، مثل هذه المبادئ كفيلة بمنع معتنقيها من أية أفكار عنصرية قد تنشأ بينهم. ولذا فإن أي دعاية تستهدف ربط الإسلام بمعاداة الديانتين المسيحية واليهودية، هي دعايات معادية للإسلام، وليس العكس لأنها تطعن الإسلام في الصميم.

3. حامي الرسالات السماوية :

﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[2]. ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى**

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

(2) سورة البقرة، الآية 62.

ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾[1]. ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين ﴾[2].

الحكاية الشهيرة التي بموجبها رفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصلاة في كنيسة القيامة حفاظاً على قدسية المكان ومنعاً لأي تفكير قد ينشأ لدى المسلمين في المستقبل حول قدسية المكان الذي صلى فيه عمر لدى المسلمين، وخشية أن يفكر أحد في تحويل الكنيسة إلى مسجد للمسلمين، تبيّن بشكل قاطع مدى الحرص الذي أولاه الإسلام للأديان الأخرى وقدسيتها لديه ولدى أتباعه، وقد يفسر ذلك العجز الذي يشعر به المسلمون أمام أنماط الهجوم المتواصلة ضد ديانته ورموزها كالقرآن الكريم والنبي محمدﷺ. وما حكاية الكاريكاتورات الأخيرة إلا نموذج لذلك، إذ يقف المسلمون عاجزين عن الرد بالطرق التقليدية حين يتحدث المهاجم باسم المسيحية أو اليهودية.

4. الغرب صانع التطرف الإسلامي :

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾[3].

الغرب الرأسمالي الاستعماري هوالذي سعى جاهداً لتأسيس مدرسة التطرف الإسلامي ولزرع بذرة الإرهاب لدى تلك الجهات التي حماها وأوجدها لأهدافه الذاتية البحتة في حربه السابقة على الشيوعية، وما حكاية العرب الأفغان إلا نموذج حي لذلك، فهم الذين استخدموهم أولاً ضد الوجود الشيوعي في أفغانستان، وبذلك أسسوا أهم مركز للتطرف في أوساط المسلمين، وهم شكلوا مركز حماية لكل أولئك الفارين من بلدانهم من المتطرفين الإسلاميين. ويذكر المراقبون الطلب العلني الذي تقدم به الرئيس المصري لرئيس وزراء بريطانيا بعد أحداث 11 سبتمبر قائلاً له : «سلمونا المطلوبين للعدالة عندنا ممن تأويهم بلادكم، لنحاكمهم ما دمتم تريدوننا مقاومة الإرهاب»، وقد رفض رئيس وزراء بريطانيا الطلب المصري.

---

(1) سورة البقرة، الآية 113.

(2) سورة البقرة، الآية 135.

(3) سورة البقرة، الآية 143.

5. المسلمون سباقون للفكر الإنساني :

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيّبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾[1].

يقول المفكر الإيطالي بيك المير اندولي (1486) : «قرأت في كتب العرب بأننا لا يمكن أن نجد على سطح الأرض كائناً أنبل ولا أكثر روعة من الإنسان». وفي ذلك يمكن أن نرى ليس شهادة واحد من كبار مفكري الإنسانية، بل إن الفكر الإسلامي كان يشكل مرجعية للمفكرين الإنسانيين. ويمكن أن نذكر ما قاله الشاعر العباسي أبو العتاهية :

فلا نزلت علي ولا بأرضي　　　سحائب ليس تنتظم البلادا

ومثل هذا القول يبدو من أكثر نماذج الفكر الإنساني سطوعاً بإنسانيته واعترافه بالمساواة الإنسانية لكل بني البشر، وهو تعبير عن شعور عال بالانتماء للإنسانية كلها. فهنا شاعر مسلم يرفض المطر إذا كان لبلاده فقط، ويطالب بالخير لكل البشر، ولا ننسى أن الشعراء كانوا الناطقين بلسان الأمة، وبالتالي فإن أقوالهم هي تعبير عن فكر الأمة، ونحن لم نقدم هذا النموذج للعالم بل نقدم أقوالاً مثل : لا عاش أطفال العالم إن لم يعش أطفال بلادي.

6. حدود الإسلام حدود الله :

لقد جاء الإسلام أولاً لتثبيت تعاليم الله سبحانه وتعالى في الإنجيل والتوراة ثم لإتمام الرسالة السماوية. وبذا فإن التطاول على الإسلام هو تطاول مباشر على الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، لأن الإسلام دين جميع المؤمنين، وعباد الله هم جميعاً في نظر الإسلام مسلمون، وإلا كيف يمكن أن نفسر تقديس الإسلام لسائر الكتب والرسل واعتبار إبراهيم عليه السلام مسلماً حنيفاً. وبالتالي فإن من المفيد تقديم هذه الصورة الإيجابية بشموليتها للإسلام دون الانتقاص من أهمية الآخر، وعلى الإسلام أن يكون السباق للدعوة إلى حوار الديانات. ويمكن أن تقوم الإيسيسكو بدور مهم بهذا الشأن[*].

7. الغرب واستغلال الأديان :

لقد استخدم الغرب الأديان بطريقة خاطئة، فهو سطا كلياً على الدين المسيحي الذي كان الشرق مهده الأول، واستحوذ على قيادته، واستخدمته الكنيسة لترهيب

(1) سورة الإسراء، الآية 70.

(*) نعم للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ نشاط مكثف في مجال حوار الأديان والثقافات والحضارات ونشر قيم الحوار والتعايش وتعزيز ثقافتهما ـ المحرر ـ.

الناس وإذلالهم، وما حكم الكنيسة وسيطرتها على كل مناحي الحياة وجرائمها في صكوك الغفران وإعدام العلماء وخرافة صيد الساحرات، إلا نموذج للاستغلال السيء للدين المسيحي. ثم عاد هذا الغرب ليستخدم اليهود واليهودية لإشعال نار الفتنة ضد الإسلام بزرع إسرائيل في قلب المنطقة العربية برعاية استعمارية، وبعد ذلك جاءت حكاية مقاومة الغزو الشيوعي لأفغانستان لاستخدام الإسلام في مقاومة الشيوعية. واليوم يصبح الإسلام نفسه العدو الأول لهم. والمسألة بكل بساطة تشبه إلى حد بعيد نمط الإثراء للكنيسة ببيع صكوك الغفران، لنأتي اليوم لنمط جديد من الإثراء بالهجوم على الإسلام والمسلمين للسيطرة على ثروات الشرق والمنطقة العربية الإسلامية تحديداً، وبذا يمكننا أن نقول إن الثروة هي الأساس، وإن الدين هنا هو وسيلة في الهجوم عليه كالإسلام، أو الدفاع عنه كالمسيحية، أو استخدام أتباعه، كما هو الحال مع اليهود، ففي كل الحالات يبدو الغرب أبعد ما يكون عن الإيمان الحق.

الإعلام أخطر أسلحة العصر

الإعلام العصري سلاح فتاك وخطير، فهو قادر على الوصول إلى كل بيت بكل الأشكال والأدوات صوتاً وصورة، لوناً وحركة، إيماء ومباشرة، وهو يملك القدرة على قول ما يريد وإيصال ما يريد قبل أن يتمكن المتلقي من تفسير ما يرى ويسمع. ولنفترض أننا عدنا اليوم إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كاميرات تلتقط جريمة كبرى في التاريخ وإمبراطوريات إعلامية كبرى تغطي العالم تلتقط الصور والحدث وتبدأ بعزف سيمفونية واحدة لا غير : المسلمون وراء ذلك، إن للإعلام إغراء فقد يقود البريء لتبني جريمة لم يرتكبها في سبيل أن يحتكر الإعلام لنفسه حتى لو كانت الإساءة وراء ذلك، وعادة ما يتقن الإعلاميون الإتيان بأسوإ الممثلين للفكرة التي يرغبون بتحطيمها، وهؤلاء الذين يسعون وراء الكاميرا دون هدف سوى ذواتهم كثر، وخصوصاً في عالمنا الإسلامي والعربي منه تحديداً، ففي حين نرى الغرب يعمل وفق منهاج واضح ومحدد ويستخدم إعلامه وشخوصه بذكاء يخدم الهدف الذي يسعى إليه، نجد البعض عندنا يطلقون الكلام على عواهنه دون أدنى تقدير للنتائج المنتظرة من هذا الكلام.

يشير الدكتور إدوارد سعيد الأستاذ بجامعة كولومبيا، إلى أن كلمة الإسلام في الأذن الغربية أصبحت الآن تثير شعوراً بالبغض والنفور، فقد نجحت مجموعة من الإعلاميين والأكاديميين الأمريكيين على رسم صور نمطية منفرة للإسلام والمسلمين، لا علاقة لها بالواقع، ولكن هذه الصورة الجديدة حلت محل الواقع، بحيث أصبحت هي الواقع المستقر عن الإسلام في أذهان الغربيين.

حال الخطاب الإعلامي عند المسلمين

يمكن تلخيص المشاكل التي يعاني منها الإعلام والخطاب الإعلامي عند المسلمين خاصة والعرب عامة، بما يلي :

- إعلام سلطة مطلق، فالخطاب الإعلامي الإسلامي والعربي تحديداً خطاب موجه ومقاد كلياً من قبل السلطة التي تفرض عليه رؤيتها ولا تعطي مجالاً لحرية الابتكار والحركة، مما يجعله إعلاماً ضعيفاً غير قادر على مواجهة الإعلام الغربي بكل إمكاناته.
- الأحادية في الخطاب الإعلامي الإسلامي والعربي هي السائدة والتي تحاول تغييب الآخر والتعامل معه كأنه غير قائم، مما يقود للوقوع في أخطاء مميتة أحياناً.
- تضخيم الأنا، سواء كانت الأنا الفرد أو الأنا الجماعة، وبدون تقديم مبررات أو ما يقنع المتلقي بذلك، واعتماداً فقط على رضا داخلي وعلى التاريخ، ودون أدنى اكتراث لحضارة الآخر وما وصل إليه، بل يكاد الأمر يصل إلى تسخيف كل إنجازات البشرية مقابل تقديم ذات راضية عن نفسها بلغة لا علاقة لها بالواقع.
- إعلام رسمي، وهو إعلام خاضع بالمطلق للسلطة الرسمية في الغالبية العظمى منه أو متفرع عنها، وهو لذلك يدفع بهذه المؤسسات الإعلامية لأن تقع فريسة للحيرة بين واقع الحال ورغبات السلطة المسيطرة على المؤسسة الإعلامية.
- تقديس الخطاب الرسمي، فالخطاب الإعلامي يقدس الخطاب الرسمي المسيطر. ولذا تجد هذا الإعلام يكيل المديح تلو المديح لكل ما يصدر عن المسؤول أياً كان ودون تمحيص أو تفكير، مما يقود بالمسؤول نفسه إلى تصديق ما يردد ويغرق في ذاتيته. وبذا فإن غالبية وسائلنا الإعلامية تكرس الولاء للشخص دون الفكرة أو المؤسسة.

الصورة السلاح الأكثر فتكاً

تتميز الصورة المتحركة أو الصامتة بخطورة دورها، فمنذ ظهرت الكاميرا العادية وأخذت دورها بديلاً للرسام أو المصور غير القادر على النقل الدقيق للحدث وأصبح بالإمكان تسجيل اللحظة الراهنة ونقلها إلى سائر أنحاء العالم بسرعة فائقة،

أصبحت الصورة السلاح الأفتك بيد أصحابها، وتملك تأثيراً يفوق الكلمة المكتوبة أو المسموعة. وشكلت الفضائيات أخطر الوسائل لنقل صورة حية وواقعية لا يمكن لأحد تكذيبها. وكان لتطور اللون والنقل المباشر تأثيرات هائلة على المشاهد، وأصبحت الفضائيات تملك الدور الرئيس في تشكيل الرأي العام وحشده خلف القضية التي تريدها، ولم يعد هناك بيت واحد تقريباً لا يملك جهازاً للتلفزيون يعمل طوال الساعة وهو في متناول الأطفال والشيوخ، الرجال والنساء، على حد سواء. ويكفي أن يحدث حدث ما في أقصى الأرض لتجد نفسك على تواصل معه بعد دقائق، ومن يذكر أحداث الحادي عشر من سبتمبر، يذكر جيداً كيف صدمت البشرية وهي ترى ناطحات سحاب تنهار. وعاش العالم حالة ذهول وهو يتابع أحداث اصطدام الطائرات بالمبنى والانهيار والضحايا وما رافق ذلك من سخط انصب جميعه دفعة واحدة فوق رؤوس المسلمن، ولن ينكر أحد أنه كان للإعلام والفضائيات تحديداً الدور الرئيس في إحداث التأثير الذي رغبه الغرب ضد العرب والمسلمين من ذلك. ملايين العرب والمسلمين يعيشون في الغرب ومع ذلك لم نسمع على شاشة تلفاز غربي واحد من يقول اقتلوهم. والعكس من ذلك، تستخدم محطات التلفزة الغربية عرب ومسلمين يحملون جنسيات تلك البلدان ليقدموهم على أنهم دعاة للقتل على أساس الانتاء الديني، ومن شاهد ذلك الرجل بريطاني الجنسية والذي يفقد يديه ويعيش على حساب دافع الضرائب الإنجليزي وهو يدعو للقتل على أساس ديني ويعلن عداءه المطلق للمسيحية، يعرف جيداً أن ظهور كلمات هذا الرجل علناً على شاشات التلفاز يعيدنا إلى الوراء عشرات السنين. وقد نكون بحاجة لاستثمار الملايين والملايين في سبيل إزالة تأثيرات الدقائق التي استخدموه بها على شاشاتهم وشاشاتنا للأسف الشديد. ويملك الغرب إمبراطوريات إعلامية يسيطر على معظمها اللوبي الصهيوني، سواء كان ذلك في الصحف أو المجلات أو الإذاعات أو الفضائيات أو شركات الإنتاج السينمائي، ويكفي أن نعرف درجة الانحياز لدى محطة مثل (سي إن إن) ومثل شركات هوليود لصالح وجهة النظر الصهيونية ضد العرب والمسلمين. ومن يتابع هذه الجهات في نقل أحداث الصراع في الشرق الأوسط يرى أنها تقدم الإسرائيلي على أنه ضحية للعنف والإرهاب العربي الإسلامي، فالإسرائيلي طفل أو امرأة بريئة مع دموع حزينة وصورة الطفل اليهودي الناجي من النازية غزت معظم بيوت الأرض بما فيها بيوت العرب والمسلمين، بينما العربي طفل يحمل السلاح ولا يخاف ويعلن استعداده للموت. الأم الإسرائيلية حزينة على ابنها، وتبكي والأم الفلسطنية بل تزغرد وترسل ابنها للموت وتساعده على ذلك. وأياً كان الموقف عند الإسلام من ذلك فإنها قطعاً صورة غير مقبولة لدى الغربي بل وتدعو إلى الاشمئزاز والخوف من أولئك الذين

يفكرون كذلك. الجنود الإسرائيليون الذين يدخلون البيوت الفلسطينية يأخذون صور الأطفال وهم يحملون الأسلحة ثم نراها في وسائل الإعلام.

سيطرة لغة الآخر

المتتبع لوسائل الإعلام الغربية يجد أن اللغة المسيطرة عند الحديث عن العرب والمسلمين وقضايا الصراع في المنطقة هي اللغة التي تعبر عن وجهة النظر المعادية للعرب والمسلمين، وهي تستخدم الألفاظ والتعابير القادرة على رسم صورة سلبية للمسلم وللإسلام في ذهن المتلقي الغربي، وفي كثير من الأحيان ينسحب هذا التأثير على المسلم نفسه. ومن العبارات التي تستخدم ما يلي :

- القضاء على شبكة الإرهاب بدل اغتيال فلسطينيين.
- تدمير البنية التحتية الإرهابية والهجوم على الإرهابيين بدل الاعتداء على الفلسطينيين.
- الأراضي المتنازع عليها بدلاً من الأراضي المحتلة.
- الضواحي اليهودية بديل للمستوطنات.
- إرهابي مسلم أو إرهابي بديل للمقاوم.
- صور متظاهرين بذقون طويلة، يرفعون المصاحف أو يكسرون الممتلكات العامة، وعلى العكس صورة أطفال أو نساء يهود يبكين.
- ناطق عربي أو مسلم غاضب يصرخ أو يشتم، مقابل إسرائيلي أو غربي هادئ وأنيق ويحلل بلغة إنسانية عالية.

الإعلام الإسلامي والعربي والانشغال بالذات

تأخذ الصراعات العربية العربية والإسلامية الإسلامية حيزاً رئيساً من اهتمامات وسائلنا الإعلامية، وهي في كثير من الأحيان تتحول إلى مادة مفيدة لتشويه صورتنا لدى الغرب، وتهتم وسائلنا الإعلامية للأسف الشديد، بكل ما يسيء للبلد الذي لا تلتقي معه هذه المحطة أو تلك، فنرى محطات فضائية مثلاً تبث صوراً وتقارير تضر، ليس بالبلد المعني، بل وبصورتنا جميعاً، وتلتقط الفضائيات المعادية ذلك وتكرره بلا ملل، فصورة المرأة في ظل حكم طالبان في أفغانستان ليست النموذج لصورة المرأة المسلمة، والأطفال على الطرقات ليسوا هم كل أطفال المسلمين، وتحويل طفل فلسطيني ذبح على أيدي قوات الاحتلال إلى بطل وتزوير صور له وهو يحمل

سلاحاً، تتحول إلى أداة لتصوير أطفالنا كإرهابيين، والتحدث عن الحق بقتل اليهود كيهود، يأتي علينا بالوبال، وكل ذلك نستخدمه أحياناً من باب التباهي، وأحياناً اعتقاداً منا أن هذا يقوي شوكتنا أمام منافسينا المحليين، سواء أكانوا دولة أم طائفة أم حزباً، والنتيجة بالتالي صورة قاتمة للمسلم.

غياب التوجه للآخر

راديو إسرائيل أو صوت إسرائيل كما يسمون أنفسهم باللغة العربية، وكانوا قد بدأوا بثهم تحت اسم دار الإذاعة الإسرائيلية ويرافقها موسيقى أليفة وهادئة، ولاحظوا اختيار كلمات "دار" وهي هنا دليل الألفة والود، وهذا معنى البيت أو الدار عند العرب، بينما كانت الإذاعات العربية تحمل اسم صوت العرب مثلاً ويرافقها موسيقى عسكرية صاخبة، وكذا صوت العاصفة، وهناك فرق كبير بين العاصفة والدار في التأثير على أذن المستمع، كما أن اهتمام إسرائيل بالبث باللغة العربية على موجة تصل إلى الغالبية العظمى من أرجاء الوطن العربي، وكذا بث ساعات محددة باللغة العربية في التلفزيون موجه إلى المشاهدين العرب، ذلك كلّه جعل الإعلام الصهيوني مؤثراً جداً على الفلسطينيين الذين يعملون في السياسة، والأمثلة على ذلك كثيرة ومنها :

- إسرائيل تردد كلمات تشير إلى تصنيف الأسرى الفلسطينيين إلى ملطخة أيديهم بالدماء اليهودية أو لا. أحد المسؤولين الفلسطينيين أخطأ وكرر الكلمة على شاشة إحدى الفضائيات.
- إسرائيل تكرر كثيراً كلمة القدس عاصمة إسرائيل الأبدية، أحد المسؤولين الفلسطينيين كرر ذلك في ندوة عامة بدل أن يصفها عاصمة لفلسطين وصفها على الطريقة الإسرائيلية.

من جانب آخر، فإن إسرائيل تختار ناطقين بالعربية يتقنونها بشكل جيد، بل ويتحدثون باللهجات المحلية، وقد اشتهر في راديو إسرائيل برنامج باسم ابن الريف كان يقدمه شاعر مصري خائن وفار إلى إسرائيل، وكذا برنامج ديني شهير كان يقدمه شخص فلسطيني باسم أبو جرير، بالمقابل فهناك المحاولات القليلة البائسة التي حاولت فيها المحطات العربية تقديم برامج عبرية فاشلة، فلا الأشخاص يتقنون اللغة ولا المادة تهم المشاهد أو المستمع الإسرائيلي، وفي حين كانت إذاعة إسرائيل تبث أغاني أم كلثوم يومياً من السادسة والنصف إلى السابعة والنصف مساء، يتخللها الإعلان عن الإذاعة، وتنتهي مباشرة مع نشرة الأخبار المفصلة والتي تستمر ساعة

كاملة، واختيار الوقت مناسب لأنه وقت البقاء في البيت ومناسب جداً للاستماع عند العرب، ولم تفكر محطة عربية واحدة ببث أغنية أو فيلم أو مسرحية أو برنامج ديني يهم المشاهد اليهودي على الإطلاق.

العالم صغير جداً

العالم قرية أو حارة أو بيت صغير، فأنت الآن تعرف ما يجري في الشارع الخلفي لبيتكم من محطة أمريكية وتراه مصوراً قبل أن تتمكن من الانتقال إلى المكان. ولم تترك الفضائيات والأقمار الصناعية والأنترنيت وغيرها مجالاً لأن نتحدث في بيوتنا لغة لا يسمعها الآخر، أياً كان إن أراد ذلك، وهذا يعني أننا بحاجة للغة واحدة مقتنعون بها وحقيقية نقدم أنفسنا بها وندافع عنها بكل القوة دون خوف أو تحريف أو إخفاء، وما نقوله في بيوتنا وشوارعنا نقوله على الفضائيات، وما نقوله بالعربية أو الفارسية أو غيرها من لغات المسلمين، نقوله بالإنجليزية والإسبانية، ولذا يجب توحيد الخطاب الإسلامي للداخل والخارج، فلا يجوز أن نتحدث في ندوة ما في قرية إسلامية نائية بطريقة تختلف عما نتحدث به على الفضائيات، فلا شيء يمكن إخفاؤه في عالم ثورة الاتصالات الرقمية.

آليات مقترحة

يجب الوصول لعقل رجل الشارع الغربي باقتناعاتنا ولكن بلغته، بمفاهيمنا ولكن عبر اهتماماته، أن نخاطبهم بلغة راقية وواضحة وعبر أمثلتهم الشعبية الشائعة وتراث وتقاليد البلد نفسه ومن خلال ممثلين مقتنعين بفكرتنا، ليس بالعلم ولا بالإيمان فقط ولكن باللهجة، بالشكل، باللباس. الإنسان الغربي بحاجة لوجه مقنع، جميل، أنيق الهندام، طلق اللسان، يبهره بمعرفته بالغرب وخفاياه وحقائقه وقادر على تقديم صورة جميلة عصرية للمسلم دون أن تفقد أصالتها، ويفضل أن يكون من رموز البلد نفسها، فمكسب فنان معروف مؤيد لنا أهم أحياناً من مليون شخص غير معروف، وقد يعطي نتائج عمل سنوات بتصريح واحد أو إعلان واحد.

الفضائيات

أخطر وسائل الإعلام في العصر الحديث هي التي تملك القدرة على اقتحام خلوة الناس ووحدتهم وبيوتهم في كل أوقات اليوم. وإدارات هذه المحطات تدرس بعناية فائقة الأوقات المناسبة لبث أي برنامج، وخبراء الصورة التلفزيونية يعرفون أين

وكيف يمكن تصوير حدث لإعطاء رأي إيجابي عنه أو العكس، أو الجهة التي يمكن تصوير الشخص منها لإبرازه مقبولاً أو العكس، بل إن المكان الذي يتم إجلاس المتحدث فيه، إذا كان على يمين الشاشة أو يسارها، له دور في نوع التأثير على المشاهد، ولذا فإن الاهتمام بما تبثه الفضائيات المؤيدة للإسلام أو المعادية له، مهم جداً. ويمكن تقسيم الفضائيات إلى ثلاثة أصناف :

1. الفضائيات الغربية نفسها :

هناك في كل بلد غربي فضائية أو اثنتان تحظيان باهتمام شعبي من قبل مواطنيها، علينا التوجه إليها مع ملاحظة أهم البرامج وأكثرها شعبية ومحاولة إيجاد سبل لمشاركتنا بها، أو شراء دقائق لبث إعلانات خلالها قصيرة جداً تصور الإسلام والمسلمين، في صورة جميلة، أنيقة، وفي مدن نظيفة، ومدارس، ومستشفيات، ومؤسسات، وبتوجيه المستثمرين العرب والمسلمين لشراء الأسهم بها وكذا إقناع ما أمكن من غربيين مؤيدين لقضايانا، وإقامة علاقات ناضجة وواضحة مع أبرز الأسماء من العاملين في تلك البرامج، ودعوتهم لزيارة العالم الإسلامي والاطلاع الحي على عدالة قضايانا وتزويدهم دوماً وبلا كلل عبر وسائل الاتصال المتاحة بهم، بكل ما أمكن من تصوير عدالة قضايانا والجرائم التي ترتكب من قبل الغرب وإسرائيل بحقنا، على أن تكون المواد المرسلة مثبتة وصحيحة ومقنعة ولا نكتفي بخطابنا العالي دون مضمون. فإعلاميو الغرب تعودوا على فحص موادهم، ومصداقيتهم مع جمهورهم، فإن أخطأت مرة واحدة ستفسد كل شيء.

2. الفضائيات باللغات الحية :

هناك فضائيات من دول إسلامية تبث باللغات الحية كاللغة الإنجليزية مثلاً، وهذه يمكن الاستفادة منها ببث برامج موجهة بالمادة والتوقيت للغرب، كأن تقيم تلك المحطات برنامجاً عن السينما الغربية مثلاً ويقدمه إعلامي غربي جذاب ومعروف ليناقش أفلام هوليود مع عرض مقاطع مثيرة وجميلة منها تجذب المشاهد الغربي، وعبر هذا البرنامج نناقش صورة الهندي الأحمر في سينما هوليود مثلاً وكذا صورة المسلم، قضية العنصرية في أمريكا والعنصرية ضد المسلمين، البطالة في بريطانيا، والمرأة عند المسلمين، ونقدم نقضاً دقيقاً لجريمتهم في رسم صورة سيئة للإسلام. وهذا يمكن للغربي أن يهتم به إذا كان البرنامج غربي الإنتاج والمادة والجمهور، بمعنى أن لا نتحدث إليهم وكأننا نتحدث إلى الجمهور من العالم الإسلامي.

3. الفضائيات باللغات المحلية :

مهمة هذه الفضائيات تقديم تثقيف حقيقي وعصري لإسلام صحيح بعيد عن التطرف مؤمن بعدالته وبتقدمه على الآخرين، وبأنه دين الله ومتمم الرسالات لا عدوها، وإن المعركة ليست بين الإسلام والأديان الأخرى، بل بين الإسلام ومعه كل المؤمنين ضد حفنة من القتلة ومصاصي الدماء الذين يستخدمون مواطنيهم للموت في سبيل السيطرة على أرض الغير وخيراتهم. ثم إن مهمتها محلية بحتة وتتمثل في زيادة الوعي الإيجابي وتصحيح رؤية الذات وعلاقتها بالآخر وتثقيف المجتمع الإسلامي بروح الحوار واحترام الآخر دون تنازل عن الأسس أو مخالفتها. وتتمتع الفضائيات الوطنية في البلدان الإسلامية الرسمية أو الخاصة منها، بجمهور عريض وهي ذات تأثير كبير على جمهور المشاهدين والشباب منهم خاصة، بدل أن تهتم هذه الفضائيات بتقديم إسفاف متواصل أو برامج ثقيلة على المشاهد العادي ومملة، يجب أن تسعى لابتكار وسائل وآليات لتحويل المشاهدة الهادفة والإيجابية إلى نشاط إنساني ممتع حتى نتمكن من محاربة البرامج والأغاني الهابطة والمضرة ليس بالأخلاق فقط، ولكن حتى بتماسك الأسرة والذوق العام والانتماء الوطني، فمن غير المعقول أن جميع أغاني الفيديو كليب اليوم ليست هابطة في الموسيقى والكلمات فقط، وإنما معظمها تصور خارج البلاد العربية والإسلامية وتصور جماليات الغرب مما يدفع شبابنا إلى الاغتراب داخل الوطن، فهم يعيشون حالة حلم بما هو غير موجود، ساعات طويلة يشاهدون مناظر خلابة جميلة ونساء جميلات عاريات وبذخ لا حدود له في واقع فقير بعيد عن كل ما يشاهدونه، مما يدفعهم إلى التفكير بالهروب من واقعهم بأشكال غير إيجابية تهدد مجتمعنا. وجزء من هؤلاء يجدون في التطرف ملاذاً ومهرباً من واقعهم. إن الدور المفترض لوسائل الإعلام الوطنية والفضائيات منها خاصة، هو دور تثقيفي بنائي يساهم في تنمية روح الانتماء والاعتزاز الوطني، وليس العكس. كما يقدم صورة إيجابية عن الوطن شكلاً ومضموناً وليس العكس.

الجهات المستهدفة

المقصود هنا سائر الجهات ذات العلاقة بالتلفزيون والسينما والأنترنيت والتي تعمل جميعها بالصورة والصوت والكلمة. ويمكن تقسيم الجهات الفاعلة والمستهدفة على النحو التالي :

1. الشركات المالكة :

ويمكن استهدافها مادياً، فالمال لدى أصحاب المال هو المهم، وعادة ما تكون الشركات المالكة لمثل هذه المؤسسات كالفضائيات، شركات مساهمة عامة، خصوصاً في الغرب، وبالتالي فإن بالإمكان العمل على محورين :

الأول : تأسيس شركة إسلامية أو إسلامية عالمية قابضة بمشاركة منظمات صديقة كدول عدم الانحياز والاتحاد الإفريقي ودول أمريكا اللاتينية وغيرها، مهمتها شراء الأسهم في تلك الشركات الإعلامية العالمية، ومحاولة إيجاد لوبي ضغط إسلامي. ويمكن أن تكون تلك شركة واحدة أو عدة شركات، ويمكن أن تكون هذه الشركة أو الشركات الإسلامية خالصة أو مشتركة، بما في ذلك إمكانية مشاركة رأس المال الغربي.

الثاني : مركز إرشاد وتوجيه ودراسات مهمته توجيه أصحاب رؤوس الأموال المسلمين للاستثمار في شركات الإنتاج الإعلامي، وبالتالي يمكن لهذا المركز أن يلعب دور المساند أو حتى البديل للشركة الإسلامية القابضة، وهو سيعنى بتقديم قراءات لأسعار أسهم الشركات الإعلامية المالكة لمحطات فضائية والجدوى الاقتصادية من المشاركة بها والطرق الكفيلة بتحقيق الاختراق وآليات حماية المساهم من معرفة أهدافه من قبل الشركات المعادية والتي قد تسعى إلى تدمير إمكانيات الربح لهذا الشريك صاحب الأهداف المختلفة إن هي كشفت. وقد تكون المساهمات الفردية مفيدة أكثر بكثير من شركة رسمية قد يسهل معرفة أهدافها، وبالتالي إغلاق الطرق أمامها أو إيقاعها في مطبات وعوائق كثيرة.

2. الشركات المنتجة :

العديد من الشركات تختص بالإنتاج، كإنتاج البرامج العلمية والتاريخية أو الأخبار أو المواد الترفيهية، وهذه الشركات مهمة ومؤثرة بما فيها شركات الإنتاج السينمائي والتلفزيوني، وهذه يمكن التعامل معها على نفس الطريقة في التعامل مع الشركات المالكة لمؤسسات البث.

3. شركات الإعلان :

بعض شركات الإعلان تحتكر حق الإعلان في الفضائيات الرئيسة والمهمة، والوصول إلى هذه الشركات يعني القدرة على استخدام الإعلان للوصول إلى عقل المشاهد. تكرار إعلان ما في برامج رئيسة ومهمة وشعبية، مثلاً شبكة راديو وتلفزيون العرب تحتكر حق بث مباريات كأس العالم، هذه الشركة كان بإمكانها أن تركز مثلاً على اهتمام الإسلام بالرياضة ببث ذلك بإخراج يتم إنتاجه بشكل جميل وجذاب

وباللغات الغربية الحية، مثل هذه الفرصة تتكرر كل عام. كما أن هناك برامج شعبية تحظى باهتمام المشاهد الغربي. فالقدرة على إنتاج برامج من هذا النوع وتملك حق الإعلان والرعاية خلالها، كأن يكتب خلال البرنامج أنه يبث تحت رعاية المؤسسة الإسلامية لحقوق الإنسان أو للحريات أو لحقوق الطفل والمرأة وما شابه، كل ذلك مفيد جداً. والاسم هنا افتراضي، لكن الهدف منه هو أن يصل للمشاهد صورة للعلاقة بين الإسلام وحقوق الإنسان أو الحريات العامة.

4. الرموز الفاعلة "الأشخاص" :

للأشخاص العاملين في حقل الإعلام أهمية خاصة. ويجب الاهتمام بهم ومحاولة التأثير عليهم لصالح تأييد القضايا الإسلامية، فتأييد كاتب معروف أو نجم من نجوم الإعلام أمر في غاية الأهمية والتأثير. ويمكن تصنيفهم على النحو التالي :

أ) الكتّاب والصحفيون، وهؤلاء هم الصناع الحقيقيون للرأي العام عبر البرامج التي يعدونها أو يكتبونها ولكلمتهم تأثير السحر بسبب التراكمية والتكرار والقدرة على الوصول إلى المتلقي في أوقات مختلفة تناسب ذوقه واستعداده، ويمكن إعداد برامج لهؤلاء تعتمد على الالتقاء بهم ومحاورتهم واستقطابهم نحو اتخاذ موقف إيجابي من المسلمين وقضاياهم، كدفعه مثلاً للقيام بزيارات ميدانية للاطلاع على الصور الإيجابية في العالم الإسلامي والالتقاء برموز الفكر الإسلامي والتعرف على تفكيرنا ونمط حياتنا وتبديد الأوهام المزروعة في أذهانهم والتي قد يكونوا عبروا عنها بكتاباتهم. ويمكن استقطاب هؤلاء أيضاً بعقود عمل مع محطات إسلامية لشراء بعض مما يكتبون أو يعدون، وسيدفعهم ذلك للبحث والتنقيب عما هو إيجابي لدى العالم الإسلامي.

ب) نجوم السينما والتلفزيون. وتأثير هؤلاء على الجمهور معروف جداً، فيكفي أن يعلن ممثل ناجح أو نجم تلفزيوني رأياً لتجد الكثيرين قد تبنوا موقفه بدون تفكير، ولذا فإن الاهتمام بإيصال هؤلاء لتبني مواقف المسلمين أو الاقتراب منها أو حتى عدم معاداتها، سيوفر الكثير من العناء في سبيل تقديم صورة إيجابية للإسلام والمسلمين، ويكفي أن نذكر تأثير فيلم مثل عمر المختار الذي قام ببطولته الفنان العالمي أنطوني كوين وقيام الرجل بدور المدافع عن الفيلم وعن التاريخ الكفاحي لعمر المختار. وهذا يمكن تكراره مع نجوم ونجمات كثيرين في الغرب عبر إنتاج أفلام أو برامج بمشاركتهم حول الإسلام وقضاياهم.

ج) مقدمو البرامج. وهؤلاء يتحولون تدريجياً، والبارزون منهم خاصة، إلى وجوه مألوفة ينتظرها أفراد الأسرة. والعاملون في برامج الأطفال لهم تأثير كبير على

جمهورهم، وكذا برامج الشباب. وهؤلاء هم ما يهمنا التوجه لهم لبث صورة جديدة إيجابية عن الإسلام والمسلمين في أذهانهم يمكننا مراكمتها بالتكرار ومع مرور الوقت حتى نتمكن من جعلها حقيقة واقعة.

د) المراسلون الصحفيون. وهؤلاء يعيشون الحدث وهم الذين يقومون بتغطية الأحداث واختيار المادة المصورة والتعليق عليها. وهم عادة ما يعيشون بين ظهرانينا أو هم مواطنون من البلد المعني، وبالتالي فإن التأثير عليهم واستمالتهم والاهتمام بما ينقلونه، مهم جداً بسبب مكان إقامتهم أو انتمائهم الديني والذي غالباً ما يكون من المسلمين. ولأهمية دور هؤلاء فإن من المفترض الاهتمام بإعدادهم والانتباه لعضويتهم في الاتحادات الوطنية للصحفيين والتي عليها أن تحاسب على العمل المهني وشرف المهنة وكذا شرف الانتماء للوطن وقضاياه.

هـ) الرموز الوطنية والدينية. وهناك العديد منها ممن تهتم الفضائيات باستضافتهم. وهؤلاء يجب أن نهتم بمن هم وبفكرهم وماذا يقولون وأية صورة يقدمون عن الإسلام، وأن نسعى لإبعاد غير المناسبين، سواء بالاتفاق مع المراسلين المحليين أو بتقديم الاحتجاجات للفضائيات نفسها وتوجيه الأسئلة حول السبب في اختيارهم، بما في ذلك رفع دعاوى قضائية ضد الفضائيات التي تبث أية مادة تسيء للإسلام، حتى ولو قدمت باسم الإسلام. ويمكن أن يتولى الأزهر مثل هذه المهمة، أو هيئة علماء المسلمين، أو الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، أو الإيسيسكو، أو أي من الهيئات الإسلامية المهتمة بهذا الشأن، بما في ذلك اتحاد الإذاعات الإسلامية الرسمية، وبالمقابل يجب استنهاض أولئك المفكرين والإيجابيين منهم خاصة أولئك القادرين على التحدث بلغة الآخر بشكل متميز وواضح وبلغة يقبلها الآخر شكلاً ومضموناً وتساهم في توضيح الصورة الإيجابية للإسلام والمسلمين وقضاياهم.

خاتمة

أخيراً فإن كل الأشكال ممكنة ومتاحة بدءاً من استخدام إعلان صغير في "السي إن إن" مثلاً، وانتهاء باختراق عالم الإنتاج في هوليود، مروراً بإنشاء محطة فضائية بلُغَةٍ ومضمون واهتمامات عالمية، ولكن برأسمال إسلامي وخلفية إسلامية لا تظهر بشكل فاقع. وبدون ذلك فإن الصهيونية ستبقى وحدها صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في عالم الفضاء والقادرة على الاستئثار بعقل المتلقي الغربي، وبالتالي صياغة اتجاهات الرأي العام الغربي والتي حتماً ستوجه ضد كل ما يمت للإسلام بصلة.

قبل أن أنهي ورقتي هذه أشير إلى أن تصريحات البابا كانت تشعل العالم الإسلامي غضباً، وقد أحرقت كنائس وفي فلسطين تحديداً، التي هي الأحوج ما تكون لوحدة أبنائها. وهوجم شخوص بما في ذلك قتل راهبة في الصومال، ورفض البعض التوضيحات التي قدمها البابا حول تصريحاته والتي كال فيها المديح للإسلام داعياً لاعتبار الحدث مقدمة لحوار الأديان. وأرى أن من المفترض أن تكون المناسبة فرصة لا لتبيان إمكانيات الردود العنيفة لدينا، بل لتوضيح قدرتنا على استخدام العقل وإدارة حوار علني، فما حدث جذب الأنظار للحديث عن الإسلام، وهذه فرصة لا تعوض للاستفادة من الاهتمام الإعلامي للسجال الدائر بين الكنيسة وبين المسلمين، خصوصاً وأن هناك بين المسيحيين واليهود من رأى في كلمات البابا توجهاً عنصرياً. إن مظاهر العنف التي أبديناها كانت تؤكد ما قاله البابا وليس العكس، في حين أن الفرصة متاحة لحوار علني يستفيد من الانتباهة الشديدة التي أصابت الرأي العام العالمي حول الموضوع بسبب المكانة التي يحظى بها البابا في العالم الغربي، فالهجوم الزائد والذي يرافقه العنف الفعلي في بعض الأحيان ضد البابا وضد المسيحيين، سوف يزيد من حدة التنافر ويقدم صورة سلبية تكرس الصورة النمطية التي تسعى الصهيونية لرسمها لنا في أذهان الغرب. إن التعلم من التجارب والاستفادة منها واقتناص الفرصة، هي لغة الإعلام في العصر الحديث، من يتقنها ويستخدمها إيجاباً يتمكن من تحقيق أهدافه ورسم صورته كما يريد وكما يجب أن تكون، ومن يغفل عن ذلك يبقي لأعدائه الحق في تكريس الصورة التي يريدونها له، ونحن وللأسف حتى الآن لا زلنا نرزح في ظل ما رسموه وما يرسموه لنا، بل ونكرسه بغباء أحياناً، وبتآمر سخيف أحياناً أخرى.

كيفية استثمار البث الفضائي
في إبراز صورة الإسلام في العالم

د. أحمد عبد الملك(*)

خلال مهرجان الفنون العربية الذي أقيم في الصين في شهر يونيه من هذا العام (2006)، تقدم إلي شاب صيني ـ بينما كنا نلصق بوسترات عن دولة قطر في الجناح المخصص ـ قائلاً : جئت للحصول على صورة النبي محمدﷺ !!. فاجأني الطلب، ابتسمت له ورددت عليه بأنه لا توجد صورة للنبي محمد، فقال لماذا ؟ قلت له : لأنه لم يوجد تصوير أيام النبي، كما أن رسم الأنبياء غير مسموح به في الإسلام !!. ابتسم لي معتذراً بعد أن أخذ البريد الإلكتروني الخاص بي ليراسلني في موضوع الخلاف بين السنة والشيعة في العالم الإسلامي.

أسوق هذه الحكاية الواقعية لأعزز ما جاء في التوجّهات العامة لورقة مديرية الثقافة والاتصال بالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، من أن المجتمعات الغربية تجهل حقيقة الإسلام، وأنه بعد حادثة 11 سبتمبر بدأ المجتمع الغربي يبحث عن الكتب والمصادر التي تتحدث عن الإسلام.

كما اهتمت وسائل الإعلام الأخرى بنقل الأحداث والصور والحكايات التي تخص الإسلام. ونحن هنا لا نستثني أن الشرق أيضاً يجهل حقيقة الإسلام، وما حكاية الشاب الذي تقدم ذكره إلا دليل واضح على ذلك الجهل.

إذن نحن أمام حقيقة محددة ؛ كيف نوصل رسائل تعريفية بحقيقة الإسلام ؟ بعد أن وصلت إلى الإعلام الغربي، والمتلقي الغربي رسائل مشوهة، ربما كان بعض المسلمين والعرب مسؤولين عنها.

هذا ما سوف تتحدث عنه هذه الورقة.

(*) باحث ومفكر من دولة قطر.

أولاً : حالة الإعلام في العالم الإسلامي

ليس خافياً على أحد أن الإعلام صناعة غربية، استوردها المسلمون ضمن احتياجات الدولة، لتعزيز سلطانها وتمكين كراسيها، دون البحث عن الجوانب الأخرى المتعلقة بالتأثر والتأثير، وردود الأفعال تجاه البث، وحق للمواطنين في ذلك الإعلام.

لذلك جاءت الرسالة رأسية ـ من رأس النظام حتى بقية الشعب (القاعدة)، وصار ما تقوله الدولة هو الكلام الفيصل الذي لا يجوز الاعتراض عليه. كما صار من تُعيّنهم الدولة هم موجهي الإعلام وحراس البوابة، وإن كان بعضهم لا يدرك معنى الإعلام.

لذلك برزت رسائل التشويه للحقائق وقلبها، ودبج دهاقنة اللغة العربية الخطابات والبيانات التي كان أكثرها لا يصب في مصلحة المواطن، ولا يلبي طموحاته، وكان الجانب السيكولوجي لهذا الإعلام متوارياً ومهملاً، بل للأسف لم تهتم أكثر وسائل الإعلام الإسلامية بنتائج البحوث العلمية التي حاولت توجيه الإعلام للوجهة الصحيحة، قدر اهتمامها بتلميع صور المسؤولين.

ولقد لمس بعض الباحثين حالات محددة للإعلام العربي تم التحقق منها، وهي :

* الابتذال والنمطية في التسلية، بدرجة تجعلها تحد من الخيال بدلاً من أن تثيره.
* التسطيح والتجويف والإفقار للحياة الثقافية بديلاً عن الإثراء الثقافي.
* تشجيع التقليد والسلبية لدى الجمهور بدلاً من التجديد والمبادرة[1].

ولذلك أسباب معروفة يمكن تلخيصها في الآتي :

1. نشأت وسائل الإعلام الإسلامية، مهنياً وفنياً، نشأة أمريكية أو فرنسية حسب الدولة التي كانت تهيمن على القرار السياسي في البلاد، ولقد أكد "جرمي تنستال" هذه الحقيقة بقوله : «إن معظم وسائل الإعلام المسموعة والمسموعة المرئية في دول العالم الثالث نشأت نشأة أمريكية محضة أو تطورت مقلدة للنمط الأمريكي»[2].

وهذه الحقيقة أكدتها الممارسة الفعلية لوسائل الإعلام في العالم الإسلامي، ذلك أن الأجهزة يتم استيرادها من دول غربية، وكذلك قطع الغيار، بالإضافة إلى البرامج

---

(1) د. سمير محمد حسين : **الإعلام التلفزيوني الخليجي والتنمية الشاملة**، جهاز تلفزيون الخليج، الرياض، 1988، ص 116.

(2) المصدر السابق، ص 114.

خصوصاً برامج التلفزيون، وأخطرها "الكرتون" أو الرسوم المتحركة التي تبث رسائل غاية في الإتقان ضد القيم الإسلامية.

ونظراً لعدم إدراك بعض المسؤولين ـ في العالم الإسلامي ـ لأهمية الصناعة الإعلامية، وجدوا أنفسهم مضطرين لاستيراد مواد هائلة من الغرب والولايات المتحدة لكسب الجمهور، وهم في ذات الوقت لا يدركون أهمية "التغريب" الذي يقومون به، وأن مناهج مدارسهم وجامعاتهم ومساجدهم نهاراً تتناقض مع ما يبثه التلفزيون ليلاً !.

2. كما غابت المهنية عن العديد من مقدمي ومحاوري البرامج، حيث جاءت أغلب البرامج تقليدية وغير جاذبة، ورسائلها مباشرة، دون الالتفات لحقيقة الصورة في التلفزيون.

وإذا كان المجتمع الأمريكي قد "قولب" حياته لتتلاءم مع أوقات التلفزيون وقيمه، فإن علماء الغرب يرون أن أثر المؤسسات التقليدية في تكوين الفرد، وهي الكنيسة والمدرسة والعائلة في الإجمالي، قد وهن وهناً شديداً، فملأت وسائل الإعلام العامة هذا الفراغ. وتشير إحصاءات أمريكية مثلاً، إلى أن ستين في المائة من العائلات الأمريكية بدلت عادات نومها، وأن خمسة وخمسين في المائة منها، غيرت أوقات طعامها بسبب التلفزيون، وانخفض الوقت الذي يصرفه الأمريكي للنوم واللقاءات الاجتماعية خارج المنزل ووسائل اللهو والتسلية الأخرى. والفتى الاعتيادي في أمريكا يتخرج من المدرسة وقد أمضى فيها اثني عشر ألف ساعة، لكن عدد الساعات التي يمضيها أمام الشاشة الصغيرة أكبر[1].

وإذا كان المجتمع الأمريكي قد مرَّ بهذه الظروف قبل عشرين أو خمسة وعشرين عاماً، وهو مجتمع قارئ، فإن المجتمع الإسلامي يمر بمثل تلك الظروف هذه الأيام وهو غير قارئ، إذ أن وضع الإعلام في العالم الإسلامي قد تغير منذ بدء البث الفضائي عام 1990م، وصارت السماء في العالم الإسلامي تستقبل مئات المحطات من مختلف الأقمار الصناعية وبتكاليف زهيدة جداً.

3. غياب السياسات الواضحة ـ لدى أصحاب القرار التنفيذي للإعلام في العالم الإسلامي ـ واعتماد التجربة والمجاراة، دون الركون إلى السياسات المحددة في القرارات الرسمية.

---

(1) فكتور سحاب : **أزمة الإعلام العربي الرسمي، النموذج اللبناني**، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، 1985، ص 11-12.

4. تيقنت دول العالم الثالث، ومنها الدول الإسلامية، من حقيقتين وجهت عبرهما انتقادين لأجهزة الإعلام الغربية ووكالاتها، كالتالي :

ـ «تجري التغطية الإعلامية الغربية للحدث الإخباري في الدول النامية وفق المناهج والتعابير الاستعمارية القديمة، فدول العالم الثالث من خلال الصورة التي ترسمها لها أجهزة الإعلام ووكالات الأنباء الغربية، تبدو وكأنها تعاني دائماً من حالات الفساد الاقتصادي والاجتماعي والكوارث الطبيعية».

ـ «أما الانتقاد الثاني فهو يتعلق بقوة وهيمنة هذه الأجهزة على وسائل الاتصال العالمية الأمر الذي يؤدي لمنع دول العالم الثالث من إسماع صوتها للعالم ـ كما يؤدي لتقوية وترسيخ مفاهيم الثقافة الغربية في العالم الثالث، بل وفي العالم أجمع، مما ينجم عنه بالتالي حالة عدم توازن أو تساوٍ في نسبة عطاء الأمم وإسهامها في الحضارة الإنسانية، ويجعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل على الدول النامية إيصال رسالتها الحضارية للعالم»[1].

وإذا ما كان لدينا تعليق نختلف فيه مع ما ذهب إليه الباحث، وهو أن صورة العالم العربي والإسلامي ليست بتلك (النصاعة)، وأن حالات الفساد الإداري والاقتصادي والاجتماعي ظواهر لم تدعها وسائل الإعلام الغربية، بل وغياب حقوق الإنسان والديمقراطية وسوء استغلال الثروات الطبيعية وعدم تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص، كل تلك شواهد على الأرض ولم تختلقها وسائل الإعلام الغربية، صحيح هنالك خلل في تدفق المعلومات، من الشمال الغني إلى الجنوب الفقير، وهذا موضوع حاولت اليونسكو معالجته منذ السبعينيات عبر لجنة "ماكبرايد" لكنها لم تفلح.

هل نحن أمام نظام إعلامي جديد ؟ وأن البقاء والانتشار للأقدر والأقوى ؟. لقد طبقت الولايات المتحدة مبدأ First arrived first served أي الخدمة لمن يصل أولاً ـ وذلك بعد نجاح الولايات المتحدة في الستينيات في إطلاق الأقمار الصناعية واستغلالها تجارياً منذ عام 1964 عبر طائر الصباح المبكر، أول أقمار انتلسات التجارية.

في المقابل لم تحاول الدول الإسلامية، ومنها الدول العربية، استغلال تكنولوجيا الفضاء بعد إطلاق القمر الصناعي العربي عام 1985 لتوجد التوازنَ المطلوبَ مع البث

---

(1) فوزي العلاف : **دور الخبر في الإعلام العربي**، والوكالة السورية للأنباء (سانا)، قسم الدراسات والبحوث، سوريا 1983، ص 57.

الغربي، بل للأسف، أُهدر وقت الأقمار الصناعية في بث حفلات غنائية ومباريات واستقبالات، والدعاية السياسية، ولقد عانت مراكز الأخبار في البلدان الإسلامية من كمية الأخبار ـ غير القابلة للتداول ـ والتي كانت ترسلها الدول للترويج السياسي.

كما أن الفضائيات العربية التي يزيد عددها على 50 فضائية، لم تحاول تلمس الحاجة إلى ذلك التوازن أو مخاطبة الغرب بِلُغَةٍ يفهمها. وهنالك من المتفائلين الذين يرون إمكانية استثمار التجانس بين النظم الإعلامية الوطنية في دول العالم الثالث لمواجهة النظام الإعلامي الدولي[1].

لكننا لا نشاطر الباحث تفاؤله، وذلك بسبب استحالة وجود نظام محدد ومقنع لدول العالم الثالث، وعدم تحقق تعاون ملموس بين الاتحادات الإعلامية، مثل اتحادات إذاعات الدول العربية، واتحاد إذاعات الدول الآسيوية، واتحاد إذاعات الدول الإسلامية وغيرها.

5. لخصت وثيقة لليونسكو مشكلات الدول النامية في الإعلام كالتالي :

- ندرة الموارد المالية التي تعاني منها الدول النامية بصفة عامة ومرافقها الاتصالية بصفة خاصة.
- نقص الكوادر الفنية المؤهلة في مجالات الاتصال والإعلام العديدة.
- المنافسة الشديدة بين مُوَرّدي المعدات الفنية ووسائل الاتصال الحديثة.
- انخفاض القدرة الإنتاجية للدول النامية في مجال إنتاج معدات وأجهزة الاتصال.
- نقص المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها والمناسبة للمستهلكين المُتَوَقَّعِين في الدول النامية.
- استعداد غير كاف من قبل الدول المتقدمة لمساعدة الدول النامية في تطوير بناها الأساس في مجال الاتصال، حيث لم يحظ هذا المجال بالأولوية المناسبة في ميدان التعاون الدولي»[2].

---

(1) عبد الرحمن إبراهيم لمسري : **البث المباشر التحدي الجديد**، طوابق للخدمات الإعلامية والنشر والتوزيع، 1992، الرياض، ص 121.

(2) د. راسم محمد الجمال : **التدفق الإعلامي من الشمال إلى الجنوب**، الأبعاد والإشكاليات، مجلة (عالم الفكر)، يوليو ـ ديسمبر 1994، ص 155-156، الكويت.

وإذا ما أضفنا إلى كل ذلك تعويل العديد من المحطات على الترفيه كمادة أساس، بل وقيام محطات فضائية، ومحطات (FM) في العالم الإسلامي مخصصة للغناء فقط وفضائيات خاصة بعرض الوجوه والأجساد المغرية، فإن تشاؤمنا يتضاعف بعدم قدرة هذا الإعلام على مواجهة الإعلام الغربي الوافد، وبالتالي صعوبة توجيه رسائل تصحيحية عن ملامح الحياة في هذه الدول وأهمها الإسلام.

ولنستعرض الآن أنماط الرسائل التي توجه من الشاشات في العالم الإسلامي :

(عرض نماذج الرسائل التي تبثها المحطات الإسلامية والرسائل المطلوب إرسالها).

ونلاحظ على الرسائل الإعلامية ـ في العالم الإسلامي ـ ما يلي :

أولاً : ملامح الخطاب الإسلامي الحالي :

* **حديث فوقي :**

حيث يأتمر الحديث بموقف الحكومة ويعبر عنها، ولقد وصل الأمر ـ في بعض الظروف ـ إلى زج الدين أو رأي الدين في مسائل اقتصادية بهدف إضفاء شرعية دينية على بعض المسائل مثل شراء الأسهم. كما أن هذا الحديث يرفض المساءلة أو التساؤل، ويصر على أنه الحديث الأقوم والأفضل.

* **خطاب ديني يرفض الآخر :**

درجت أدبيات الدين الإسلامي، التي هي إنتاج العقل وليست من ثوابت الدين ـ في العديد من الحالات ـ على رفض الآخر. بل والسب والدعاء على غير المسلمين، حتى من المُوَحِّدين وأصحاب الديانات السماوية. وقد خلق ذلك هوة في التفكير، بل واستهجان أصحاب الديانات الأخرى لمنطق بعض العلماء الذين يمارسون العداء علانية فوق المنابر. لربما يختلفون معنا في المواقف السياسية، لكنهم لا يدخلون ذلك الخلاف في الشعائر الدينية.

ولقد كان لبعض الآيات الدينية التي أُسيء تفسيرها دور في شعور بعض العلماء بالزهو أوالمفاخرة والتميز عن الآخر.

* **لغة عربية لا تصل للغرب :**

معروف ـ إعلامياً ـ أن اللغة غير المفهومة لن توصل الرسالة الإعلامية. ولقد درجت وسائل الإعلام الإسلامية على نشر رسائل باللغة العربية ـ التي يجهلها أيضاً

ملايين المسلمين ـ بعكس حملات التنصير التي استخدمت لغة يفهمها الجمهور المستهدف في المستعمرات النائية للدول الكبرى.

لقد ظل علماء الإسلام يوجهون رسائلهم إلى الناطقين بالعربية، وهذا لم يسهم في وصولها إلى الجمهور الغربي، والذي ـ كما تقدم ـ يجهل الكثير عن الإسلام.

يحدث هذا في الوقت الذي تنشط وسائل الإعلام الغربية التي تستخدم لغات عالمية وتنقل رسائل غير واقعية عن حقيقة الإسلام، بل ولا تفرق بين الإسلام وتصرفات بعض المسلمين.

* **فقدان فنون الخطاب :**

للأسف، درج العديد من الخطباء والوعاظ بالظهور على شاشات الفضائيات دونما اعتبار لتقاليد الوسيلة التكنولوجية (جهاز التلفزيون) ومارسوا الصراخ والوعد والوعيد والتهديد عبر الفضائيات.

إن للتلفزيون تقاليد يجب أن يتقنها المتحدثون عبره، ولعل من أهم هذه التقاليد :

- نبرة الصوت الهادئة.
- سلاسة النطق.
- بشاشة الوجه.
- التقليل من تحريك الأيادي وهز الرأس.
- حسن المظهر.
- تسلسل الأفكار وعدم تكرارها.
- توجيه الخطاب لكل الأعمار.
- مراعاة شعور غير المسلمين.

* **حديث مباشر بدون صورة :**

لقد اخترع جهاز التلفزيون لكي ينقل الصورة المتحركة وليست الجامدة. ونحن في العالم الإسلامي حتى اليوم لازلنا نستخدم التلفزيون بأسلوب إذاعي، أي نأتي بالمتحدث دون أن ترافقه صور تكسر حدة جمود الصورة، إذ أن المشاهد يمل الصورة الجامدة، خصوصاً إذا استمرت لأكثر من 30 دقيقة، وكانت تفتقد مهنية الاتصال، فما بالكم لو كانت هيئة المتحدث أيضاً تفتقد فنون الخطاب كما تقدم.

ولم تفلح المؤسسات الإسلامية في إنتاج مواد فيلمية أو (فيديو) يمكن أن تقنع المشاهد الغربي بروح الإسلام الحقيقية، مثل :

- سواسية البشر وعدم التفريق بينهم حسب الجنس أو اللون أو العرق.
- حث الإسلام على التآخي ومعرفة الآخر والتعاون معه.
- إغاثة الملهوف، ونجدة المكروب، والزكاة كخلق وسلوك اجتماعي راق.
- حث الإسلام على الحوار مع الأمم الأخرى، والمجادلة بالتي هي أحسن، وهذا يرد على دعاوى الغرب بهمجية المسلمين وعدم استعدادهم للحوار.
- حسن تربية الأبناء وتأمين البنية الصالحة للسلوك القويم عبر التنشئة الجيدة، والفصل بين الأبناء في المنام، والزواج الشرعي... إلخ.
- إسهامات العلماء المسلمين في الحضارة العالمية، كعلماء الفلك والطب والملاحة... إلخ.

وهنالك مواضيع شتى يمكن أن تتبلور في رسائل متحركة، تحبّب الغربَ في الإسلام، وتساهم في تبديل الصورة النمطية التي رسمت له في وسائل الإعلام الغربية.

ثانياً : ملامح تقبل الرأي العام الغربي :

لا نستطيع الجزم بأنه لا يوجد متطرفون ومنحازون ضد الآخر في العالم الغربي، وأنه لا يوجد معادون للإسلام كفكرة دينية. ولكن مع هذا فإن حديث الإعلام الغربي يرتكز إلى قواعد مهنية ـ حتى في نقل الشعائر الدينية ـ وكما نلاحظ فإن المحطات الغربية التي تبث رسائل تنصيرية تختار لها مؤهلين مُقنِعين للمُشاهِد. ويتحدد تقبل الرأي العام الغربي للخطاب بمدى جودة الرسالة الإعلامية والتي تعتمد على الآتي :

* حديث مؤسساتي :

الحديث الإعلامي الغربي حديث مؤسسات كون الإعلام لا يلتصق كثيراً بالحكومات. كما أن المحطات العالمية (تلفزيون وFM) والجرائد أيضاً) كلها مشاريع أهلية تعول على الربح، ولا يهمها بلورة هذه المحطات. ومنظومة قيم إخبارية وبرامجية حددت الخطاب الإعلامي ـ وفق منظور علمي ـ يأخذ في الاعتبار الحرية وحق الآخرين في المعرفة والوصول إلى الحدث، وهذا ليس إقراراً بسلامة نهج تلك المحطات أو المؤسسات، إذ أن الإثارة تعتبر السلاح الأفضل لديها، وإن طالت تشويه أقليات أو جنسيات محددة.

ولعلنا نستذكر هنا حادثة محاولة اغتيال البابا يوحنا الثاني، حيث تناولت المحطات اسم الجاني وربطته بالعرب والمسلمين فوراً، قبل التأكد من أنه تركي (علي آغا).

* **خطاب انفتاحي يحاور الآخر :**

الإعلام الغربي يبحث عن الجديد، ويرفض النمطية ويؤمن بالرأي الآخر، وهذا انعكاس للروح الديمقراطية التي تسود المجتمع الغربي، لذلك نجد أطقم المحطات تلاحق الأصوات أينما كانت وترسل رسائل على المواد من مواقع الحدث، بينما الرسائل الإعلامية الإسلامية لا زالت تبث مواد إخبارية لا قيمة لها إعلامياً.

* **لغة إنجليزية تجيدها الأغلبية :**

كما تقدم فإن اللغة التي يفهمها أكثر فئات المتلقين لها دور كبير في نشر الرسالة. والإعلام الغربي يعول على اللغة الإنجليزية التي يفهمها الشرق والغرب والشمال والجنوب، ولا يمكن أن نتخيل مشاهداً أمريكياً سوف يدير مؤسسة التلفزيون على محطة إسلامية تبث ندوة دينية باللغة العربية.

* **دقة الخطاب وحرفية التلقي :**

تقدم وسائل الإعلام الغربية رسائلها عبر مهنية راقية، ولا تعتمد المصادفة وتختار المقنعين من المتحدثين، بل وتقيم لهم جلسات تأهيل ليكونوا أكثر إقناعاً للمتلقين، كما أن الجمهور الغربي قد تعود نظراً للخبرة والتراكم، على تقاليد لتلقي الجيد، فهو لا يصدق كل شيء ويناقش ويحاور، ويرسل للجرائد والمحطات انتقاداته لما ما لا يعجبه من الحوارات أو القضايا. لذلك لا تستطيع المحطات أو الجرائد فرض أكاذيبها أو انحيازاتها عليه. بل وقد يلجأ إلى القضاء إن شعر بأن الإعلام يكذب عليه.

الوضع في العالم الإسلامي مختلف جداً.

* **تعويل على الصورة دون مباشرة :**

كون التلفزيون أداة بصرية لا سمعية، فإن الإعلام الغربي يعول على نقل الصورة المتحركة، ويحاول قدر الإمكان تجنب الصورة الجامدة، وكثيراً ما نجح في إقناع مشاهديه بالمساعي التي تبذلها الحملات التنصيرية في إفريقيا وآسيا : وكيف أن تلك الحملات أنقذت ملايين البشر من الجوع والمرض، دن أن تلجأ إلى رجل دين يتحدث عن الموضوع. أي أن الصورة هي وسيلة الإقناع. ونحن في العالم الإسلامي شاركنا في محنة (تسونامي) التي ضربت جنوب شرقي آسيا، ولكننا لم نستثمرها

إعلامياً، بل إن بعض الدول الإسلامية قدمت دعماً للإعصار الذي ضرب ولايات أمريكية قبل عام، ولم نقم باستثمار تلك الإعانات السخية إعلامياً.

إذن فإن الصورة ـ في التلفزيون ـ أكثر إقناعاً من الحديث الجامد، إذا كان من رجل مفوه ومقنع.

وبالمقارنة بين ملامح الخطاب الإسلامي الإعلامي وملامح الإعلام الغربي، نجد أن الحقيقة والتواصل تتحققان في حالة الإعلام الغربي، بينما يظل الصراخ والحديث الواحد يشكلان الصورة الإسلامية دونما رجع صدى، أو تأثير في الجمهور.

ثالثاً : نموذج لخطاب إعلامي إسلامي متوهم

تحاول بعض المحطات العربية الإسلامية بث برامج باللغة الإنجليزية، وذلك شيء جميل وله دور في المسعى نحو تبديل الصورة النمطية ضد الإسلام والمسلمين في الذاكرة الغربية.

كما تقوم محطات أخرى ببث رسائل عربية أو بلغات محلية إسلامية، ولكن دون أن تحدث تماساً بين عقل وقلب المتلقي. ونحن نعلم بأن اقتناع العقل يروض القلب. وهذا نموذج لخطاب إعلامي إسلامي يتوهم القائمون على الشأن الإعلامي بأنه جيد لإيصال الرسالة الإسلامية.

* نحن أمة لا ترفض الآخر، بل تحاوره.
* ديننا يرفض الإرهاب، كما ترفضونه.
* بيننا وبينكم قضايا قابلة للنقاش.
* نحن مع مبادئ حقوق الإنسان والأمم المتحدة.
* يجب على حكوماتنا رفع الحجر على الفكر.
* الحوار وسيلة لإصلاح البشرية.

هذا النموذج يرتجع على المحطة أو على المسلمين، لافتقاده مكونات الخطاب الجيد المقنع، وكونه :

1. مباشراً وغير مدعم بالصور.
2. يأتي ضمن شخص ملامحه غير مريحة، ويبدو متردداً متشنجاً.
3. يفتقد لغة التخاطب مع الجمهور الغربي.

والنتيجة : لا يحدث التواصل بين مخ المتلقي وقلبه، وبالتالي لا تتحقق الرسالة. واللون الأصفر يرمز إلى القطيعة.

رابعاً : نموذج لخطاب إسلامي ناجح

نلاحظ على هذا النموذج ما يلي :

1. استخدامه لغة إنجليزية سهلة ورصينة.
2. بشاشة وجه مقدم الرسالة وحسن هندامه.
3. نفس العبارات التي وردت في النموذج المتوهم.

والنتيجة : حدوث تواصل بين مخ المتلقي وقلبه، وبالتالي نفاذ الرسالة إلى المتلقي، واللون الأحمر يرمز إلى التواصل.

وقبل أن أختم هذه المداخلة أود أن أشير إلى حادثة حصلت في بريطانيا عام 1986م، حيث فاجأني جاري البريطاني في أول يوم أدخل فيه البيت الذي استأجرته قائلاً :

ـ تبدو عربياً !!.

ـ قلت له : نعم...

ـ قال : احذر أن تتعارك مع جارنا الإيراني.

ـ طبعاً قضيت 3 سنوات في ذلك الحي ولم أتعارك أو أشاهد الجار الإيراني، وأصبح جاري البريطاني صديقاً، ويوم عودتي إلى الوطن قرعت بابه كي أوعه، وذكرته بأول حديث قاله لي، فقال معتذراً : إن وسائل الإعلام تعكس صوراً سيئة لكم معشر المسلمين والعرب أرجو أن تعذرني.

هذه الحالة تدل دليلاً واضحاً على (الإسلاموفوبيا) التي نحن بصددها. وطبقاً لما تقدم، فإن الباحث يرى أهمية استنباط برنامج عمل تنفيذي ـ كما طلبت ذلك ورقة عمل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ ويكون كالتالي :

1. قيام المنظمة بإنتاج حلقات عن دور الإسلام في الحضارة العالمية، باللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية وإهداؤها إلى المحطات العالمية.
2. الاتفاق مع محطات عالمية، أو عربية، مثل الجزيرة الدولية ـ الناطقة بالإنجليزية ـ على إنتاج برامج راقية، تبتعد عن النظرة الضيقة للإسلام، وتشرح الخلافات في الرأي مع الغرب، على أن يتم تأهيل المتحدثين في هذه

البرامج تأهيلاً إعلامياً جيداً قبل ظهورهم على الشاشة، ويمكن أن تحصل المنظمة على (ضامنين) Sponsors لمثل هذا البرنامج.

3. تمويل برنامج ـ في إحدى المحطات الغربية ـ BRO أو CNN حول حقيقة الإسلام، ورفض النماذج التي تخوف المجتمع الغربي من صورة المسلم، مع إبراز الصورة الحقيقية لحياة المسلم من حيث التواصل، حفظ الحرمات، التآخي، حقوق المرأة (الزوجة)، وغيرها من القيم الإسلامية. ويتم تصوير البرنامج على الطبيعة، أي داخل البيوت الإسلامية، بحيث يتحدث أهل البيت حديثاً مفهوماً ـ بالإنجليزية ـ عن حقيقة حياتهم، وأنهم بشر كالآخرين، وليسوا نماذج مخيفة أو كائنات تجري وراء المتفجرات وإزهاق أرواح الآخرين.

ولتحقيق ما تقدم، يتطلب الأمر تكوين لجنة علمية، وأخرى إعلامية، لبحث الوسائل التنفيذية للمشاريع الثلاثة الموضحة أعلاه.

دور البث الفضائي في تصحيح صورة الإسلام في الغرب
(الحد من ظاهرة الإسلاموفوبيا)

د. بدر الدين أحمد إبراهيم(*)

توطئة

يحيط بنا اليوم في الأرض إنتاج كثيف تزخر به ساحات العمل الإعلامي. ولقد أصبحت الصحيفة أو الكلمة تمثل أذى شديداً علينا وعلى آمالنا في بعث أمتنا ودفع مشروعنا، وإن تركنا لهذا الإنتاج الكثيف الطافح المتدفق أن يغطي زبدة الحقيقة عن الناس، لنجح وأفلح وتوقف بذلك مشروعنا وتحطمت آمالنا وأشواقنا من أجل الحياة والدين والمجتمع. وإذا نهضنا لذلك ندافعه ونقارعه، فلابد من إنتاج متقن وطرح رصين وجذب حتى نفسح لسفينة مشروعنا الطريق في كثافة الزبد الثقافي لِتَعْبُر وتنفذ، لأن الكلمة الضعيفة لا تجد طريقها إلى الناس والطرح الباهت لا يستحق من الناس وقوفاً ولا سمعاً[1].

أولاً : الإسلاموفوبيا (ماهية المصطلح وأسباب انتشاره)

لم يكن ظاهراً من ناحية موضوعية ومجردة أن الإسلام الذي تعايش مع الغرب اليهودي والمسيحي منذ أكثر من خمسة عشر قرناً، قد أصبح فجأة عدواً خطيراً يهدد كيانه ومصالحه الحيوية، كأن لابد من استغلال آلة الإعلام الغربية العملاقة لتصوير الإسلام كعدو للغرب يمثل تهديداً واقعياً له. ومن هنا برزت ظاهرة الخوف من الإسلام (إسلاموفوبيا) Islamophobia، وجندت الأقلام والصحف والإذاعات والسينما لتصوير أن كل صراع يجري على الحدود الإسلامية الغربية، يمثل حلقة من حلقات الصدام مع الغرب، وأن هذه الحلقات تتكامل وتزداد يوماً بعد يوم حتى يصير الأمر صداماً كاملاً وشاملاً بين الإسلام والغرب في المنظور المستقبلي. وكانت مهمة هانتجتون أن يوحي

(*) عميد كلية الإعلام، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان.

(1) د. حاتم قنديل الطاهر : **الأرواح المسافرة**، مؤسسة الفداء للإنتاج الإعلامي، ط. 1، ديسمبر 1998م، ص 20.

بأن الصراع والصدام بين الحضارة الإسلامية وبين الغرب اليهودي / المسيحي، أمر حتمي، وأن هذه الحتمية تأتي من طبيعة الإسلام الدموية الإرهابية !![1].

(نحن) مقابل (هم)

من (نحن) وكيف ننظر للغرب، ومن (هم) وكيف يرون الإسلام والمسلمين ؟.

سؤال يبحث في العلاقة المتبادلة بين المسلمين والغرب، قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر 2001م. (فنحن) أحفاد ابن الهيثم وجابر بن حيان وغيرهما من علماء المسلمين والعرب الذين شهد لهم الغربيون أنفسهم بأنهم مفتاح الحضارة الغربية كما يقول الأستاذ بروفولت (Briffault) في كتابه صنع الإنسانية (Making Humanity) «إن روجر بيكون درس العلم العربي دراسة عميقة، وأنه لا ينسب له أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوروبا، ولم يكن روجر بيكون في الحقيقة إلا واحداً من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوروبا المسيحية، ولم يكف بيكون عن القول بأن : «معرفة العرب وعلمهم هما الطرق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه». ويقول : «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافاتهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة، إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا، يدين لها بوجوده... إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوروبا نتيجة لروح جديدة في البحث ولطرق جديدة في الاستقصاء... طريقة التجربة والملاحظة أدخلها العرب إلى العلم الأوروبي»[2].

يؤكد ذلك قول الدكتور سارتون Sarton أحد مشاهير العلماء الأمريكيين في تاريخ العلوم بقوله : «لقد كان العرب أعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة : الثامن، والحادي عشر، والثاني عشر الميلادي... ولو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية لتوقف سير المدنية بضعة قرون... فوجود حسن بن الهيثم وجابر بن حيان وأمثالهما كان لازماً وممهداً لظهور جاليليو ونيوتن... ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم ولبدأ جاليليو من حيث بدأ جابر... أي أنه لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية (في القرن الرابع عشر) من النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن الميلادي»[3].

---

(1) ب. زكريا بشير إمام : تقديم كتاب د. عبد الله صالح أبوبكر : **حوار الحضارات (تحليل نقدي لظاهرة الإسلاموفوبيا)**، هيئة الأعمال الفكرية، ط. 1، مارس 2002م، ص 9.

(2) د. عبد الله حسن زروق : **الإسلام والعلم التجريبي، (انتقال العلوم الإسلامية للغرب)**، ص 43.

(3) علي سامي النشار : **مناهج البحث عند مفكري الإسلام**، نشرة ، ص 277.

ولكن الغرب اليوم يرى المسلمين من خلال آلة الإعلام التي ينظّر لها العقائديون وما يضمرونه من عداء للإسلام والمسلمين، ومن خلال كتابات المستشرقين، ومن خلال الصور التي يريدوننا أن نراها. أي من خلال صور الجوع والحروب والاقتتال في فلسطين والعراق وأفغانستان، وحتى أحداث 11 سبتمبر خطّت لمواجهات محتدمة لإلصاق الأصولية والإرهاب بالمسلمين. كما يرى الغرب الإسلام اليوم كذلك من خلال معايشة المسلمين بينهم وهم إزاء ما يثيره الإعلام من مخاوف، آثر أكثرهم العزلة والصمت في غياب المعلومات وضغوطات الاغتراب.

وفي استطلاع أجري بالدنمارك عقب نشر الرسوم المسيئة للرسولﷺ، ذكر (79%) من المبحوثين بأن المسلمين لم يشكلوا أي إضافة إلى المجتمع الدنماركي، كما ذكر (74%) أنه لم يكن من أصدقائهم مسلم[1]. مما يؤكد عزلة المسلمين ومشكلات اندماجهم في المجتمعات الغربية، وبالتالي غياب المعلومة والفهم الصحيح للإسلام والمسلمين عند عامة الغربيين، مما يحتم دوراً جديداً ومهماً للإسلاميين ووسائل إعلامهم لنشر المعرفة والدعوة الإسلامية.

ونحن بالمقابل نرى الغرب كذلك عبر بوابة الإعلام مقرونة مع خلفيات الصراع التاريخي خلال الاستعمار التقليدي السابق، ونتخيل أو نتوهم بأن كل الغربيين أعداء لنا... جملة واحدة... دون أن نفرق بين القادة والعامة وأصحاب المصالح وغيرهم... فالصورة عاتمة على أقل تقدير عند عامة الشعوب، يؤكد ذلك ما نقله (جاك شاهين) وهو أحد المتخصصين الذين درسوا صورة التشويه في الإعلام الأمريكي فيقول: «إنه تعرف منذ عشرين عاماً إلى تاريخ الصورة السائدة في الثقافة الشعبية الأمريكية ودرس ما يزيد على 250 كتاباً هزلياً، ظهر خلال 50 عاماً بدءاً من (دونالد ماك) و(جي سوبرمان)، كما حلل مئات البرامج والرسوم الكاريكاتورية وأفلاماً ورسوماً متحركة يفوق عددها 450 فيلماً، أولها (رقصة فاطمة 1893م وآخرها علاء الدين) الذي قدمته مؤسسة والت ديزني عام 1992م. ويضيف جاك شاهين أن هوليود مدينة السينما الأمريكية قدمت منذ حرب الخليج ما يزيد على 40 فيلماً، غالت معظم هذه الأفلام في تشويه سمعة العرب، إذ عرضت شريطاً لا ينتهي من الصور التي يبدو فيها العرب أشبه بشعوب منقرضة لشدة تخلفهم ويمثلون في الوقت ذاته خطراً رهيباً يهدد الآخرين»[2].

---

(1) تقرير البي بي سي مساء الخميس 2006/10/26م برنامج حديث الساعة حول ظاهرة الإسلاموفوبيا.

(2) د. عبد القادر طاش، **صورة الإسلام في العالم الغربي**، القاهرة، ص 867.

وفي ذلك الإطار عمدت أهداف الدعاية الصهيونية إلى ضرب وتحطيم وتشويه الدين الإسلامي والعمل للقضاء عليه، وتمثلت أهم عناصر هذه الدعاية ضد الإسلام في[1] :

* تشويه صورة المسلمين في الداخل والخارج.
* بث اليأس والشك بين الجماهير المسلمة.
* العمل على تفتيت وحدة الأمة المسلمة والتأكيد على الروابط الطائفية والعرقية والإقليمية.
* التركيز على عداء الإسلام والمسلمين للديانة اليهودية، علماً بأن الحقيقة هي أن المسلمين يعادون الصهيونية كمذهب سياسي عدواني توسعي وليس اليهودية كدين سماوي.
* التشكيك في المواقف الواضحة للدول الإسلامية من القضايا المختلفة.
* التركيز على تخلف المسلمين والربط بين الإسلام والتخلف.

ولكن... من أين جاء مصطلح (الإسلاموفوبيا)، وكيف تعمقت ظاهرة الخوف من الإسلام ؟.

دخل مصطلح الإسلاموفوبيا إلى قاموس السياسة والإعلام المعاصر وتحول إلى مفهوم له معان محددة ـ كما حصل في القرن التاسع عشر مع مصطلح اللاسامية ـ وكانت مؤسسة "رنميدترست" البريطانية أصدرت في هذا الإطار دراسة قيمة في أكتوبر 1998م هي أول استطلاع ميداني تقوم به مؤسسة مستقبلية لبحث ظاهرة الإسلاموفوبيا في بريطانيا التي توجد بها أقلية مسلمة يتزايد عددها بشكل ملحوظ في السنوات الأخيرة، وتتعاظم جملة التخوفات المكتومة في المجتمع والخطاب الأوروبي المعاصر مع تزايد أعداد المهاجرين العرب والمسلمين من الذين استطاعوا تنظيم وجودهم وتأطيره قانونياً بالاستفادة من سيادة القانون والمساواة والحريات في أوروبا[2].

قد يظن البعض بأن أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001م، كانت البداية لوجود مصطلح الإسلاموفوبيا، والصحيح أنها حلقة من حلقات المخطط الذي بدأ قبل ذلك بكثير، ولكنها بلاشك كانت البداية الفعلية لظهور المصطلح إلى العلن وعلى كل

---

(1) د. ماجي الحلواني : **القمر الصناعي الإسلامي**، 1987م، ص 5.

(2) د. عبد الله صالح : **حوار الحضارات**، هيئة الأعمال الفكرية، السودان، الخرطوم، ط. 1، مارس 2002م، ص 79.

الأوساط مستخدماً آلة الإعلام الغربي... للترويج والدعاية، وقد أصبح المصطلح نفسه "الإسلاموفوبيا" ليس هدفاً في ذاته، وإنما بوابة للولوج عبرها إلى تحقيق أهداف استعمارية وعقائدية توسعية، وبشكل جيد.

العولمة وصراع الحضارات

يتفق كثير من علماء الاتصال على أن القرن الحالي ـ الألفية الثالثة ـ سيكون قرن الاتصال والمعلوماتية، أي أن المعلومة فيه ستصبح سلاحاً ماضياً في يد من يمتلك مصدرها وتكنولوجياتها ويحسن توظيفها، بل إن الأمية الحقيقية ـ في عالم اليوم ـ لم تعد أمية من لا يحسن القراءة والكتابة، إذ أصبح الأمي هو الذي لا يحسن استخدام الحاسوب والأنترنيت وأجهزة الاتصال الحديثة. وعندما تتجدد المفاهيم والرؤى والعلاقات التي ينشئها الفرد مع الآخرين، يتجاوز بها إطار العلاقات السائدة مع العائلة أو القبيلة أو حتى الدولة التي ينتمي إليها.

فالاتصال بهذا يعني توفر إمكانيات الحياة والعيش معهم بتفاهم وانسجام، ومشاركتهم الأفكار والآمال، والإخفاق في الاتصال يعني القهر والقلق والكبت والانعزال والانفصال عن الآخرين والابتعاد عن عوالمهم ودنياهم النابضة بالحياة[1].

فالعولمة أو الكوكبة ترمي إلى تشكيل مجتمع يتجاوز المحلية ويقوم على أسس جديدة للهوية لا تمت بصلة للأسس القديمة القائمة على العرف أو اللغة أو الدين أو الوطن، وإنما على أساس رابطة الانتماء للشبكة الإلكترونية فيما يعرف بمواطن الأنترنيت مثلاً.

يعتبر إفلاس الاتحاد السوفياتي أيديولوجياً وسياسياً واقتصادياً وانهيار حائط برلين في العقدين الأخيرين من الألفية الماضية، من أهم الأحداث التاريخية التي استرعت انتباه النخب الفاعلة في القطاعات السياسية والاقتصادية والأكاديمية في العالم المعاصر، لأن هذه الأحداث المهمة، كانت بمثابة إعلان صريح لنهاية الحرب الباردة التي ظلت رحاها تدور بين أقطار حلف شمال الأطلسي وحلف وارسو، وبداية لما يعرف بالنظام العالمي الجديد، الذي أعلن شرعيته الدولية الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش (84-1992م).

---

(1) د. عصام سليمان موسى : **المدخل للاتصال الجماهيري**، الأردن، مكتبة الكناني، إربد، ط. 1، 1986م، ص 21.

وبعد ذلك تحدث فيلي كلاوس السكرتير العام الأسبق لحلف الأطلسي عشية انهيار الاتحاد السوفياتي (عن الإسلام الراديكالي) والأصولية الإسلامية التي أصبحت في موقع الخطر البديل بعد زوال القلعة الكبرى الحاوية والحامية للخطر الأحمر[1]. أما الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون فمن رأيه «أن العالم الإسلامي متقلب وغير مستقر، ولكنه من الأهمية بمكان. إن قوى الرجعية والتقدم والأصولية تتصارع فيه لكي تحظى بتأييد الشعوب التي يبلغ تعدادها 850 مليون نسمة». ثم يتساءل «هل سيتبع العالم الإسلامي نموذج تركيا في انحيازها نحو الغرب والتحضر ؟ أم نموذج العراق ؟ أم يتبع نموذج إيران ؟». ويوصي نيكسون وهو الواثق من موقع أمريكا كأكبر قوة في العالم الحاضر : اقتصادياً ومعلوماتياً ومالياً لأنها تقف على قمة إمكاناتها الجيوبوليتيكية، وإذا لم تكن قوة في العالم فإن ذلك سيكون بإرادتها وليس رغماً عنها ـ يوصي بانتهاز الفرصة السانحة لقيادة العالم، لأنها تحدث لأول مرة في التاريخ أن تنفرد دولة بموقع القوة العظمى التي ـ حسبما يرى ـ لا تمتلك تطلعات امبريالية أو استعمارية تجاه الأخرى ![2].

ففي ضوء هذه التحولات الدرامية ظهرت مجموعة من الدراسات الأكاديمية التي حاولت أن تعطي قراءات مستقبلية فاحصة للمنطلقات الأيديولوجية للنظام العالمي الجديد، وماهية الوظيفة وطبيعة التحديات التي تواجهه على الصعيدين الإقليمي والعالمي، ومن أهم الدراسات التي جذبت انتباه الرأي العام الحاكم والمحكوم في هذا الشأن دراسة المنظر الأمريكي (فرانسيس فوكوياما) الموسومة بـ (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) والذي صدرت الطبعة الأولى منها عام 1992م[3].

أما أطروحة "صراع الحضارات"، فقد ظهرت في بادئ أمرها للباحث والمُنَظِّر الأمريكي (صموئيل هنتنغتون Huntingon) ضمن سلسلة من الأبحاث التي قدمت لمعهد جون أو لن للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفارد، وذلك في إطار برنامجه الموسوم بـ "متغيرات البيئة المُنْيَة والمصالح القومية الأمريكية". ثم نشر هذا البحث لاحقاً في مجلة الشؤون الخارجية عام 1993، وأخيراً اكتملت معالمه واتضحت قسماته الأكاديمية في شكل كتاب يتكون من 36 صفحة من الحجم المتوسط نشرت طبعته الأولى عام

---

(1) حمادة البمبي : **جولة مع التلفزيون**، الهيئة العامة للكتاب، 1975م، ص 123، القاهرة.

(2) د. عبد الله صالح : **حوار الحضارات** (مرجع سابق)، ص 57.

(3) د. أحمد إبراهيم أبوشوك : **العولمة بين أطروحتي نهاية التاريخ وصراع الحضارات**، مجلة تَفَكُّر، مجلد 5، عدد 1، 2003م، معهد إسلام المعرفة بجامعة الجزيرة، السودان، ص 106.

1996م. ويعتبر موضوع الكتاب في حد ذاته، من أكثر الموضوعات التي أثارت الرأي العام المهتم بقضايا العلاقات الدولية والاستراتيجية المعاصرة، لأنه استند إلى فرضية مفادها أن المصدر الرئيس للصراعات في عالم ما بعد الحرب الباردة، لن يكون إيديولوجياً أو اقتصادياً، بل سيتمركز حول الخطوة المتوترة الفاصلة بين حضارات العالم الرئيسة. وأن الاختلافات بين هذه الحضارات، حسب رؤيته التشاؤمية، هي اختلافات متجذرة في التاريخ واللغة والثقافة والدين. ويرى أن الصدام في مستواه الدولي سيكون بين الحضارة الغربية وتحالف الحضارتين الإسلامية والكنفوشيوسية (الصينية) الذي يشكل خطراً على الكاتب حضارة فريدة ولكنها ليست عالمية[1].

إذن فالإسلاموفوبيا نظر لها على مستوى العسكريين والسياسيين والباحثين الأكاديميين، ثم ترجمت عبر وسائل الإعلام وآلياته المختلفة لتأخذ بُعدها الشعبي.

ثانياً : البث الفضائي (أهدافه وأساليبه)

إمكانية الاتصال عن بعد ـ والتي بدأت بمحاولة الكسندر جراهام بل الشهيرة عبر إشارته التيليفونية إلى مساعدة وطسون عام 1876م «وطسون تعال إلي إنني أحتاج إليك»[2]، قد بلغت مداها في عصر التلفزيون الفضائى عبر الأقمار الصناعية اليوم.

يرجع الفضل في اختراع التلفزيون إلى العالم البريطاني الأسكتلندي (جون لوجي بيرد) John Logy Bird الذي تمكن من إخراج فكرة التلفزيون من حيز النظريات إلى التجربة الحية : (حيث استطاع في فبراير 1924م من نقل صورة باهتة لصليب صغير عن طريق أجهزته التجريبية إلى شاشة صغيرة على مساحة ثلاثة أمتار ـ لاحظ الدور العقدي الذي أراده المكتشف الجديد ورسالته المستقبلية في خدمة المسيحية ـ وبعدها كرس بيرد حياته من أجل تطوير هذه التجربة ليصل بعدها إلى الإرسال والاستقبال التلفزيوني[3]، حيث قدم بيرد أول عرض للتلفزيون في 27 يونيو 1926م[4]. ثم توالت التطويرات التلفزيونية كما يراها الدكتور ناصر بن سليمان العمر كالآتي :

1927 بدأ الإرسال التجريبي.

---

(1) د. بدر الدين أحمد إبراهيم : ورقة حول (**الغزو الثقافي الفكري وأثره على الأسرة**)، جامعة أم درمان الإسلامية، معهد دراسات الأسرة، 2005م، ص 7-8.

(2) محمد بهي الدين عرجون : **الفضاء الخارجي واستخداماته السلمية**، ص 321.

(3) حمادة البمبي : **جولة مع التلفزيون**، الهيئة العامة للكتاب، 1975م، ص 123، القاهرة.

(4) محسن محمد : **الإنسان حيوان تلفزيوني**، مطابع الأهرام، القاهرة، بدون تاريخ، ص 365.

1951 بدأ إرسال التلفزيون الملون.

1968 بدأ إنتاج مسجلات الفيديو (إمكانية تسجيل المادة).

1975 اخترعت شاشة التلفزيون المسطحة.

1979 بدأ عرض التلفزيون ثلاثي الأبعاد.

1989 بدأ البث التلفزيوني المباشر.

فالبث المباشر هو نتاج تطور طبيعي لمحاولات الإنسان لغزو الفضاء والتي بدأت عندما استيقظ العالم في 4 أكتوبر 1957م على مفاجأة غيَرت كل الحسابات وأولها حسابات الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت هذه المفاجأة في صورة كرة صغيرة من الألمونيوم تدور حول الأرض مطلقة صيحتها المشهورة والمفهومة بكل اللغات : بيب بيب بيب. كان هذا هو سبوتنيك، أول تابع فضائي لكوكب الأرض يصنعه الإنسان، أو أول قمر صناعي. وكان سوفيتياً.

أما أول تجربة للاتصال عبر الأقمار الصناعية، فكانت تجربة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية عبر مشروع أسكور (Score) الذي أطلق في 18 ديسمبر 1958م ليدور حول الأرض بفعالية لمدة ثلاثة عشر يوماً تنتهي بعدها بطارياته[1]. وهكذا تتابع دخول الدول إلى عصر الفضاء كالآتي :

- الاتحاد السوفيتي في 14 أكتوبر 1957م.
- الولايات المتحدة في 31 يناير 1958م.
- فرنسا في 26 نوفمبر 1965م.
- اليابان في 11 فبراير 1970م.
- الصين في 24 أبريل 1970م.
- بريطانيا في 28 سبتمبر 1971م.
- الهند في 18 يوليو 1980م.
- إسرائيل في 19 سبتمبر 1988م.

تأكد البث الفضائي بثورة المفكر الإنجليزي آرثر كلارك Arther Clark عندما بحث العلاقة الضمنية بين الزمن والسرعة والارتفاع، وثبت علمياً بأنّ (القمر في المدار

---

(1) www.programfiles/>99 encyclopedia, Britannca CD, article Ril.>satellite communication, p.99/11/09.

الدائري على ارتفاع 22,300 ميل 35,880 كلم، يستغرق بالضبط 24 ساعة. الزمن الذي تأخذه الأرض في دورانها مرة واحدة حول محورها ويسمى المدار في هذه الحالة بالمدار المتزامن، وعندها يصبح المدار الثابت. لأن المدار عنده يكون ثابتاً فوق نقطة واحدة على سطح الأرض[1]. وقد أطلقت الولايات المتحدة الأمريكية أول قمر للمدار المتزامن في عام 1962م، وهو القمر سنكوم ليفتح الطريق أمام منظمة أقمار الاتصالات العالمية التي نجحت في إطلاق أقمار انتلسات المتزامنة التي أدت إلى خفض التكاليف للاتصالات عبر المحيط[2].

البث المباشر

يعرّف البث المباشر عبر الأقمار الصناعية بأنه : «ذلك الاتصال الذي يتم بصفة آنية من محطة الإرسال مباشرة إلى الجهاز التلفزيوني الفردي دون وسيط ...». ويقصد بالبث المباشر الإستلام المباشر من القمر الصناعي إلى جهاز الاستقبال في المنزل أو عبر الكابل المرتبط باستقبال وتوزيع ترددات القمر.

ففي البلاد العربية، ظهر القلق لأوَل مرة مع اشعاعات القناة الثانية في التلفزيون الفرنسي التي استقبلتها تونس في عام 1989م لمدة عشرين ساعة، وفي أثناء حرب الخليج وما بعدها، أصبح البث المباشر أمراً واقعاً. عندئذٍ بدأت الصيحات تعلو (ويل للعرب من شر قد اقترب). والمثير أن البعض قد اعتبر البث المباشر مرضاً وبائياً كالكوليرا والجدري وغيرهما[3].

لقد أصبح البث المباشر لازمة من لوازم عصر المعلومات والاتصال الحديث. وعندها تعددت أشكال الاختلال الإعلامي بين دول الشمال (الغنية) ودول الجنوب (النامية) وقد تمثلت أهم أشكال الاختلال في :

- عدم المساواة في الموارد المعلوماتية.
- هيمنة الدول الغنية والرغبة الفعلية في السيطرة.
- نقص في المعلومات عن البلدان النامية.

---

(1) Columbia electronic encyclopedia 99/11/2

(2) المرجع نفسه.

(3) د. بدر الدين أحمد إبراهيم : **ثورة المعلومات : الواقع وآفاق المستقبل**، المركز القومي للإنتاج الإعلامي، السودان، 2005م، ص 56.

ـ بقاء الحقبة الاستعمارية بشكل جديد.

ـ تأثير منظَر في الميادين كافة.

ـ رسائل لا تناسب المناطق التي تنشر فيها.

لقد استطاع إعلام العولمة والبث المباشر أن يحرر إرادة بعض الشعوب من قيودها وتقاليدها الثقافية والسياسية، وذلك عن طريق إبرازه لمحاسن النموذج الغربي باعتباره نموذجاً عصرياً يقوم على حرية الاختيار الشخصي والنزعة الفردية ويمكّن للمتعة البشرية والترفيه والانفاق في إطار يتجاوب مع حاجة الرأسمالية الخاصة بزيادة الاستهلاك من جهة وتطبيق قيم المجتمع الرأسمالي من جهة اخرى. ويذكر الأستاذ عادل حسين الصحفي المصري الراحل «بأن الإعلام الغربي يروّج لنمط الحياة في الغرب باعتباره الأمثل بكل ما يشمله من أنماط استهلاكية نعجز عن انتاج مثلها إلا باستخدام التكنولوجيا التي يركبها هو .. والإعلام الغربي في حثه لنا على ذلك، يؤكد دائماً على خيبتنا ويرسخ إحساسنا بالدونية وبعجزنا عن أن نبادر أو ننافسه. إن من واجبنا أن نتبعه دائماً إذا أردنا أن نكون تقدميين أو من أهل العصر الحديث !!!»[1].

أهداف البث المباشر وأساليبه

ولما لم يكن البث الفضائي المباشر مجرد تطور زماني أو تقاني فقط ، كان وراءه أهداف ورسائل لمن يحسن توظيفه (في إطار الشكل والمحتوي) معاً ، ومن أهدافه التي نستخلصها من مجمل متابعاتنا :

1. تسطيح العقل المسلم (الخواء الفكري) وإبراز بدائل للمعرفة بديلة للتعليم النظامي والإطلاع المعرفي التقليدي، فظهرت كثافة في المعلومات ولكنها سطحية في معظمها.
2. تغيير المفاهيم والرؤى باسم الحرية والحضارة والتقدم.
3. تغيير السلوك (الثقافي/اللغوي/نمط الحياة).
4. تنميط الشخصيات (اللاهُوية).
5. الاستلاب الكلي والتبعية المطلقة للغرب.
6. اعتماد الوكلاء المحليين للقيام بالدورالبديل.

---

(1) عادل حسين : **النظام الإعلامي الجديد**، ورقة قدمت إلى مؤتمر حول الإعلام عقد في الخرطوم في أغسطس 1998م.

7. تفكيك الأسرة المُحافِظَة وضرب أركانها التقليدية لصالح الأسرة البديلة.

8. التأثير في مناهج التعليم التقليدية بإيجاد البدائل المؤثرة والجاذبة.

ولتحقيق تلك الأهداف، اتبع البث المباشر عدداً من الأساليب، أهمها :

- أسلوب الإغراق (كثافة الإنتاج والحصار اللحظي مع جودة وجاذبية المنتج).
- أسلوب التشكيك وزعزعة الاقتناعات (بغرض هز الاقتناعات والعزلة والانزواء وصرف النظر نحو القضايا الثانوية).
- أسلوب الاستفزاز والاحتقار (كثيراً ما يبرز الغرب بصورة مباشرة وغير مباشرة تحديه للعرب والمسلمين تجاه بعض القضايا المثارة ، ويسعى ليثبت أنه صاحب الحل الأمثل).
- أسلوب الاستقطاب والتبعية (إبراز النموذج الغربي بأنه النموذج الذي يجب أن يتبع لبلوغ مراحل الرفاهية والسعادة).
- أسلوب العزف على المكبوت (السياسي) باسم الحرية والديمقراطية والمكبوت الجنسي باسم الحرية الشخصية لإمالة الناس.
- أسلوب لغة الصور لإثارة الكوامن وطرح البدائل المشوقة، وتجاوز مشكلات اللغة والخطاب المباشر معتمداً على خصائص الصورة في أنها تخاطب الجميع وتحدث التأثيرات أكثر مما تحدثه الطرائق الأخرى. ولعل النموذج المسيء لعرض الرسوم والصور الكاريكاتورية النموذج المسيئة للرسولﷺ جاءت أكثر استفزازاً من أي أحاديث أخرى.

ويلخص الدكتور هادي الهيتي جملة من التأثيرات المحتملة في الوطن العربي جراء ما تعرضه القنوات الفضائية الوافدة، في الآتي :

1. التحدي الفكري.
2. إثارة التفتح السمج (...تمني ما يراه عند الآخرين...).
3. إثارة التطلعات ... (إثارة تطلعات كثيرة غير مخطط لها في الوطن العربي...).
4. تغيرات في الثقافة وأشكال انتظامها، ومن المحتمل أن تظهر الصراعات في كثير من الجوانب كالفنون والأدب واللغة وأحاديث الناس وأزيائهم ومأكولاتهم...).
5. زخم المعلومات والأخبار ... (القنوات الوافدة تشيع صوراً عن العالم وأحداثه ووقائعه، مع أنها تبدو للجمهور صوراً واقعية، إلا أنها في حقيقة أمرها وليدة ما يقرره المراسلون والمحررون والمصورون وغيرهم من حراس البوابات).

6. حصول تبدلات في السلوك الاستهلاكي (الإعلانات وكثير من البرامج الأخرى تدعو لذلك).
7. تنمية الانبهار بالغرب.
8. الانشغال عن رسائل الاتصال الوطنية.
9. الإنصراف عن الواقع وتقليل فرص الحوار وتبادل الآراء في نطاق الأسرة.
10. إثارة الشكوك السياسية.

نموذج

لقد استغل الغرب المرأة في الوصول إلى أهدافه ومراميه، واستخدامها كسلعة لأساليبه في الترويج لأفكاره وأطروحاته، متخفياً وراء المفاهيم كالجندر والمساواة حيناً، وبصراحة الطرح وجرأته أحياناً. ففي دراسات عديدة ثبت أن القبل والحب والمغازلة والإثارة الجنسية يتعلمها المراهقون والمراهقات من خلال السينما والتلفاز، ولقد كان لظهور المرأة بصورة فاتنة ومغرية، آثار ضارة على سلوك الأمة، حيث نشأ جيل لا يرى الأنثى إلا من خلال صورتها الفاتنة والمثيرة، فمثلاً : جاء تحليل في رسالة للماجستير بعنوان (صورة المرأة في الإعلان التلفزيوني) في إحدى الدول العربية اعتمد فيها الباحث على[1] :

- تحليل مضمون 356 إعلاناً تلفزيونياً بلغ إجمالي تكرارها (3409) مرة خلال 90 يوماً.
- استخدمت صورة المرأة وصوتها في (300) إعلان من (356) كررت قرابة (3000) مرة في 90 يوماً.
- 42% من الإعلانات ظهرت فيها المرأة لا تخص المرأة.
- من النساء اللائي خرجن في الدعاية من 15 إلى 20 سنة فقط.
- 76% من الإعلانات اعتمدت على مواصفات خاصة في المرأة كالجمال والجاذبية.
- 51% على حركة جسد المرأة.
- 12,5% من هذه الإعلانات استخدمت فيها ألفاظ جنسية.

---

(1) د. ناصر بن سليمان العمر : **البث الفضائي**، مرجع سابق، ص 72.

وفي تناولها لظاهرة الإسلاموفوبيا، عبر برنامج (حديث الساعة) أوردت الـ BBC مساء يوم الخميس 2006/1/26م، عدداً من آراء المستمعين من مختلف الدول، وقد تركزت إجاباتهم حول وجود الظاهرة وأسبابها، في :

1. عدم اندماج المسلمين في المجتمعات الغربية وانعزالهم النسبي في إطار علاقات مع بعضهم بعضاً.
2. بعض المسلمين ينظرون للإسلام كثقافة.
3. هنالك خلط كبير في المفاهيم بين تعاليم الدين وتقاليد المجتمعات المختلفة.
4. ضعف المرجعيات الدينية في الغرب وتخلف فقههم عن الواقع الغربي، فكثير من الأئمة في المساجد أوجدتهم ظروف وجودهم هنالك وليس مقدرتهم الفقهية أو الدينية.
5. وجود الأصوليين المتزمتين في مختلف الديانات يجعل الاحتكاك والنشاط أمراً لازماً وسريع الحدوث.
6. إثارة القضايا الفرعية والهامشية تصرف الجهود إلى اللاشيء وتترك القضايا المصيرية دون حلول.
7. التشعب الديني والتحزب الطائفي وتعنصر كل طائفة إلى طائفتها (كل حزب بما لديهم فرحون).
8. وضع قضايا العالم الإسلامي في بؤرة الأحداث، وإثارة تناقضات في الرؤى والحلول مثل قضايا أفغانستان والعراق وقضية فلسطين وغيرها.
9. التركيز في طرح المسلمين على ما يفرق لا ما يوحد ، وإبراز دور أوضاع المسلمين لا الإسلام ومرتكزاته.
10. جهل عامة الغربيين بالإسلام وضعف وسائل وحجج المسلمين وأساليبهم في الإقناع.
11. الإنطلاق دائماً من موقف الدفاع وردود الأفعال يحجب كثيراً من الحقائق ويقلل قوة الطرح والمبادرة.
12. سيطرة أصحاب الديانات الأخرى على أجهزة الإعلام وتوظيفها كلما سنحت الفرصة (كحديث البابا عن الإسلام في ألمانيا).
13. تخلف مناهج الطرح ووسائلها لدى المسلمين في مقابل توظيف الغرب لأحدث التقانات وآخر فنون الإبداع وتنوع الأساليب في طرحهم.

14. ضعف آليات الطرح الإعلامي ومشكلات اللغة ، كثيراً ما يقف حجر عثرة في طريق الدعوة الإسلامية.

ثالثاً : واقعنا الآني ورؤى المستقبل

كما يقول الأستاذ محمد عبد الله السمان[1] : «أعتقد أننا متفقون جميعاً، أن العالم الإسلامي اليوم أحوج ما يكون إلى مؤسسات الإعلام، تقوم على أسس إسلامية تدعم العقيدة وتوفر الثقافة الرفيعة، والترويح البريء... ليس هذا فحسب... بل ما لا يقل أهمية عنه هو أن تتصدى هذه المؤسسات الإعلامية للتحديات العنيفة التي يواجهها الإسلام اليوم : عقيدة ونظاماً ومنهاجاً.... هذه التحديات تضع قراراتها وتصوغ أساليبها وتشرف على تنفيذها، وتمول مشروعاتها الشيوعية الملحدة والصليبية الدولية والصهيونية العالمية، بل والبوذية والهندوكية وعملاء هذه الروافد البغيضة ممن ينتمون إلى الإسلام بحكم شهادات المواليد...ليس إلا»[2].

فالمشروع الفضائي العربي اليوم قد قام على عودة المهاجرين من الغرب ، إذ جلبوا معهم التكنولوجيا ومعها كثيراً من الأفكار والثقافات ، فكثيراً من القنوات الفضائية تهدم المشروع الثقافي العربي... أكثر مما تبني، رغم اجتهادات كثيرين في محاولات الإنقاذ والتصدي للهجمات الخارجية والسعي الدؤوب لوضع المعالجات التي تصحح الصورة وتدعم الإيجابي منها. ويذكر فرانك مرمييه في كتابه ״**الفضاء العربي**״ : «لقد شهدت السبعينات والثمانينات هجرة كثيفة للمثقفين والإعلاميين باتجاه العواصم الأوربية، ليشكلوا صحافة مهاجرة تتجنب الرقابة والقيود المفروضة في الدول العربية، وكانت هذه المنظومة أساساً لعروبة جديدة قامت عليها لاحقاً قواعد المشروع التلفزيوني الفضائي».

يؤكد ذلك التقرير الذي أعدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وصدر مطبوعاً تحت عنوان : ״**الإعلام العربي حاضراً ومستقبلاً : نحو نظام عربي جديد للإعلام والاتصال**״ فقد ورد فيه ما يلي : «تتوفر قنوات المعلومات في الوطن العربي بشكل مبعثر وغير مخطط، بل إنّ بعضها يقوم بوظيفته بشكل مثالي، وبعضها الآخر لا يعرف دوره تماماً، وتنمو أو تتوقف هذه القنوات حيث مواقف الدول العربية والعوامل

(1) BBC حديث الساعة مساء يوم 2006/10/26م.

(2) محمد عبد الله السمان : الإعلام الإسلامي، العلاقات الإنسانية، من أبحاث اللقاء الثالث للندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، 1976/10/6م، ط 3، ص 415.

المؤثرة فيها من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وحتى الآن لم يتم التنسيق بين أي من هذه القنوات بشكل مخطط ومدروس على المستوى العربي. وفي الخلاصة نلاحظ أن التقنيات المستعملة لدى البلدان العربية هي من أحدث ما هو متوفر في أسواق الدول الصناعية، والعرب من أكثر المستهلكين لها في العالم، حتى غدت بعض المحطات الإذاعية والتلفزيونية العربية معارض لأحدث وأضخم ما هو متوفر في العالم»[1].

وفي حواره عبر صحيفة "**الشرق الأوسط**" برزت العناوين التالية للدكتور عبد القادر طاش[2] :

* الفضائيات العربية بلا دين ... والبرامج الدينية 4 % من مساحة البث.
* هنالك طفرة فضائية لم يرافقها اهتمام نوعي.
* الفضائيات العربية بلا أولويات أو رؤى أو أهداف.
* المشاهد العربي يميل بشكل أكبر لمشاهدة القنوات الأجنبية.
* يوجد نوع من فقدان المصداقية في الإعلام العربي.
* الفضائيات العربية نشرت السطحية الفكرية والتفلت.
* هنالك نوع من الإجتراء على اللغة العربية بنشر العامية.

ويؤكد واقع انتشار القنوات العربية بعد ذلك على أن المشكلة لم تكن في التمويل غالباً، وإنما في استمرارية التمويل البرامجي وفي التنسيق ووحدة الهدف ... ورغم ذلك، لنستعرض إجمالاً ماذا قدمت هذه القنوات :

1. **القنوات الحكومية :** مجتهدة في تقديم صورة الحفاظ على الثقافات والعلاقات والتراث القومي والمحلي، ولذلك جاءت هذه القنوات في معظمها تقليدية في الطرح وقيود الواقع الحقيقي والمتوهم من بعض العاملين، والنتيجة أن تجاوزها الواقع وهجرها حتى مواطنوها إلا نادراً.

---

(1) د. عصام سليمان موسي : (**عن تقرير اللجنة العربية لدراسة قضايا اللإعلام والاتصال في الوطن العربي**)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مجلة (المستقبل العربي)، العدد 1996/3/2005م، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص 125.

(2) فرانك مرمييه : **الفضاء العربي، الفضائيات والإنترنت والإعلان والنشر**، فرانك مرمييه، ترجمة فردريك معتوق، دار قدمس، دمشق، ط 1، 2003م.

2. **قنوات خاصة** : انطلقت بكثافة وبلا حدود ولا قيود لمعظمها، فبعضها تجاوز كل الخطوط الحمراء في الشكل والمضمون (المحتوى) والأسلوب، فأصبحت بعضها بدائل لثقافات الآخرين بقصد أو بغير قصد.

3. تراوحت بعض القنوات بين وضوح الهدف وتوفرالمال، ولكن قصرت دون ذلك مهنياً، وتدريب الفريق العامل، فجاء المضمون والمحتوى قمة في الروعة والالتزام، ولكن الشكل والأسلوب لم يستفدا ويوظفا تقنيات العصر الحديث.

ويمكن القول بأنَ الجميع على الأقل حتى الآن لم يفلحوا في تقديم نموذج القناة الإسلامية أو العربية المتفق على ثوابتها في الحد الأدنى. قناة تأخذ بتقانة وأسلوب ومهنية الأداء في الشكل البرامجي الجاذب في إطار الدعوة الإسلامية وطرح الإسلام ديناً للإنسانية جمعاء. قناة يكون هدفها التعريف برسالة الإسلام وتستنطق بها من آمن بالإسلام من أهل الغرب أنفسهم، رسالة سمتها إيجابية وعلمية ومنطقية الطرح، وليس ردَّ فعل بتصرفات أصحاب العقائد الفاسدة أو استجابة للإستفزازات المقصودة، قناة شعارها "دعاة لا قضاة".

وقد بَيَّن الدكتور مصطفى المصمودي خطوات قيام نظام عربي جديد للإعلام والاتصال، نظام يدخل مرحلة التنفيذ وحيز الواقع لتحقيق بعض الأدوار التي يلخصها في[1] :

- رسم استراتيجية عمل إعلامي متكامل غايته :
  * توضيح الاختيارات الإعلامية في داخل الوطن العربي وخارجه.
  * الوصول إلى سوق أخبار عربية مشتركة لتوسيع تدفق الإعلام العربي.
  * تخليص الإعلام العربي من ضغوط التقلبات السياسية والظروف العابرة.
- وضع خطط لحمل مؤسسات التمويل العربية على المساهمة في تطوير قطاع الاتصالات من خلال مشاريع استثمارية تؤدي إلى :
  * توطين التقنية الحديثة في الوطن العربي.
  * الحث على الاستثمار المشترك.
  * استخدام السوق العربية كعامل في التطوير لقدرة التقنية الإعلامية العربية.

---

(1) د. مصطفي المصمودي : (**النظام الإعلامي الجديد**)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1985، ص 318-329.

* تدعيم التعاون بين مؤسسات التكوين والتدريب الإعلامي وتوحيد مناهج التعليم وأساليبه.

وفي إطار رؤيته لها بكل جديد، يرى :

1. إنشاء مؤسسات عربية متخصصة للإنتاج الإعلامي.
2. إنشاء قناة تلفزيونية عربية مشتركة.
3. إحداث وكالة أنباء عربية تحظى بدرجة كافية من الإستقلالية.
4. إحداث مركز عربي لتكوين الإطارات والدراسات لوضع التصورات العربية للاستعمالات الإعلامية في مختلف المجالات.
5. إنشاء محطات بث إذاعي موجهة إلى مناطق العالم الرئيسة وشعوبها.
6. إنشاء مؤسسة للعلاقات الدولية مهمتها سد الثغرات الراهنة وبناء الجسور مع الشعوب الأخرى.

قناة (اقرأ) الفضائية (نموذجاً)

ترى الدكتورة مجد هاشم الهاشمي بأن قناة (اقرأ) تعد من أحدث القنوات العربية وتقع ضمن مجموعة ART السعودية الخاصة، وتهتم هذه القناة بالشؤون الإسلامية وتعبر عن رسالتها الإنسانية نحو العالم.

وتهتم قناة (اقرأ) أيضاً بالقضايا التي تهم العالم الإسلامي وتطرح أسئلة المسلمين، وتهدف القناة الى أن يكون للمسلمين صوت إعلامي قوي في عالم آخذ يتزايد فيه ما يسمى بصراع الثقافات والحضارات.

وتتوجه قناة (اقرأ) لجمهور المشاهدين العرب والمسلمين الناطقين باللغة العربية في داخل المجتمعات العربية أو في خارجها من مختلف الفئات والشرائح، كفئة المحافظين الذين لا يجدون في القنوات الأخرى ما يتفق واهتماماتهم، وفئة الصفوة من النخب الثقافية وقادة الرأي، وفئة النساء ممن يبحثن عن الموضوعات الجادة والاستزادة من الثقافة الدينية، كما تهدف الفضائية الإسلامية إلى :

1. ترسيخ المنهج الوسطي السمح للإسلام.
2. المساهمة في ترسيخ مكانة اللغة العربية ونشرها عالمياً.
3. تنمية مشاعر الانتماء والاعتزاز بالهوية الأصلية وتحصينها ضد الاستلاب الثقافي.

أما سياسة البرامج التي تطرح عبر قناة إقرأ الفضائية، فهي :

1. العالمية في التوجه.
2. الوسطية في المنهج.
3. الشمول في الأهداف.
4. التنوع في المضمون.
5. الموضوعية.
6. المصداقية في المعالجة والخطاب.

نعم، تعدّ قناة إقرأ الفضائية قناة إسلامية موجهة للمسلمين وتسعى لتحصينهم، وإن كانت عالمية في الانتشار إلا أنها خاصة بالمسلمين.

ونحن اليوم وفي إطار تبليغ الدعوة الإسلامية نحتاج إلى قنوات فضائية تقدم الفضيلة وتوضح رسالة الإسلام للعالم الغربي، وتدعو إلى سبيل ربها بالحكمة والموعظة الحسنة، وتدير حوار حضارات حقيقياً بعمق. وكل ذلك لن يتحقق إلا إذا قامت القناة على أسس ومبادئ، أهمها :

1. قوة التقانة بما يحقق منافسة الأخريات من حيث نقاء الصورة وقوة الإشارة (Signal) بما يجعلها عالية الوضوح في المستقبل.
2. وضوح الهدف والخطط وتحديد الجمهور المستهدف ثم إنتاج البرامج وفق التخصصية والمهنية والعلمية.
3. جاذبية العرض والتشويق بما يحقق المتابعة والاستمرار فيها.
4. شمول المحتوى بما يوجد إجابات شافية وواقعية لكل التساؤلات المثارة من قبل الآخرين ، وتقديم الدفوعات والمرافعات، لا بهدف الانتصار فحسب، بل بهدف إبراز الحق والحقيق بثقة الواثق المطمئن.
5. أن يكون شعارها (دعاة لا قضاة) وفلسفتها ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾. وهديها ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾.
6. أن يكون مبدأ القائمين عليها (نعمل في ما اتفقنا فيه وليعذر بعضنا بعضاً في ما اختلفنا فيه).
7. أن تركز القناة على إبراز الوحدة والاتفاق لا الفرقة والشتات ، وأن يترك العاملون بها كل القضايا الخلافية بعيداً عن عامة الناس.

8. على القناة الإسلامية أن تقبل أهل القبلة وتدعو أهل الملة ، تبشر ولا تنفر، تقدم الأدلة والمنطق (كنموذج المرحوم أحمد ديدات).
9. تبرز القناة دور العلم والعلماء، وتراجع تاريخ الإسلام مع الغرب بلا مَنٍّ ولا أذى، وتستنطق الغربيين أنفسهم (ليشهد شاهد من أهلها). وتستهدف العلماء والمفكرين بمنطق الطرح.
10. أن تعتمد القناة لغة الآخر في الطرح وتقدم البرامج غير المباشرة كالدراما وتعتمد لغة الصورة كأساس للخطاب العام.

إذن، فنجاح القناة يرتكز بعد التخطيط السليم والإستعدادات المالية والفنية المواكبة، على عنصرين :

العنصر الأول : القائم بالاتصال :

وهم مجموعة الفريق العامل بالقناة وعلى رأسهم المذيع، ومن أهم صفاته كما ذكرها أبو الحسين بن وهب الكاتب بقوله(1) : «وأما صاحب الخبر، فينبغي أن يكون من أصح عماله ديانة، وأكملهم أمانة، وأظهرهم صيانة، لأنه مأمون على الدماء والأموال، وهو عين الوزير التي ينظر بها في رعيته، ورائده في مصالح من تحت يده، فليس ينبغي أن يتقدمه أحد في الصدق والثقة والأمانة غير القضاة ومن جرى مجراهم».

- أن يكون أصيلاً لا بديلاً.
- أن تكون سِمَتُهُ المبادرة في الطرح بالحجة والإقناع ﴿ **وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾.
- أن يكون منهجياً في طرحه، متخصصاً في علمه، مواكباً لمستجدات عصره أولاً بأول.
- أن يكون مبدأه «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير».
- أن يكون همّه وشعاره ﴿ **وأن هذه أمتكم أمة واحدة** ﴾. ولسانه يردد :

* يا أخي في الهند أو في المغرب

(1) د. مجد هاشم الهاشمي : **الإعلام الكوني وتكنولوجيا المستقبل**، دار المستقبل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001م، ص 207.

* أنت مني أنا منك أنت بي
* لا تسل عن عنصري عن نسبي
* إنه الإسلام أمي وأبي

- أن يكون ملماً بالعديد من الثقافات كما يرى د. يوسف القرضاوي، ومن أهمها[1] :

* الثقافة الإسلامية.
* الثقافة التاريخية.
* الثقافة الأدبية.
* الثقافة الإنسانية.
* الثقافة العلمية.
* الثقافة الواقعية.

العنصر الثاني : الرسالة (المحتوى) :

ولها أن تكون :

* ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾.
* أن تحتوي قوة الحجة والمنطق ﴿ **إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر** ﴾.
* أن تكون مبهرة في شكلها وبهائها، لأن الجمال والدعوة إليه أصيل في بناء الكون والوجود ﴿ **إنّا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾.
* ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾.
* ﴿ **ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون** ﴾.
* ﴿ **ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك** ﴾.

---

(1) د. يوسف القرضاوي : **ثقافة الداعية**، الكويت، مطبعة الفيصل، منشورات الاتحاد الإسلامي العالمي، بدون تاريخ، ص 9-113.

* أن تكون الرسالة مرتبطة بالوحي متنوعة في الشكل صالحة لكل الناس، كما العسل ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾.

بعض التحديات التي تواجه العالم الإسلامي وتقيده

1. تحدي تقني : إننا لم نزل مستهلكين ولاهثين وراء تطورات التكنولوجيا والتي لم نفلح في حسن توظيفها بما يحقق الهدف والرسالة.
2. تحدي فني : إننا لم نركز جهدنا في إعداد الفنيين والبرامجيين الذين يواكبون تطورات التقدم ويجتهدون في توطين التقانة والعلم في أوطاننا.
3. تحدي أسلوب : فنحن نعاني من وحدة وسلاسة الأسلوب الخطابي لدينا، كما تنقص برامجنا جاذبية العرض والتميز الشكلي.
4. تحدي (محتوى) : لا شك في أن ما لدينا ينقص الكثيرين (فرسالتنا للناس كافة)، ولكننا لم نحسن ترتيب أولوياتنا ونحسب خطواتنا، فنحن إما متعجلون، وإما مستبطئون، وكلاهما مشكل.
5. تحدي ذاتي/ داخلي : نجاح حالة الإحباط والسيطرة في هز اقتناعاتنا وضعف ثقتنا في ما عندنا، فنحن متوجسون في طرح ما لدينا ومترددون.
6. تحدي قبول الآخر : كثيراً ما نعجز أن نصبر على الآخرين حتى نبلغهم رسالتنا، فكيف نطالبهم باتباع ما لدينا وهم يجهلونه (غالباً) : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾.
7. تحدي في المنهج والفلسفة : فنحن إما منفتحون جملة واحدة على الخارج ﴿ **قالت نملة يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ وإما منغلقون على ذاتنا جملة واحدة ﴿ **وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾.

يرى الدكتور رجاء جارودي[1] : «إن على المسلمين أن يقدموا إجابة كونية بمستوى المشكلة التي تواجه العالم. التحدي هو تحد بتحويل القيم الإسلامية

(1) د. عبد الله حسن زروق : **الإسلام والعلم التجريبي : انتقال العلوم الإسلامية للغرب**، ص 126.

في العقائد والشريعة إلى واقع يتحقق في الزمان والمكان». أما الدكتور عماد الدين خليل[1] فيقول : «إذا أردنا أن نصبغ الفكر الإسلامي بالعالمية فعلينا أن نستفيد من المفكرين العالميين القادمين من خارج دائرة الإسلام، فهم أكثر قدرة بمنهجيتهم الشمولية على متابعة خصائص الحضارة الإنسانية وحضارة الإسلام وصيرورتها والتأثير على عناصرها».

8. تحدي في التخصصية والمنهجية : لأن العمل الإعلامي أصبح صناعة وعلى درجة كبيرة من الأهمية، فنحن كما يقول سيد قطب[2] : «نحن في حاجة ماسة إلى متخصصين في كل فرع من فروع المعارف الإنسانية، أولئك الذين يجعلون من معاملهم ومكاتبهم صوامع وأديرة، ويهبون حياتهم للفرع الذي تخصصوا فيه، لا بشعور التضحية فحسب، بل بشعور اللذة كذلك، شعور العابد الذي يهب روحه لإلهه وهو فرحان» .. فهل يصبح الإعلام بوابة لمن يريد أن يقول ﴿ **هاؤم اقرءوا كتابيه** ﴾.

9. تحدي في تكامل الأدوار : بين أهل المهنة وأهل الفتوى (أي بين الممارسين للعمل الإعلامي والمتحدثين باسم الدين) فلا غنى لأي من الوظيفتين عن الأخرى، كما يقول أبو حامد الغزالي[3] : «من يقتصر على علوم الدين وحدها لا يفهم من الدين إلا قشوره، بل خيالاته وأمثلته، دون لبابه وحقيقته، إذ لا تدرك العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية، فإنّ العقلية كالأدوية للصحة، والشرعية كالغذاء».

10. تحدي المواكبة : سرعة تطورات العلم والتكنولوجيا وإفرازاتها على العالم تفرض مسارعة في مواكبتها وتوظيفها أولاً بأول، وإلا تخلف المتخلفون رغماً عنهم وإن اجتهدوا في ظاهر عملهم.

مقترحات وتوصيات

1. وضع استراتيجية عربية موحدة للإعلام العربي واضحة المعالم تعتمد على الدقة والوضوح والإتقان عند تناول سمات الإسلام والقيم العربية، وذلك

---

(1) د. يوسف القرضاوي : **ثقافة الداعية**، الكويت، مطبعة الفيصل، منشورات الاتحاد الإسلامي العالمي، بدون تاريخ، ص 9-113.

(2) سيد قطب : **رسالة أفراح الروح**، مركز الفجر للإنتاج الإعلامي، الخرطوم (بدون تاريخ).

(3) الإمام الغزالي : **ميزان العمل**.

من خلال المتغيرات الحديثة (الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية)(*).

2. اتباع الأسس والمعايير العلمية التي يقوم عليها الإعلام الإسلامي والتي تتلخص في الحقائق التي تدعمها الأرقام والاحصاءات، والتجرد من الذاتية والتحلي بالموضوعية في عرض الحقائق ، وكذلك الصدق والأمانة في جمع البيانات من مصادرها الأصلية، ثم التعبير الصادق عن تطلعات الجماهير.
3. أن تهتم الفضائيات العربية والإسلامية بكل الملامح العربية من تاريخ وأدب وتراث ، والاهتمام بالواقع الإبداعي والثقافي الحقيقي، مع الإعلام بالأحداث الجارية.
4. متابعة نتائج البحوث والدراسات والمؤتمرات العلمية التي تقدم في مجالات الإعلام والمؤسسات الأكاديمية حتى تصبح أساساً ومنطلقاً للعمل الإعلامي.
5. مواكبة الأحداث العالمية والعمل على تطوير البرامج شكلاً ومضموناً.
6. العمل على إبراز الشخصية العربية والإسلامية من خلال استضافة العلماء والكتاب والأدباء والمفكرين المعتدلين لطرح قضايا منهجية، تعبر عن الإسلام والوطن العربي بلا تحيز يمنع التلقي أو تعصب يقلب الصورة. (دعاة لا قضاة).
7. الابتعاد عن التقليد الأعمى والمحاكاة، والتركيز على البحث والتقصي لكل ما هو جديد ومفيد.
8. التأكيد على ثوابت الأمة الإسلامية والعربية وإبراز هويتها الحضارية في إطار حوار الحضارات لا صراعها.
9. إنشاء قناة عربية تلفزيونية مشتركة تكون نموذجاً للوحدة والتعاضد العربي، على أن تقدم إجابات شافية لكل القضايا العالقة فقهياً وعلمياً ومنهجياً.
10. إنشاء مراكز إنتاج تلفزيونية متخصصة توثق للحياة العربية والإسلامية في الشرق والغرب، وتبرز وتعرف بالإسلام في اطار الدعوة بالحسنى، وتكون معينة للقناة وداعمة لخططها الإنتاجي بشرط الجاذبية والتخصصية والمهنية.

والله الموفق.

(*) اعتمد مؤتمر وزراء الإعلام العرب استراتيجية إعلامية عربية. كما اعتمد المؤتمر الإسلامي لوزراء الإعلام استراتيجية إعلامية إسلامية. الأمر يحتاج إلى تفعيل الاستراتيجيتين ـ المحرر ـ.

سبل تفعيل وسائط الاتصال للدعوة
وفي إبراز الصورة الصحيحة للإسلام

د. محمود عبد الله عاكف(*)

أولاً : المقدمة

إن محاولات الهجوم على الإسلام وتشويه صورته ممتدة، وبدأت مع بداية دعوة الإسلام ذاته، أي منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام. فالبداية كانت من خلال التكذيب بكونه رسالة سماوية وأن نبيّه يدعي النبوة وأن القرآن مأخوذ من أساطير الأولين، أو أنه محاولة من بني هاشم للفوز على بني أمية بالنفوذ والقيادة في مجتمع مكة. هذا، بالإضافة إلى عمليات التخويف المستمرة من هذا الدين بأنه يفرق بين الآباء وأبنائهم ويفسد العبيد على أسيادهم ويساوي بين الغني والفقير. ثم تعددت أشكال الهجوم على الإسلام وتشويه صورته واختلفت قوة الهجوم باختلاف طبيعة المرحلة وتوقيت الزمن. فخلال مراحل صعود وتنامي الحضارة الإسلامية وقوة الدولة، كان الهجوم والتشويه بإثارة النزعات الانفصالية والخلافات الفقهية والمذهبية. وفي مراحل الضعف والانقسام، كان الهجوم يأخذ شكل الحروب المباشرة والصراعات العسكرية. ثم تلى ذلك مراحل الاستشراق ومحاولة إثارة الشبهات حول الإسلام حتى استطاع أعداء الإسلام أن يسيطروا على بلاد المسلمين، سواء بشكل استعماري مباشر، أو من خلال الدعوات والتيارات غير الإسلامية لأبناء البلاد المسلمة. حتى أنه في بعض الأحيان كان الهجوم على الإسلام وتشويه صورته من هذه التيارات أشد وأنكى من هجوم أعداء الإسلام المباشرين. وتمكنوا من محاصرة الحضارة الإسلامية حتى في بلادها، وسقطت الخلافة وبدأت مرحلة كمون الحضارة ولا أقول هبوطها وسقوطها.

في الثلث الأخير من القرن الميلادي السابق، بدأت الصحوة الإسلامية في الظهور وانتشرت شرقاً وغرباً، بعدما اعتقد أعداء هذا الدين أنهم قد استطاعوا السيطرة عليه

(*) مدير مركز الدراسات الحضارية، عضو هيئة التدريس، بجامعة القاهرة.

وتهجينه، ولكنهم لم يعلموا أن الله خير الماكرين. كما ساعدت بعض الأحداث العالمية والإقليمية على تنامي الصحوة حتى وجدت في البلاد الغربية ذاتها. فوجدنا المؤتمرات الإسلامية تعقد في عواصم الغرب في لندن وشيكاغو وباريس وميونيخ وغيرها من المدن الغربية الشهيرة، ويحضرها الآلاف بل عشرات الآلاف من المسلمين في هذه البلاد. وبدلاً من أن يتم استيعاب هذه الصحوة لخدمة البشرية والعالم أجمع من خلال تحقيق التنمية الحقيقية، بدأ أعداء الإسلام التخطيط لبدأ صراع جديد بعد أن تأكدوا أن الإسلام باقٍ وأن حضارته باقية في نفوس أبنائه ولا يمكن إزالتها، وتم الترويج لما أطلق عليه صراع الحضارات. وكان في مرحلته الأولى فكرياً وثقافياً بلغ ذروته في الحادي عشر من سبتمبر 2001، وانتقل لمرحلة تالية نعيش فيها الآن، عادت فيه الحروب الصليبية مرة أخرى. ونحن الآن أشد ما نكون حاجة لتقديم الإسلام بصورته الصحيحة الواضحة. وهذا ليس من قبيل رد الفعل على ما يحدث، بل هو تطبيق لأمر رباني بالدعوة لهذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة. وفي الصفحات التالية سوف نتناول بعض أبعاد الحملات المتكررة للهجوم على الإسلام وتشويه صورته، وكيفية التعامل مع هذه المحاولات، وما هي الأهداف التي يجب تحقيقها من خلال الدعوة لهذا الدين، وسوف نتناول أيضاً الأدوات والوسائط الإعلامية المتعددة التي يمكن توظيفها من أجل توضيح صورة الإسلام ونشر دعوته بين البشرية جمعاء. وهي الورقة المقدمة للندوة العلمية التي تعقدها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، بالتعاون مع الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية، والتي تعقد بمدينة حلب بالجمهورية العربية السورية.

ثانياً : منهجية التعامل مع الهجوم

ولنا في المنهج الرباني والسنة النبوية منارة ودرب في كيفية التعامل مع هذا الهجوم. وأهم عنصر في هذا المنهج، هو عدم الالتفاف أو التوقف كثيراً للرد على هذه التشويهات والادعاءات التي تثار تجاه الإسلام. ولكن المطلوب التركيز على الدعوة ونشر هذا الدين وما يحتويه من خير للعالم والبشرية جمعاء وتوضيح جوانبه وإبراز صورته الصحيحة الجلية. ثاني العناصر أهمية هو الاستمرارية، فلا تكون الدعوة وما يتبعها من أنشطة مثل الحوار والتعارف موسمية، أو على فترات أو كرد فعل لأحداث حدثت هنا أو هناك، بل يجب أن تكون دائمة تنفيذاً لأوامر الله. لذلك من الضروري أن نمارس وظيفة الدعوة وأنشطتها المتعددة دون الانتظار لهجوم من أحد أو إثارة شبهة حول الإسلام أو غيره. فما بالنا والإسلام يهاجم وتشوه صورته وتزيف حقيقته، من

هنا فإننا في حاجة أشد للبحث عن أدوات وآليات جديدة للقيام بالوظيفة على خير وجه.

وإذا كان أعداء الإسلام ومهاجموه قد قاموا بتوظيف الأدوات المختلفة منذ العصور الوسطى وبدايات الحروب الصليبية في الهجوم على بلاد المسلمين والعرب، وهناك محاولات عديدة ومتتالية لتشويه صورة الإسلام كدين والعرب والمسلمين كشعوب عند المواطن الغربي، فإن هذه المحاولات أخذت آليات مختلفة وأكثر تأثيراً في بدايات القرن الماضي لظهور الأدوات الإعلامية الحديثة. وعلى مدار القرن العشرين تم بث الكثير من الافتراءات والأكاذيب لتشويه صورة العربي والمسلم والإسلام بشكل عام. وأصبح المواطن الغربي فريسة لتلك الوسائل يصدق كل ما يصدر عنها من مغالطات بشأن العرب والمسلمين.

بلاشك إن عدم وجود جهات مضادة تقدم الصورة الحقيقية وتعرف بالإسلام والعرب والمسلمين بشكل صادق وموضوعي، كما أن عدم استخدام الأدوات والآليات المناسبة من أجل تفنيد هذه الأكاذيب والشبهات من حوله، كانا أيضاً من أسباب تراكم التشوهات التي حدثت في العقلية الغربية تجاه الإسلام وأبنائه من عرب وغير عرب. كما أن بعض التصرفات والممارسات الخاطئة من بعض أبنائه والنابعة عن فهم غير سوي للدين الإسلامي، قد ساعد على زيادة اقتناعات المواطن الغربي بما يتلقاه من وسائله الإعلامية عن الإسلام وأتباعه. هنا يجب أن نذكر المحاولات شبه الفردية والتي قام بها عدد من المثقفين والمفكرين العرب والمسلمين للقيام بوظيفة الدعوة وتقديم الصورة الحقيقية للإسلام. لكن للأسف فإن معظمها كانت بشكل فردي وغير متصل وبطريقة غير مؤسسية، بالإضافة إلى أن أغلب تلك المحاولات كانت تتم مع جهات ومراكز بحثية وفكرية في الغرب، ولم تكن موجهة إلى المواطن العادي في تلك المجتمعات.

لذلك فإن الدعوة، والحوار كأهم أدواتها، تعتبر وظيفة وفريضة ضرورية علينا جميعاً القيام بها كل حسب طاقته، ولكن يجب أن نفهم ونتأكّد أن هذه الفريضة دائمة ومستمرة، وأنها ليست مجرد رد فعل لما يحدث الآن تجاه العرب والمسلمين، وما يثار من نعرة ثقافية عن صراع الحضارات أو غيره من أفكار موتورة لا تدرك أبعاد الحياة على الأرض، ودور الأمم والشعوب في تحقيق التنمية والرفاهية للبشرية كلها. كما أننا يجب أن نستحضر دائماً أن ما نقوم به لتحقيق هذه الوظيفة، إنما هو لتلبية الأمر الإلهي بالدعوة لهذا الدين وبالتعارف بين البشر والأمم والحضارات في هذا الكون الفسيح.

ثالثاً : أهداف الدعوة والحوار

والدعوة كأي عمل أو نشاط، يجب أن يكون لها أهداف محددة نعمل على تحقيقها. ومن هنا يمكننا صياغة الأهداف كما يلي :

1. تقديم الإسلام والتعريف به وبحضارته وتاريخه من خلال لغة خطاب يحترمها الآخر ويفهمها، ليس من منطلق أنا والآخر، ولكن من منطلق أننا جميعاً شركاء في هذه الأرض التي نعيش عليها.
2. العمل على إزالة أي لبس أو زيف في عقول مواطني وأبناء الحضارات الأخرى تجاه العرب والمسلمين والإسلام بشكل عام.
3. تحليل ودراسة المداخل الأفضل في التعامل مع عقول أبناء تلك الحضارات ثقافياً وفكرياً.
4. العمل على التعاون والتفاعل مع المؤسسات والمنظمات الفكرية والثقافية وكل صاحب فكر أو رأي من أبناء تلك الحضارات مع البدء بالجهات غير الموتورة وغير المتشنجة.
5. تقديم النماذج الإسلامية والعربية الناجحة وإبراز دورها في تحقيق نهضة وتقدم الحضارة على مدار التاريخ الإنساني.
6. العمل على التصدي أولاً بأول لكل ما يثار في الغرب من شبهات تؤثر على صورة الإسلام وأبنائه في أذهان الغربيين، مستخدمين في ذلك الوسائل والأدوات الحديثة والمتطورة وتوظيفها للوصول إلى أكبر عدد من أبناء الحضارات الأخرى.
7. كما تهدف الدعوة أيضاً إلى صدّ الهجمات الفكرية التي تتعرض لها الأمة وتفنيدها وتحييد آثارها المختلفة.
8. كما تعمل الدعوة والحوار الفعال على تلافي أي تصرفات أو أعمال من شأنها إيقاع الضرر بأي من الأطراف المتحاورة.
9. البدء بالمساحات المشتركة والمتقاطعة والتأكيد على المعاني الحضارية التي تعالج مشاكل العالم بشكل عام.
10. استمرار عملية الدعوة والحوار والتعامل معها على أنها ليس رد فعل، وإنما هي فعل أصيل ويجب استمرارها بشكل دائم تنفيذاً لأوامر الله.

رابعاً : الوسائط والأدوات الإعلامية للدعوة والحوار

بعد تقديم لعدد من الأهداف التي نرى ضرورة العمل على تحقيقها، فإننا في النصف الثاني من هذه الورقة، سوف نتناول الأدوات والوسائط الإعلامية التي يمكن توظيفها في تحقيق الأهداف الدعوية وتقديم صورة الإسلام الصحيحة، وتفنيد الادعاءات الباطلة التي ينشرها أعداء هذا الدين لتخويف أبناء الحضارات الأخرى من الإسلام وأتباعه. مع مرور كل يوم نجد تطوراً جديداً في أدوات ووسائل الاتصال، مما يجعلنا لا نستطيع مسايرة هذه التطورات إلا مع بذل الجهد المتواصل. كما أن هذه الأدوات المتطورة قد تعدت دورها من مجرد ناقل للأحداث، إلى مؤثر في الأحداث من خلال صناعة السلوك وصياغة الرأي وتوجيه الفكر.

والأدوات الإعلامية عديدة، فمنها المكتوبة مثل الصحيفة والكتاب، ومنها المسموعة مثل الراديو والشريط الكاسيت، ومنها المرئية مثل التلفزيون والقنوات الفضائية والسينما والفيديو، ومنها الأدوات الحديثة مثل الأقراص الممغنطة CD وDVD وشبكة المعلومات الدولية الإنترنيت. كما أن هنا وسيلة اتصال أخرى تغيب عنا كثيراً وهي وسيلة الاتصال المباشر والكلمة المباشرة. وكل أداة من هذه الأدوات لها خصائص مميزة لها، ولكي يتم توظيفها بأقصى كفاءة وفاعلية، فإنه يجب التعرف على هذه الخصائص. وتختلف هذه الأدوات من حيث قوتها التأثيرية على المتلقي، فنجد شدة تأثير الأدوات المرئية في مواجهة الأدوات المسموعة، كما نجد تنامي دور الأدوات الحديثة مثل الأقراص الممغنطة والإنترنيت. وسوف نعرض هنا بعض الوسائل وهي الكتاب والسينما والأقراص الممغنطة، وأخيراً الكلمة المباشرة.

خامساً : الكتاب

«إن الكتاب خير صديق أو جليس» هذه العبارة نرددها كثيراً، وكنا نرددها في الماضي أكثر مما نرددها الآن، فهل تلاشى دور الكتاب كوسيلة من وسائل الاتصال وصياغة الفكر والرأي ؟. وللإجابة على هذا التساؤل، يجب عرض بعض الأرقام التي توضح قيمة الكتاب في عالمنا العربي مقارنة بقيمته في العالم الغربي، فنحن في مصر والتي يزيد عدد السكان عن سبعين مليون نسمة لا يطبع سنوياً أكثر من 12000 كتاب، وذلك خلال عام 2005، منها نسبة كبيرة كتب تعليمية، وفي أحسن التقديرات يضاعف هذا الرقم على مستوى الدول العربية مجتمعة، في حين أن دولة مثل ألمانيا والتي لا يزيد عدد سكانها عن ربع سكان العالم العربي، تنشر سنوياً أكثر من 100.000 كتاب. وفي

الولايات المتحدة الأمريكية يوجد المئات من الكتب سنوياً التي تبيع أكثر من مليون نسخة، في حين نجد أن في عالمنا العربي لا توجد كتب تبيع أكثر من عدة آلاف من النسخ إلا نادراً. من هنا نجد أن الكتاب هو خير صديق للإنسان الفرد في الدول المتقدمة حتى مع وجود الأدوات الإعلامية والترفيهية العديدة. كما أن هذا يؤكد الدور التأثيري للكتاب في المجتمعات الغربية والمتقدمة. وللكتاب كأداة إعلامية خصائص مميزة، أهمها :

1. يمكن أن يناقش العديد من القضايا وفي مجالات مختلفة في نفس الكتاب.
2. إنه أقل تكلفة من أدوات ووسائل اتصال مختلفة مثل القنوات التلفزيونية والأفلام السينمائية وغيرها.
3. قدرته على تشجيع الخيال من خلال الأساليب الإنشائية والبلاغية التي يمكن توظيفها في الكتابة.
4. يمكنه طرح الموضوعات التي قد يصعب على غيره من أدوات اتصال أن يطرحها، سواء لأسباب فنية أو مالية.
5. سهولة نشره وتوزيعه ولا يحتاج إلى أجهزة عرض.

إذن فالكتاب يعتبر أداة إعلامية متميزة ما زالت قادرة على التأثير، خصوصاً في المجتمعات الغربية والمتقدمة، ويمكن توظيفها بكفاءة في مواجهة حملات الهجوم على الدين الإسلامي لو أحسنا تفعيل خصائصه كأداة إعلامية. وحتى يتم تفعيل دور الكتاب في هذا المجال، هناك عدد من الشروط من الضروري العمل على استيفائها وأهمها :

1. الاستمرارية من خلال مواظبة إصدار ونشر الكتب التي تقدم الإسلام بصورته الصحيحة.
2. لغة الخطاب الوسطية المعتدلة يفهمها المتلقي ويحترمها.
3. أن تكون القضايا التي يتم تناولها ذات شأن آني معاصر وليس تاريخياً.
4. أن تتعدد الموضوعات والمجالات ولا تتوقف عند المجال السياسي أو الدعوي المباشر.

سادساً : السينما

الأداة الثانية التي نتناولها في هذه الورقة، هي السينما، وهي أداة قديمة وحديثة في الوقت نفسه. بمعنى أنها قديمة كنوع من أنواع الفنون، وهي كما يطلق عليها الفن السابع في منظومة الفنون. ولكنها حديثة من خلال التقنيات الفنية والتأثير الفكري لهذه الأداة على المجتمعات والشعوب التي تتعرض لها. والسينما يمكن أن تكون من الأدوات

الفاعلة في عرض الصورة الحقيقية للإسلام ومواجهة أي هجوم عليه لو تم توظيفها بشكل صحيح. فالسينما صناعة ولتوظيفها بكفاءة يجب الأخذ بجميع عناصرها صناعياً، فيجب الاهتمام بالتصوير والسيناريو والديكور والإخراج والتمثيل، وغير ذلك من عناصر الصناعة. وكما ذكرنا في شأن الكتاب، فإنه يجب الاهتمام بلغة الخطاب في السينما أيضاً، وأن يكون هناك ذكاء في اختيار الموضوعات التي تعرض. والسينما من الفنون ذات التكاليف المرتفعة، ولكنها في الوقت نفسه من أكثر الأدوات الإعلامية تأثيراً، هذا بالإضافة إلى أنها أكثر الفنون تحقيقاً للربحية لو تم التعامل معها بشكل صناعي محترف.

بلاشك فإننا جميعاً قد تأثرنا بما شاهدناه على الشاشات الفضية العملاقة في دور السينما، سواء كانت عربية أو أجنبية. فمن منا لا يتذكر كيف تأثر الشباب مع مطلع السبعينيات بما كان يقدمه جونس ترافولتا في أفلامه من طريقة لبس أو تسريحة شعر. كما أننا جميعاً نتذكر التأثير الذي أحدثه فيلم "قائمة شندلر" ـ والذي أخرجه المخرج الأمريكي ستيفن سبلبرج ـ في إعادة ذكرى محارق اليهود في أوروبا والتعاطف معهم نتيجة ما تعرضوا له على أيدي النازية. كما أننا نذكر الفيلم الأمريكي "يوم الاستقلال" والذي يبين انتهاء الصراع على الأرض وبداية الصراع مع الكواكب الأخرى، وكيف أن الشخصية اليهودية هي التي أنقذت الكرة الأرضية من أن تحتل بواسطة الغزاة الخارجيين. وغيرها وغيرها من الأفلام التي تستخدم لصياغة الفكر وتغير السلوك وتشكيل الاتجاه، حتى إن الأفلام الكرتونية الموجهة للأطفال لم تسلم من الإيحاءات الثقافية والسياسية. فنجد في فيلم "الأسد الملك" إنتاج عام 1993 ـ وهو يعتبر من أكثر أفلام الكارتون تحقيقاً للإيرادات ـ بعض المشاهد التي تؤكد على صراع الحضارات وأن الحضارة الغربية هي الحضارة التي سوف تزدهر وتدوم وتنتصر.

أما عن خصائص أداة السينما كأداة إعلامية ووسيلة اتصال، فإنها تتميز بعدد من الخصائص أهمها :

1. أنها متعددة الوسائط فهي مرئية ومسموعة ومتحركة.
2 أنها ذات تأثير قوي على المشاهدين، بل يمكن القول إنها أكثر الأدوات الإعلامية تأثيراً لو تم توفير عناصر النجاح كافة.
3. أنها من الأدوات الإعلامية واسعة الانتشار في دول العالم كافة وأن اللغة ليست عائقاً في نشر الرسالة التي تقدمها.
4. كما أنها من أكثر الأدوات الإعلامية تحقيقاً للأرباح لو تم توظيف عناصرها المختلفة من فكرة وسيناريو وتمثيل وتصوير وإخراج وغيرها بكفاءة.

5. أنها قادرة على خلق حياة موازية لما يعيشه المشاهد تستطيع من خلالها بث المفاهيم والأفكار التي تريد توصيلها.

ونحن حتى الآن لم نستطع أن نستخدم هذه الأداة المؤثرة من أجل تقديم الإسلام وتوضيح صورته، سواء للغرب أو للشرق، مع أن أعداء الإسلام قد قاموا بتوظيفها واستغلالها من أجل خدمة أهدافهم بتشويه صورة الإسلام، وتخويف المجتمعات الغربية من أبناء هذا الدين ومعتنقيه. لذلك إذا أردنا أن نكون جادين في مواجهة هذه الحملات التشكيكية والتشويهية للدين الإسلامي وأبنائه، فعلينا أن نستخدم هذه الأداة باحتراف وأن نجمع جميع عناصر صناعتها ونُجيدها، وأن نبدع في تقديم أعمال سينمائية تقدم الإسلام بشكل غير مباشر وبلغة يفهمها المشاهد الغربي ويحترمها.

سابعاً : الأدوات الحديثة

ثالث الأدوات التي نتناولها هنا هي من الأدوات الحديثة نسبياً، وهي الأقراص الممغنطة وشبكة المعلومات الدولية الإنترنيت. فالأقراص الممغنطة تعتبر وسيلة متعددة، فهي وسيلة مسموعة ويمكن توظيفها كوسيلة مرئية أيضاً. كما أن الأشكال الجديدة منها مثل الدي ڤي دي DVD وما يمكن أن يحمل عليها من مادة سواء مسموعة أو مرئية، يجعلها من الأدوات الفاعلة إعلامياً لو تم التعامل مع خصائصها بكفاءة. كما أن شبكة المعلومات الدولية الإنترنيت وما تتميز به من سرعة في نقل المعلومات والأخبار، يمكن أن تكون وسيط اتصال ممتاز في تقديم الإسلام الصحيح بأكثر من لغة، مما يسهل على القائمين على نشر الدعوة عرضَ صورة الإسلام للشعوب والأمم المختلفة. كما أن التقنيات الحديثة مثل DSL التي تساعد على سرعة تحميل الصور والمواد المتحركة من على شبكة الإنترنيت، يمكن أن تساهم في نقل مواد الدعوة ونشر الدين إلى مختلف بقاع الأرض دون تحمل تكاليف كبيرة. وهناك العديد من النماذج، سواء لتوظيف الأقراص الممغنطة CD & DVD أو استخدام شبكة المعلومات الدولية الأنترنيت في نشر الإسلام وتقديم الصورة الصحيحة له. ونحن في حاجة لزيادة معدلات استخدام هذه الأدوات لتقديم الإسلام الصحيح، ولكننا في الوقت نفسه في حاجة إلى أن نفهم إمكانيات هذه الأدوات ونعمل على توظيفها بالشكل الأمثل.

وهنا أود أن أقدم مثالاً ونموذجاً على استخدام هذه الأدوات الحديثة، وهو ما قامت به إحدى الشركات في القاهرة بعمل CD يعرض ما يتعرض له الشعب الفلسطيني

من تدمير ويحمل عنوان "**يا شعوب العالم أين أنتم ؟**"، بسبع لغات وهي الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية والهولندية والإيطالية بالإضافة إلى اللغة العربية. وتم توزيع القرص في أماكن مختلفة من أوروبا وأمريكا. ونموذج آخر لاستخدام هذه الأدوات وهو موقع Islam on line والذي تم من خلاله توظيف الخصائص العديدة لشبكة المعلومات الدولية من سرعة في نقل المعلومة وتحديث للبيانات ونشر الأخبار الخاصة بالعالم الإسلامي، والتواصل مع مستخدمي الشبكة والرد على استفساراتهم وتساؤلاتهم عما يخص الدين الإسلامي والمسلمين.

لذلك فإن توظيف هذه الأدوات والعمل على إحداثها والتعامل معها بكفاءة أعلى، يمثل تحدياً للمسلمين في المستقبل، لأنها سوف تكون أكثر الأدوات الإعلامية استخداماً خلال السنوات المنظورة القادمة، خصوصاً مع التطورات التكنولوجية الهائلة التي تستجد يومياً في هذا المجال.

ثامناً : الكلمة المباشرة

أما رابع هذه الأدوات الإعلامية والتي نرى ضرورة الاهتمام بها في مواجهة حملات الهجوم على الإسلام، فهي وسيلة الاتصال المباشرة، وهي الأداة التي تم استخدامها كثيراً في الدعوة للدين الإسلامي على مر العصور. فلا ننسى أن انتشار الإسلام في الهند والصين ـ وهما يمثلان أكثر من نصف عدد المسلمين في العالم الآن ـ قد جاء من خلال الاتصال المباشر بين المسلمين التجار وأهل هذه البلاد، إذ كان المسلم الأول هو القدوة والنموذج. كما أن انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء جاء نتيجة هجرات المسلمين الأوائل إلى هذه المناطق البدائية. والاتصال المباشر له أسس ومنهجية يجب اتباعها، كما أن نجاحه أو فشله في تحقيق أهدافه كأداة من الأدوات الإعلامية للدعوة للإسلام، يقوم على قدرته على الاستمرار في الاتصال مع أبناء الشعوب والمجتمعات المراد تقديم صورة الإسلام الصحيحة لهم. ولهذه الأداة أساليب عديدة، منها المحاضرات والندوات واللقاءات الدورية مع فئات مختلفة من أبناء هذه المجتمعات لتوضيح صورة الإسلام.

من هنا يجب علينا الاهتمام بهذه الأداة وتوظيفها بشكل دائم ومستمر، وهو دور ملقى علينا في البلاد الإسلامية، كما هو ملقى على عاتق الجاليات المسلمة في المجتمعات الغربية وذلك بأن يقدموا النموذج للمسلم الذي يفهم دينه وإسلامه الفهم الصحيح الوسطي.

تاسعاً : الخاتمة

يكاد مؤرخو الحضارات يجمعون على أن الحضارات الإنسانية ليست أبنية ثابتة تتحدد ملامحها ومعالمها ثم تبقى على حالها، وإنما هي أشبه بالكائنات العضوية الحية، لها لحظة ميلاد. ولها بعد ذلك مراحل نمو وتطور، تنتقل فيها بين الارتفاع والازدهار في حقبة من تاريخها، والتراجع والانكماش في حقبة أخرى من ذلك التاريخ. وخلال التاريخ الطويل لحركة الحضارات المختلفة كان هناك فريقان أو مدرستان فكريتان من داخل كل حضارة. إحداهما محافظة ومتمسكة بالثوابت التي حددت في لحظة تاريخية محددة. والمدرسة الأخرى حريصة على تجديد الحضارة ومواكبة ما يحمله اختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال من مستجدات لم تكن قائمة في الماضي وبما يكفل الحيوية لهذه الحضارة التي تمكنها من البقاء والاستمرار.

والأمة الإسلامية تعيش الآن مرحلة من مراحلها الفاصلة بين أن تكون أمة معتبرة لها وظيفة مهمة ورئيسة على المسرح العالمي، أو أن تكون أمة مهمشة كما ترغب في ذلك بعض الأمم، وأن يقتصر دورها على تقديم المواد الخام من الطاقة وغيرها للأمم الأخرى، وتعينهم بذلك على تقدمهم ورقيهم، وأن تكون مستهلكاً أساساً لفوائض إنتاجهم. ونظرة سريعة على واقع أمتنا تُظهر لنا أن اختيار البديل الأول والقيام بدور مهم على الساحة العالمية، لن يكونا اختياراً سهلاً، بل لا أبالغ إذا قلت إنه أمر شديد الصعوبة، وفي حاجة إلى تكاتف جميع القوى والأفكار. ونعلم أن نجاح تحقيق أي هدف يحتاج إلى تخطيط سليم وأساليب تنفيذ فاعلة. كما أن الأفكار الجيدة إذا لم يصاحبها تخطيط وتنفيذ على نفس الدرجة من الجودة، فغالباً لا تحقق هدفها وغايتها. وإذا كان علماء الفقه قد أوضحوا بأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فإن علماء الإدارة قد أكدوا أيضاً بأن أفضل أسلوب لتنفيذ الأعمال هو العمل المؤسسي. لذلك فإن إقامة المؤسسات التي تهدف إلى إيجاد دور فاعل للمسلمين وللأمة الإسلامية وتقديم نموذج للرؤية الإسلامية بلا إفراط ولا تفريط، هو من أعمال الواجب والضرورة.

جانب آخر يجب أن نلتفت إليه ونحن نقدم هذا الدين، ألا وهو واقعنا نحن المسلمين، فمن أجل تفعيل الرسالة التي نريد توصيلها، ومن أجل نشر هذا الدين بصورته الصحيحة، يجب أن نحسن صورتنا نحن العرب والمسلمين، سواء في البلاد الإسلامية أو في البلاد غير الإسلامية، شرقاً وغرباً، وأن نعمل على تطبيق الإسلام فينا. فليس من المصداقية أن نحدث الغرب على سبيل المثال عن الحرية والعدل وحقوق الإنسان في الإسلام وهذه المبادئ تكاد تكون غير مطبقة في مجتمعاتنا. لذلك فإننا

مطالبون بإقامة الإسلام في أنفسنا ومجتمعاتنا بجوانبه المختلفة من خلال نشر الحرية والعلم والعدل وغيرها من القيم الإسلامية الصحيحة، وذلك حتى تكتسب دعوتنا لشركائنا في الأرض المصداقية المطلوبة.

ومن هنا نحن أبناء هذه الأمة الخالدة مطالبون بأن نقدم هذا الدين للعالم أجمع لأنها الرسالة الخاتمة، وهي الرسالة العالمية الموجهة للبشرية كلها. وعلينا أن نستخدم الأدوات المختلفة للاتصال، وأن نجيدها، ليس فقط الأدوات المتوفرة حالياً، بل نحن مطالبون بأن نبدع وأن نبتكر أدوات جديدة تساعدنا على توصيل هذه الرسالة بشكل أفضل. وعلينا جميعاً كل حسب طاقته وجهده، أن نقدم ونعمل على نشر هذا الدين الذي يحمل الخير للبشرية كافة.

بحاسوبٍ على الأرض ومنارةٍ فوق القمر

د. مصطفى المصمودي(*)

يسعدني في بداية هذه الكلمة، أن أتوجه بالشكر إلى منظمة الإيسيسكو لتنظيمها هذه الندوة الفكرية حول موضوع اشتدت وطأته في هذه المنطقة التي يشهد لها التاريخ بنضالها من أجل إعلاء راية المسلمين. وللحقيقة فإن صورة الإسلام في الغرب اليوم ليست على ما يرام، ولابد من السعي إلى دفع ثمن غالٍ لإشراقها في تلك الربوع. وتقنيات الاتصال الحديثة من شأنها المساعدة على تحقيق هذا الغرض بأسلوب القرن الحادي والعشرين.

إن الصورة في علوم الإعلام تعني السمعة التي يحظى بها طرف ما لدى طرف آخر والانطباع الذي يحمله الإنسان عن شخص أو مجموعة أو الشعب. ومن الطبيعي أن تختلف الصورة المأمولة عن الصورة الحاصلة. والصورة المأمولة هي الصورة المثالية التي يتمنى صاحبها أن يحظى بها لدى الطرف المستهدف، وهي الصورة التي تتطابق عامة مع ميولاته وأهدافه. أما الصورة الحاصلة بالفعل، فهي الصورة التي يحملها عنه فعلاً ذلك الطرف، وغالباً ما تكون ذاتية، لا تحددها العوامل الموضوعية ولا تتطابق بالضرورة مع الحقيقة المطلقة، فالعاطفة والقيم والمشاعر الشخصية، وطريقة الحصول على المعلومات، كلها عوامل تتضافر لتؤثر في هذه الصورة. فإذا وظفنا التصور لتجسيم صورة الإسلام في الغرب، وجدنا تفاوتاً كبيراً بين الصورتين.

وهذا ما يدعونا اليوم إلى الاعتماد على ما توفر لنا من وسائل إعلامية حتى نصلح ما بأنفسنا في الداخل ونواجه في الخارج ما تعتمد إليه أجهزة الإعلام المناهضة للإسلام من تشويه لسمعتنا وتشكيك في قيمنا الثابتة. فكل هذه الاعتبارات تستحثنا نحن المسلمين على تحليل الواقع المتردي لصورة المسلمين، لتساعدنا على اكتشاف الحلول الملائمة في زمن العولمة واسترجاع ثقة المسلم وثقة الآخرين به. ويتمثل دور وسائل الإعلام ذات

(*) خبير إعلامي من الجمهورية التونسية.

التوجه الإسلامي في إقناع باقي سكان المعمورة بحقيقة الدين الإسلامي دون الطعن في الأديان الأخرى أو المس بشعائرها. ووسائل الاتصال الحديثة بمختلف أشكالها قادرة على ذلك إلى أبعد حدود، وهي تتمثل اليوم في صنفين : جماهيرية عامة وفردية.

وسنحاول فيما يلي التأمل في هذا الموضوع الدقيق بالتركيز على ثلاثة عناوين وهي :

I. صورة الإسلام في الغرب عبر التاريخ.

II. مقومات الخطاب الديني المتجدد.

III. تكنولوجيا الاتصال الحديثة في خدمة الإسلام.

I. صورة الإسلام في الغرب عبر العصور

لقد قام الإسلام على التبليغ وأفرز مجموعة من آليات الاتصال التي تحقق بها نشر أهداف الرسالة المحمدية الداعية إلى المحبة والتآخي بين مختلف الشعوب والفئات الاجتماعية. ولقد تفطن الباحثون في علوم الاتصال إلى الدور الهام الذي لعبته الديانات الكونية في تطوير آليات الاتصال والتبليغ حتى رأى بعضهم أن هذه الديانات هي التي كانت وراء الاكتشافات الإعلامية بدءاً من الكتابة إلى المطبعة[1].

لقد شكل الإسلام على مر القرون إطاراً روحياً وثقافياً وتنظيمياً يجمع بين الشعوب الإسلامية. واحتل الإعلام الإسلامي أهمية في مستوى حجم التحديات التي واجهت الشعوب الإسلامية في الداخل والخارج. وكانت أجهزة الإعلام الإسلامية ذاتها تعاني صعوبات عديدة، نتيجة لضعف إمكانيات بعضها وغياب الخبرات الفنية لديها، وقد أصبحت تبث قيماً غير سليمة، وأنماطاً من السلوك لا تستقيم في مجتمع اليوم ومع مقتضيات المعاصَرة.

ويجب الإقرار بأن المؤسسات التي كانت تضطلع بدور الإعلام والتثقيف الديني لم تكن دائماً بمنأى عن أشكال التوظيف، بل إنها ساهمت بمناهج مختلفة في تأجيج الصراعات بين المسلمين على مختلف فئاتهم ومذاهبهم، مبتعدة بذلك عن مبادئ الإسلام السمحة وقيمه الإنسانية النبيلة، ومتناقضة مع الفكر الإصلاحي المتحرر القائم على الوسطية مبدأً والعقلانية منهجاً والنهوض بالإنسان غايةً. فالإسلام الذي اعتمد الإبلاغ لإيصال الرسالة المحمدية، والذي توفق في صهر العديد من الثقافات

(1) محاضرة ألقاها السيد عبد الوهاب عبد الله في (**بيت الحكمة**) بتونس يوم 28 يونيو/حزيران 2005.

والحضارات، كان يتطلب منذ زمن بعيد تبني خطة علمية للمزيد من النهوض بالإعلام المرئي والمسموع والمكتوب.

ويجب الإقرار من جهة أخرى أن الإعلام الدولي لم ينقل ولم يبلغ تطلعات المسلمين على وجهها الصحيح، مما أساء إلى صورتهم في الخارج.

1. الأسباب التاريخية :

كانت صورة المسلمين في القرن الماضي دوماً مشوهة في أوروبا بتأثير المستعمرين والمحتلين الذين كانوا يسعون إلى إظهار المواطن المسلم بمظهر المتخلف والمتطرف، ويعملون على تعميق الخلاف بينه وبين العالم المتقدم وزعزعة ثقة الشعوب النامية بالمسلمين. وقد بينت السياسات الغربية تجاه البلاد الإسلامية حيث بقيت متأثرة إلى حد بعيد بالتحاليل التي يقوم بها الخبراء الغربيون من أنثروبولوجيين ومختصين في العلوم السياسية على وجه الخصوص، أن تحاليل هؤلاء لا تعكس حقيقة الأوضاع في المنطقة الإسلامية، بل هي في أغلب الحالات تقدم تصورات لا تخلو من الآراء المسبقة عن الواقع العربي الإسلامي. وهي تضخم بصفة خاصة العاملَ الديني، فترى الإسلام في كل ما يمت إليه بصلة ما بالفعل، وما لا علاقة له به ألبتة، وتتغاضى عن التحولات العميقة التي يشهدها الواقع الإسلامي بمختلف أبعاده الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية، وعن الجهود التي تبذلها الفئات الواعية والمستنيرة في سبيل النهوض بالإنسان، ذكراً كان أو أنثى، وذلك بتثبيت قيم الحرية والعدل والمساواة والديمقراطية[1].

لقد جاء في محاضرة لموريس بوكاي (Maurice Bucaille) كان قد ألقاها حول ترويج الأفكار الكاذبة عن الإسلام انطلاقاً من أخطاء في ترجمات معاني القرآن، أثناء ندوة التأمت باليونسكو بمبادرة من منظمة المؤتمر الإسلامي في شهر ديسمبر 1980، «إنه لمن الصعب للغاية بالنسبة لغربي لا يحسن اللغة العربية، ويعيش في بيئة لا تخفي عداواتها للإسلام، أن تكون له فكرة دقيقة عن ماهية الإسلام، إذ ما تَعَلَّمه هذا الشخص وما سمعه في بلاده، وما يقرأه من مؤلفات، يسهم في تشويه صورة هذا الدين، لأن الكثير من المستشرفين الملمين بالرسالة المحمدية لا يفهمون الإسلام إلا كما يشتهون أن يكون بدلاً مما هو عليه». ويستدل المحاضر على ذلك بالقول : «لما شرعت

(1) د. عبد المجيد الشرفي في بحث نشره في مجلة (الطريق الجديد)، يونيو / حزيران 2005.

للمرة الأولى في دراسة القرآن راغباً التعمق في حقيقة الإسلام، كان لابد أن أستعين بتراجم المستشرقين، إلا أن ذلك كان للأسف لا يفيد بشيء، إذ عثرت على عدة ترجمات للآية القرآنية الواحدة، وعلى فروق تدل بوضوح على أن الاختلاف في المعنى يرجع سببه إلى المترجمين وإلى تأويلاتهم الخاطئة. وبعدما تعلمت اللغة العربية على المستوى الذي يسمح لي بتلاوة القرآن وفهمه، تيقنت أن بعض النيات كانت تريده غامضاً عن قصد، إما لتشويه معناه، أو لتطويعه لوجهات نظر منحازة».

أما روبار سوان (Robert Swan) الأمين العام السابق للرابطة البرلمانية من أجل التعاون الأوروبي العربي، فقد أكد في محاضرة له حول "الإسلام كما يراه الغرب" كان قد ألقاها في المناسبة نفسها «أن الموقف الذي يتخذه الغرب إزاء العالم الإسلامي يرجع أكثر مما نتصور إلى أهواء الأجيال التي سبقتنا وإلى أحكامها المسبقة، ذلك أن الدراسات الغربية الخاصة بالدين الإسلامي والمسلمين، كانت تهدف إلى تكريس تفوق الغرب من الوجهة العسكرية والتجارية والثقافية». ويضيف المؤلف : «أن الصورة التي يرى الغرب من خلالها الإسلام تتوقف أكثر فأكثر على وسائل الإعلام. ويؤكد المؤلف شعوره بأن الصحافة والتلفزيون في الغرب لا تتحرى بالقدر الكافي ولا تتردد في نشر الأنباء الزائفة بهدف تشويه واقع العالم الإسلامي». وهو يعتقد أن السبب الرئيس لكل ذلك يكمن في النفسية، إذ من طبيعة الإنسان غير المطلع أن يشعر باحتراز طبيعي إزاء من يختلف عنه.

وكانت أغلب الكتب التي تؤلف عن العرب لا تتوخى الإنصاف والدقة، بل تجاري الصورة التي استقرت في أذهان الناس عنهم. ورغم الاهتمام الذي برز في السنوات الأخيرة بالديانات والشعوب الشرقية، فإن مكتبات أوروبا وأمريكا لا تعرض إلا القليل عن العرب والإسلام. وقد لعبت الحركة الصهيونة في العقود الأخيرة دوراً خطيراً في زيادة تشويه صورة الإسلام في الغرب، وتفطن المسيحون إلى هذه الظاهرة، فاتخذوا على لسان البابا يوحنا بول الثاني (2 يونيو 1980 باليونسكو) موقفاً واضحاً من هذا الموضوع، إذ صرّح قداسته أن أجهزة الإعلام الجماهرية لا يمكن لها بحال أن تفرض هيمنتها على الآخرين، بل عليها أن تراعي قيم الأمم وتاريخها وتحترم حق الإنسان في الكرامة باعتبار أن الهوية الثقافية هي خلاصة تلك القيم.

2. التأثير الحالي لوسائل الإعلام الغربية على صورة الإسلام :

لقد كنا نعتقد أن الانطباعات التي سجلت منذ زمن بعيد تطورت بتأثير أجهزة الإعلام والقنوات الفضائية والشبكات الإلكترونية. إلا أن ما حدث قبيل ضرب ناطحتي السحاب في نيويورك وبعدها في موسكو ومدريد ولندن، يؤكد أن الصورة الإسلامية هي

في حاجة ملحة إلى المعالجة والتحسين. فقد نقلت الإنترنيت ما نشرت بعض الصحف الغربية، ومن ذلك صحيفة "الفيغارو" الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ 1 أكتوبر 2001، وفي مقال بإمضاء ابن وراق وغي هنبال، جاء فيه أن الإسلام ليس دين اعتدال وأن أغلبية المسلمين الذين يبلغ عددهم مليار شخص ليسوا مواطنين مسالمين يؤمنون بعقيدتهم ويمارسون شريعتهم بمثل بصيرة مختلف المؤمنين بالله. ويتواصل حتى اليوم الاستفزاز بشكل منسق ومخالف بكل وضوح لمضمون الفصل الثامن عشر للإعلان الدولي لحقوق الإنسان، الذي يؤكد على ضرورة احترام العقيدة الدينية لكل إنسان. وما هذا التفكير إلا نموذج لكثير مما كتب في السنوات الأخيرة حول صراع الحضارات، وما قيل منذ انهيار المعسكر الشيوعي حول حاجة العالم الغربي إلى خصم يركز عليه حقده ويمرر به العديد من اختياراته الاستراتيجية التي تستوجب التعتيم الإعلامي والكتمان والتضليل. وكان رئيس الحكومة الإيطالية السابق سيلفيو برلسكوني(*) المتضلع في الإعلام، مسانداً لهذا التوجه الهادف للحط من شأن الحضارة العربية الإسلامية، مثيراً بذلك الأحقاد والانفعال الشديد. ثم جاءت الصحيفة الإيطالية "كورياري ديلاسيرا" فزادت في الطين بلة بنشر مقال لاذع لأوريانا فلاتشي تنكر فيه البعد الثقافي للحضارة العربية الإسلامية، وتتعرض بالثلب لكل المسلمين دون أدنى احترام لأدبيات الصحافة والإعلام. وكل ذلك لا يشكل سوى الجزء الظاهر من الإشكال. ذلك أن التأثير الإعلامي يكون كذلك بالتعميم والإخفاء لما يتعين نشره وإطلاع الرأي العام عليه، بحيث لا يبقى في ذهن المواطن سوى ما تقدمه له وسائل الإعلام أو ما توحي به إليه. وها هو البابا الجديد بنيديكت السادس عشر يأتي ليثير الموضوع من جديد بالخلط بين الإسلام والإرهاب والإعلان أن الدين الإسلامي يرفض المنطق والعقل.

لكن الذي يخفف من وطأة هذه الإهانات المتكررة هو التطور الواضح للقضاء الغربي وقبول المحاكم الأوروبية مقاضاة المحرضين على الكراهية الدينية. وكانت أوريانافلاتشي هي المتهمة الأولى التي تحاكم في إيطاليا بسبب إهانة العقيدة الإسلامية من خلال مؤلفاتها، وكان المدعي عليها هو عادل سميث أحد المسلمين الإيطاليين بمساندة عفاف اجنيفان. وهذه بادرة لابد من إظهارها في تاريخ العلاقات الإسلامية الغربية. كما كان لموقف الأمريكيين المسلمين تأثير في الحد من الانفعال الأمريكي بتحركاتهم الإعلامية، ومن ذلك التشكيك في المصدر الإسلامي للهجمات التي استهدفت الولايات المتحدة وتوجيه التهمة من خلال الصحافة الأمريكية إلى وكالة

(*) أعيد انتخابه عام 2008م.

الاستخبارات الإسرائيلية (الموساد) والجيش الأحمر، وغيرهما من حركات الإرهابيين ذات الانتماءات المختلفة. وقد أكدت وسائل الاتصال الفردية الجديدة والرسائل الإلكترونية الواردة من مختلف أنحاء العالم لمواساة عائلات المنكوبين على إثر الانفجارات التي شهدتها العاصمة البريطانية، رفض المسلمين للعمليات الانتحارية مهما كان مصدرها، ومطالبتهم بإصدار فتوى لمنع مثل هذه المبادرات الأثيمة. وقد أكدت الأبحاث فيما بعد، أن الآثمين ولدوا ونشأوا في بريطانيا، وإن كانت جذور بعضهم إسلامية. ومن حسن الحظ فإننا نسجل اليوم ردود فعل أوروبية مسؤولة تراعي مشاعر المؤمنين وحرمة كل الأديان والمعتقدات.

إلا أن المنطق يتطلب منا الموضوعية والصراحة، ذلك أن مختلف المواقف الدينية المشار إليها لا تخفف من مسؤولية من انخرط في صفوف المغالين الذين أضروا بالإسلام وبمفهومه المعاصر وبسماحة الإيمان. نعم لقد شوه بعض المسلمين المتطرفين الصورة الإسلامية إلى أبعد حد، إذ قاوموا مبادرات التفتح والاجتهاد وألحقوا الأذى برجال الفكر والقلم الذين خالفوهم الرأي. فلابد من الاعتراف بأن كثيراً مما نال صورتنا الخارجية من تشويه، يعود إلى حقائق داخلية لا سبيل إلى نكرانها. وعليه فمن الأجدر توجيه ما يلزم بذله من جهد إلى تحسين الملامح السلبية لهذه الصورة والاعتماد على السياسات الواضحة التي ترفض ازدواجية الخطاب وتواجه الإرهاب مهما كان مأتاه.

ونحن نشعر دائماً بالأسى لعجز الذكاء العربي الإسلامي عن اقتحام حواجز هذه الكراهية والتعريف بالجوانب الإيجابية والإنجازات الثقافية للأمة الإسلامية لدى شعوب الغرب. كما أن التحركات على الساحة الدولية لم تكن فعالة بالقدر الكافي في تصحيح الأوضاع. ويستوجب ذلك القيام بعمل سريع لسدّ الثغرة القائمة بين المسلمين وشعوب أوروبا وأمريكا، وذلك للوقاية من أخطار جسيمة لا تهدد العلاقات مع هذه المجتمعات فحسب، ولكنها قد تهدد استقلال البلاد الإسلامية وأمنها ومقومات وجودها.

ولا يكون هذا التعايش ممكناً إلاَّ بالسعي إلى تطوير الصورة الحاصلة، وتحسينها حتى تقترب أكثر من الهدف المطلوب، بمجهود متواصل للتأثير في الرأي العام من خلال أداء مسؤول يحظى بالقبول على أساس تفاعلي بين المرسل والمتلقي، بحيث يهدف كل طرف إلى إقناع الطرف الآخر بصواب مواقفه وعدالة قضاياه. ويتسم هذا النشاط بالانتظام والاستمرارية، ولا يتوقف عند الحملة الظرفية لمواجهة أزمة عارضة أو استرجاع ثقة نازلة. والجماهير هي الطرف المستهدف، وهي جماعة واعية مكونة من أفراد لهم قضايا ومشاغل مشتركة. وهذا المسعى لن يتحقق إلا بتوظيف المناهج

العلمية وباعتماد تقنيات الاتصال الحديثة الملائمة، ولابد من التمييز في هذا الصدد بين المنهجية العلمية الحديثة، وبين التكنولوجيا والوسائل العصرية التي يتعين اعتمادها لتغيير هذا الواقع المؤسف.

إن هذه الصورة لن تتحسن إلا من خلال خطة متماسكة وبرامج عمل متواصل يعتمد على منهجية علمية أثبتت الأيام صحتها وتطورت على ضوء نتائج البحوث المعمقة والحديثة. ويعود هذا المجهود إلى جميع الأطراف المعنية، وفي مقدمتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وسائر الجمعيات والمنتديات الاجتماعية. فنحن أمام وضع عالمي جديد ولابد أن يكون للإسلام والمسلمين مكان في هذا المجتمع المعولم.

II. مقومات الخطاب الإسلامي الحديث

لقد أصبح الإعلام الاجتماعي مفهوماً علمياً مستنداً إلى مرجعية فكرية في كل مراحل الممارسة والتطبيق، والإعلام المؤثر يستدعي أيضاً الاجتهاد وسعة الخيال والمهارة. فإذا قررنا توظيفه لخدمة الإسلام وللمساعدة على مواصلة نشر الرسالة المحمدية، فإنه يتعين علينا الإلمام بكل قواعده والتعرف على المناهج التي اعتمدتها أطراف أخرى مماثلة لتوظيفه على الوجه الأمثل. فالسياسة والعقيدة والثقافة ترتبط كلها في مجتمعاتنا المعاصرة مباشرة بالبعد الإعلامي.

1. مناهج التبليغ الحديثة والآليات :

لم يسبق لعلم من العلوم الصحيحة أو من العلوم الاجتماعية أن شهد في نصف قرن ما شهده قطاع الإعلام بوظائفه المتعددة من اهتمام ومتابعة في مختلف المستويات. وقد جاء البحث العلمي مدعّماً المكانة المتنامية لهذا القطاع في الاستراتيجيات الشاملة للعمل السياسي والنشاط الاقتصادي والاجتماعي والتفاعل الثقافي. فالإعلام بكل فروعه وأنواعه، يؤثر في الوجدان والعقل فهو الذي يحدد الخيارات العامة ويرتب سلم الأولويات الاجتماعية ويصنع الاقتناعات ويرسم المواقف داخل المجتمع الواحد. وقد أثبتت التجربة أن التأثير عبر الحواس هو أكثر وقعاً من مخاطبة العقل.

أ) مفهوم الإعلام الاجتماعي :

تدل كل المؤشرات على أن العمل الإعلامي الهادف إلى التأثير في الرأي العام سيزداد أهمية على مر الأيام بحيث يكون هو المستفيد الأول من قنوات الاتصال

الحديثة والشبكات التفاعلية العريضة التي ستجسم مجتمع الإعلام والاتصال والمعلومات. وسيتزايد تأثير القوة الإعلامية في العلاقات الدولية بحكم الاختراعات الحديثة والابتكارات التكنولوجية المتطورة التي تمكن من بث المعلومات وإبلاغها بصورة مباشرة وسريعة إلى مختلف المناطق والقارات.

وهذا ما دفع بالمسؤولين في المجتمعات المصنعة إلى اعتماد مختلف وسائل الاتصال الحديثة لتحقيق الأهداف الاستراتيجية من خلال الرسائل الإعلامية والعلاقات العامة أو بطريقة الإيحاء الخفي.

ومن المؤسف أن هذا الاقتناع لم يرسخ بعد بنفس الدرجة في المجتمعات النامية، وأن الكثيرين من المسؤولين في البلدان الإسلامية ما زالوا على غير اقتناع بجدوى الإعلام الاجتماعي وبفائدة توظيفه، رغم توفر الحجة القاطعة والنتائج الملموسة.

ب) قواعد الاتصال الاجتماعي :

لقد أتى مصطلح الاتصال لتوسيع مفهوم الإعلام وللتأكيد على ضرورة الإقناع حتى الوصول إلى التأثير الحاسم وتغيير الرأي والسلوك بهدف إصلاح المجتمع. وهو مرادف للعمل الإعلامي الهادف إلى توضيح الحقوق وترسيخ القيم الأساس أو تغيير المفاهيم الاجتماعية المنافية للإصلاح والتطوير. وعبارة الاتصال الاجتماعي كثيرة التداول في هذا العصر، ويختلف مفهومها ومدلولها باختلاف مستعمليها ومجالات استخدامها. وفي كل الحالات فإن الاتصال الاجتماعي يعتمد على أسس علمية وعلى منهجية مدققة تتمثل في :

- **الخطة :** لتحديد الهدف والوسائل.
- **الشعار :** لاختزال الفكرة المراد إبلاغها وتصور الحملة الاتصالية.
- **الرمز :** لتجسيم الرسالة بالصورة الإيحائية أو الرسم المعبر.

وتتولى أطراف عدة عمل الاتصال الاجتماعي، ومنها الهيئات العامة والمؤسسات الخاصة والمنظمات غير الحكومية. وقد وظفت تقنيات الاتصال الحديثة في مجالات عدة فسجلت نتائج فائقة. ويشمل الاتصال الاجتماعي ثلاثة أصناف :

- الاتصال الهادف لتغيير السلوك.
- الاتصال الإخباري حول الحقوق والواجبات.
- الاتصال لتحسين الصورة أو ترويج المنتجات والخدمات.

الاتصال الهادف إلى تغيير السلوك :

يهدف هذا الصنف إلى تغيير أنواع السلوك وتطوير العلاقات الفردية والاجتماعية ومقاومة انتهاك الحرمات ومناهضة العنصرية والإساءة إلى الأطفال... إلخ. والعمل من أجل تغيير السلوك المطلوب، يمر بخمس مراحل على الأقل، وهذه المراحل هي الوعي والإلمام بالخبر والاهتمام بالمضمون والتقييم لصحة المعلومة والتعرف على تجارب الآخرين والتبني الجماعي للرسالة والعمل بمقتضاها في نهاية الأمر.

الاتصال الإخباري :

يتمثل هذا الصنف في تقديم أحدث العناصر الإخبارية حول حقوق المواطنين من نساء وأطفال ومسنين. ويقحم في ذلك الإعلام الهادف إلى توضيح السياسة الحكومية في المجالات الاجتماعية والاقتصادية مثل التشغيل والوقاية الاجتماعية وتطوير قانون الأداءات الجبائية.

تحسين الصورة :

إن المقصود بهذا الصنف هو تحسين الانطباع السائد في ذهن المواطن حول نوعية الخدمات التي تؤديها المصالح العمومية والعناية بصورة الهيئات والمؤسسات الحكومية وموظفيها المتصلين بالجمهور. كما يهدف التحرك الإعلامي في هذا الإطار إلى الرفع من سمعة المؤسسات الاقتصادية ببحث مواطن الضعف وإبراز مجالات المعالجة والتحسين. وقد اعتمدت هذه التقنيات لتحسين صورة بعض الأنظمة السياسية والشعوب لدى شعوب أخرى.

ولابد في هذا الصدد من التمييز بين الصورة (image) والسمعة (réputation). فإذا كانت الأولى تعني المشهد الثابت، فإن الثانية تعني الشريط المتحرك أي مجموع الصور المتلاحقة والمتناغمة. ولذلك فإن الحالة الأولى ترسخ في الذهن انطباعاً واحداً، بينما تخلد الثانية مجموعة من المناظر. ولذلك فإنه من الأيسر فسخ تأثير صورة واحدة في الذهن من حذف وقع مجموعة من المشاهد في آن واحد.

ج) وسائل الاتصال الاجتماعي :

إن مختلف أصناف الاتصال الاجتماعي تسعى بطرق ديمقراطية لحمل الجمهور العريض على التشبع باختيارات المجتمع تجاوباً مع المحيط والحاجة والأهداف الوطنية الدولية. وهذا العمل مرتبط بتقنيات الاتصال، وبحسن اختيار الوسائل الإعلامية حسب نوعية الإشكال. وهذه الوسائل تتكامل أحياناً، إلا أنه ليس من

الضروري استعمالها بأكملها في الوقت نفسه. وبالإضافة إلى الوسائل التقليدية المعروفة، فإنه لابد من إضافة الآليات الأخرى، ومنها التسويق المباشر والتسويق عن طريق البريد والفاكس والهاتف والعلاقات العامة ومختلف وسائل الاتصال الإلكتروني الحديثة. وهي تتشكل من صنفين : وسائل الاتصال الجماعية ووسائل الاتصال الفردية.

ولا ينبغي الاقتصار على العمل الظرفي الارتجالي، فمن هذا المنطلق تأكدت ضرورة الاستناد إلى العمل المرحلي المخطط له وتبني الأفكار الجديدة والالتزام بها.

د) مدى تأثير الاتصال الاجتماعي :

يستدعي الإعلام الاجتماعي الاجتهاد والتصور وسعة الخيال للخلق والإبداع، وهو مهنة تتطلب التدريب والتخصص. فالإعلام الاجتماعي يستوجب التعرف على الجمهور المقصود والمقدرة على قياس مفعول الخطاب ومدى تأثيره في السلوك. وكل هذه المراحل تستدعي البحث العلمي والاعتماد على جوانب عديدة من مبادئ الرياضيات وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم الإنسانية. وإذا انتهجنا الطرق العلمية وأحسنا استعمالها، فإننا سنتمكن من التعرف الكامل على خصائص الجمهور الذي نريد مخاطبته ومن اختيار الوسائل الإعلامية الملائمة.

كما أن التقييم العلمي يمكن من إدراك درجة التغيير الحاصلة أو التعرف إلى أسباب الرفض والتجاهل للخطاب. وقد ساعد تطور تقنيات استطلاع الرأي على الضبط السريع لنسبة المشاهدين لهذه أو تلك من القنوات التلفزيونية ومن تقييم مدى التأثر ببرامجها.

وقد أدخل جهاز "الوديمات" تحسينات كبرى في هذا المجال، هذا الجهاز هو مودام صغير يساعد على الربط بين عينة من المشاهدين ومراكز التقييم.

2. مدى تفاعل الخطاب الديني مع قواعد الإعلام الاجتماعي :

لقد خلّف الغزو الفكري أثراً كبيراً في عقول الشباب الذي يمثل القوة المؤثرة في كل مجتمع، فحاولت بعض الحركات الدينية التصدي لهذا الغزو، إلا أنها لم تكن واعية بالتحديات الحقيقية التي يجب رفعها، ولم تكن لها خطط مستقبلية للمواجهة فتشبثت في الأغلب بحلول الماضي البعيد مفصولة عن سياقها (كالخلافة نظاماً للحكم، والمرأة للتناسل والمتعة، والحدود الفقهية شريعة لازمنية، إلخ...)، وتمسكت بالطقوس الشكلية والبدائية أحياناً، فوقعت في الفخ الذي نصبته لها السياسات المناوئة، وهي تحسب أنها تقاوم مؤامرات الغرب على الإسلام والمسلمين.

أما السياسات الإعلامية الرسمية، فإنها لم تقدر على مخاطبة الفئات المستهدفة بلغة العصر وإلقاء الضوء على المناورات التي تريد النيل من قيم ديننا الحنيف والتشكيك في مدى تلاؤمها مع كل تطور وتجدد عبر التاريخ. كما أنها لم توفق في مواجهة تلك التيارات المتطرفة التي تعبث بقيمنا وتعمد إلى تشويش العقول البريئة للمراهقين من أبنائنا. ولم يوظف الإعلام الاجتماعي لمقاومة أولئك الذين يستعملون الدين الإسلامي مطية سياسية لإدخال الفوضى وعدم الاستقرار والرجوع بنا إلى الوراء، فيسلطون على الشباب إرهاباً فكرياً للزج به في متاهات التمرد والعصيان. والأمثلة كثيرة في هذا السياق، ومن ذلك رفض المصارحة بأن المسلمين لا يمثلون غير 18% من سكان المعمورة ونصفهم مغيب والمقصود بذلك هي المرأة أساساً.. وبما أننا بصدد توزيع الأدوار، فهل يمكننا تجاهل ما نادى به بعض رجال الإفتاء من تحريم استعمال الأنترنيت على النساء المسلمات[1].

والكنيسة تجابه من حين لآخر مثل هذه التناقضات. إلا أنه لابد من تأكيد اهتمامها بمفهوم الاستراتيجية الإعلامية لخدمة المسيحية. ويستحضرني هنا ما حاول الإقدام عليه، بعض الإعلاميين المسيحيين في نهاية سنة 1999 للاحتفال بحلول الألفية الجديدة، حيث خططوا لإطلاق صاروخ كبير في شكل كنيسة ليكون أول معلم ديني على سطح القمر. ومن حسن الحظ أن عدداً من العلماء والباحثين المسلمين المعنيين بشؤون الفضاء، عارضوا هذا المشروع ورأوا من الأنسب الاتفاق المسبق بين مختلف المجموعات الدينية على برنامج عالمي حول نقل التراث الإنساني من الأرض إلى الكواكب والأجرام السماوية التي وطأتها أو ستطأها في المستقبل أقدام الإنسان. كما رأوا أنه آن الأوان لوضع قائمة في المعالم التاريخية، التي يتعين إحياؤها وبناء مثلها على القمر وعلى سطح المريخ وغيرها، وكذلك الأسماء الخالدة التي يتعين إطلاقها على المستوطنات الفضائية القادمة، فهل استعد المسلمون لهذا المشروع الكوني العملاق ؟.

والجواب حتى اليوم هو النفي والإقرار أننا مررنا منذ 26 سنة من القرن الهجري إلى آخر دون أدنى مبادرة لتخليد هذا التاريخ أو أي توظيف إعلامي لتلك المناسبة الفريدة. فلم يكترث المؤرخون كثيراً بحلول سنة 1400 بل اقتصر البعض من رجال الدين إذاك بتعلات مختلفة على مهاجمة من حاول تحديث الخطاب الإسلامي وتحسين

---

(1) صحيفة (**القبس**) الكويتية بتاريخ 2004/11/12، تحت عنون فتوى جديدة «لا أنترنيت للمرأة إلا ومعها محرم».

صورة المسلمين وسمعتهم المتجذرة في الغرب، بمناسبة حلول القرن الهجري الخامس عشر، ولفت انتباه الرأي العام الغربي إلى أهمية هذه المحطة التاريخية[1].

III. تكنولوجيا الاتصال الحديثة في خدمة الإسلام

من الواضح أن مفهوم السياسة الإعلامية يشمل مختلف الأنشطة التي تمارسها وسائل الاتصال، وهذا النشاط ليس حكراً على الإذاعة والصحافة والتلفزيون، وإنما يمتد إلى مختلف مؤسسات وسائل الاتصال الحديثة والشبكات الإلكترونية والثقافية والتعليمية والاجتماعية، وذلك بالإضافة إلى التنظيمات المهنية وأجهزة العلاقات العامة. ومن أجل هذا تتنزل حتمية التنسيق في إطار سياسة متكاملة وواضحة، تفادياً للتناقض والتكرار وإهدار الطاقات والأموال.

كما أن جل البحوث كانت تنادي باستخدام جميع قنوات الاتصال، بما فيها الجامعات وأقسام الدراسات العربية الإسلامية في مختف البلدان الغربية، باعتبار الدور الذي يمكن أن تلعبه في مجال نشر المعلومات وإبراز الإنجازات الثقافية وتصحيح صورة المسلمين في أذهان الأجيال الصاعدة من الغربيين.

إنه من المحتم الاعتراف بتلك الفضاءات الجديدة التي أفرزتها منظومة العولمة، كما أنه لا مفر من الاعتراف بدور أجهزة الإعلام بكل أشكالها، في التغييرات التي طرأت على مظاهر السلوك الإنساني في هذا العصر الذي لم يعد فيه وجود لأي حواجز ثقافية أو فنية، حيث دخلت أجهزة الإعلام كل بيت وانتشرت القنوات الفضائية وأصبح الكمبيوتر الشخصي مرافقاً للإنسان في كل مكان. والخطاب الإعلامي الموجه للخارج ينبغي أن يراعي مستقبل ثلاثة اعتبارات :

- انخراط المسلمين في مجتمع المعلومات.
- الدور المتميز لوسائل الاتصال الفردية الحديثة.
- توظيف المناهج والآليات الإعلامية الجديدة التي أصبحت من مقومات العمل السياسي.

1. انخراط المسلمين في مجتمع المعلومات :

إن العلاقة بين منظومة العولمة ومفهوم الحضارة في مجتمع المعلومات في حاجة إلى تحاليل ودراسات معمقة، غير أنه يمكننا إبراز بعض جوانب هذا التناغم

(1) يجدر التذكير بردود الفعل الصادرة عن بعض رجال الدين المتشددين حول مقال نشرته صحيفة (لوموند) الفرنسية لأحد الإعلاميين المسلمين في تلك المناسبة بتاريخ 4 فبراير 1981.

الثلاثي من خلال ما كُتِبَ حول الموضوع في السنوات الأخيرة. لقد اهتمت مختلف المنظمات الإسلامية بموضوع مجتمع المعرفة، وشاركت بكل فاعلية في الاجتماعات التحضيرية للقمة العالمية لمجتمع المعلومات. وكان التصور الاستراتيجي حسب أوراق العمل التي تم التباحث فيها في مختلف المستويات ومن كل القطاعات، يتمثل في مجموعة من المبادرات المشتركة وخطة متكاملة للقرن الجديد. ومن عناصرها برنامج إسلامي لتنمية تكنولوجيا الاتصال والمعلومات ونشر تطبيقاتها لخدمة الاقتصاديات، وتحقيق التكامل الإسلامي في مجال صناعة البرمجيات قصد الوصول إلى سوق مشتركة في هذا القطاع، وإعداد الكفاءات وتأهيلها وإنشاء صناديق للاستثمار ومعاهد للبحوث في هذا الميدان وتبادل الخبرات والتجارب، وتوظيف الكفاءات المهاجرة والتعاون معها، والعمل من أجل الشراكة والزيادة في حجم الاستثمارات ذات الصلة بهذا المجال، وكذلك توفير الحواجز لدعم صناعات هذه التكنولوجيا وتنميتها وتوطينها ونقلها إلى الآخرين بكل ما تتيحه من آليات[1].

إن ظهور ثورة المعلومات وتطور تقنيات الاتصال الحديثة من شأنهما أن يؤثرا تأثيراً مباشراً في العملية الإعلامية من حيث أساليبها وأهدافها في العمل السياسي والتحرك الدبلوماسي. فالأمر يتمثل في تحقيق التأهل الشامل حتى يكون الحوار قائماً بين أطراف متكافئة وفي ضوء رؤية مستقبلية تنبذ الرجعية والانغلاق وتنشد التفتح والعدل والديمقراطية.

ويرى الأخصائيون أن ممارسة الحياة السياسية ستتأثر كثيراً بتطور تقنيات الإعلام، إذ ستكون الديمقراطية المباشرة قابلة تقنياً للتحقق لأول مرة في التاريخ، وهو ما سيتيح المشاركة اليومية في الحياة السياسية، والقدرة على مجابهة أشكال الضغط. وسيكون ذلك من خلال المراسلات الإلكترونية ونظام المحاضرات عن بعد عبر الإنترنيت والأقمار الصناعية، وإلى غير ذلك من التقنيات. وفي هذا المحط الجديد سيصبح بإمكان المتخاطبين أن يتعارفوا بمزيد الدقة والوضوح دون حاجة إلى اللقاء المباشر أو الاجتماع العمومي[*].

ومن جهة أخرى، فإن امتداد الطريق السريعة للمعلومات عبر الحدود، سوف يكون له أثر كبير في الإعلام الخارجي، لأن وسائل الاتصال الحديثة ستساعد من خلال

---

(1) يمكن مطالعة مختلف الوثائق التي أعدتها حول الموضوع منظمة المؤتمر الإسلامي.

(*) أعدّت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ (**استراتيجية تطوير تقانات المعلومات والاتصال في العالم الإسلامي**). واعتمدها المؤتمر الإسلامي الخامس لوزراء الثقافة (طرابلس 2007م).

البنية التحتية ومن خلال المضمون، على مجابهة المشاكل الجديدة مثل اتساع ظاهرة الإرهاب وانتشار المخدرات وتلوث الجو والبحار، إضافة إلى مختلف المضاعفات الناجمة عن منظومة العولمة الاقتصادية، وانصهار المصالح العليا للدولة في صلب المصلحة الكونية. إلا أن ما تتيحه الثورة الاتصالية من إمكانيات وما ينجز عنها في الوقت ذاته من تيارات تخترق الحواجز والمسافات، كل ذلك يستدعي اليقظة الكاملة والحذر. ذلك أن الشبكات التلفزيونية الفضائية ومواقع الإنترنيت ليست كلها مع الأسف، ملتزمة بالضوابط الأخلاقية، ففيها الإثارة، وفيها ما يدعو إلى خرق القوانين، وفيها ما يحث على الكراهية والعنف والإرهاب.

وفي هذا الإطار يجدر مقارنة الحوار الذي يجري اليوم حول فرص الاستفادة من الشبكات الرقمية بالجدل الذي ساد في السبعينيات حول مفهوم النظام العالمي للإعلام والاتصال، وهو حوار متواصل يتعلق بمصير الإنسانية، ويهم بلدان الشمال وبلدان الجنوب على حد سواء، كما يهم المسلمين على وجه الخصوص. ولابد من التفكير في هذا الموضوع بصفة معمقة والنقاش في شأنه على أوسع نطاق، وعلى أساس احترام حق الإنسان في الإعلام الموضوعي النزيه، والاستناد إلى القوانين الدولية المستمدة من البند التاسع عشر للإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1948)، والإعلان العالمي حول دور وسائل الإعلام في تكريس الأمن والسلم الذي صادقت عليه المجموعة الدولية بأكملها في سنة 1978.

فلا يفوتنا أن الحوار العالمي حول الحرية الإعلامية وتدفق المعلومات والخصوصية الثقافية، انتقل من المنظمات الأممية المعنية بالثقافة والعلوم، إلى المنظمات التجارية والاقتصادية، ومن المنابر الدولية إلى المؤسسات التجارية. وقد تفاوتت الآراء بين صانعي القرار وبين ممثلي المنتجين والمستهلكين وتفاقم الخلاف بين المدافعين عن التحرير المطلق للإعلام، وبين حماة الأخلاق الفاضلة من خلال القوانين الدولية وآداب السلوك.

2. الدور المتميز لوسائل الاتصال الفردية الحديثة :

لقد ظهر شكل اجتماعي جديد من التواصل من قبل كل فرد على حدة، ويقوم هذا التواصل الجماهيري الفردي على الأنترنيت وكذلك على تطوير الهواتف المحمولة. فهناك حتى يومنا هذا أكثر من مليار مستخدم لشبكة الأنترنيت وحوالي ملياري خط هاتف محمول. وفي استطاعة ثلثي سكان الأرض التواصل بفضل الهواتف المحمولة، بما فيه الأماكن التي ليس فيها كهرباء ولا خطوط هاتفية ثابتة. وخلال فترة قصيرة

جداً تفجرت أشكال اتصال جديدة. فقد طور الناس أنظمتهم الخاصة : الاتصال بالاعتماد على رسائل هاتفية (SMS)، صفحات خاصة على الأنترنيت (Blog)، اتصال هاتفي عبر الكمبيوتر (Skype). هناك أيضاً النظام الـ (P2P)[1] الذي يجعل من الممكن نقل أية معطيات مرقمة. وفي شهر أيار / مايو 2006 كان هناك 37 مليون صفحة خاصة على شبكة الأنترنيت أو Blog (مقابل 26 مليون قبل نصف سنة) ؛ إذ يتم إحداث صفحة خاصة كل ثانية في العالم، أي ما يعادل أكثر من 30 مليون في السنة، ويواصل أصحاب هذه الصفحات تغذيتها لفترة تتجاوز ثلاثة أشهر من فتحها، ويتضاعف عددهم كل ستة أشهر. وتتنوع لغاتهم إذ أصبحت الإنجليزية التي كانت هي اللغة المسيطرة على الأنترنيت، لا تحتل سوى ثلث المواقع.

إن حركة العولمة البديلة التي تعارض الرأسمالية الشاملة أصبحت تستخدم الأنترنيت وجميع مصادر الاتصال الفردي الجماهيري، ليس فقط كوسيلة تنظيمية، إنما أيضاً كفسحة للمناقشات والمداخلات. كما أنها طورت من خلال تلك الشبكة قدرة التأثير على وسائل الإعلام المسيطرة، مروراً بسلسلة الشبكات المتناوبة الأخرى. ذلك إضافة إلى تلفزيونات الشوارع أو الإذاعات ووسائل الإعلام البديلة المرتبطة ببعضها، وهو ما يمثل نظاماً إعلامياً جديداً بالفعل يساعد على التحريك السياسي الفوري والسريع عبر الهواتف المحمولة. فقد كان لهذه الموجة العاتية نتيجة مذهلة في كوريا الجنوبية والفلبين وأوكرانيا وتيلاند والنيبال والإكوادور ومختلف البلدان الأوروبية. ولعل أكبر دليل على ذلك هو ما حصل في إسبانيا لدى هزيمة الحزب الشعبي في الانتخابات التشريعية في آذار / مارس 2004، حينما راجت شكوك حول التلاعب بالمعلومات من قبل السلطات التي كانت تسعى إلى تحميل مسؤولية اعتداءات مدريد لمنظمة "إيتا" الانفصالية، وتم تناقل عدد هائل من الرسائل الهاتفية عبر الهواتف المحمولة، مما سمح بتنظيم تظاهرة احتجاجية ضخمة، في يوم كان يبدو نظرياً أنه من غير الممكن التعبير عن أي أمر له علاقة بالسياسة بسبب تأثير الصدمة والحزن. وفي مجال الدين يمكن التذكير بتجربة مسلمي أمريكا وأوروبا الذين اعتمدوا على هذه الوسائل الفردية لتنسيق المواقف فيما بينهم من أجل دحض الاعتداءات المغرضة على إثر بعض مظاهر العنف المنسوبة خطأً للإسلام. كما أن هذه الوسائل الفردية ساعدت على مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية الأخيرة على لبنان، إذ قلصت من نتائج الاستهداف

---

(1) Peer to Peer = P2P وهو نظام يقوم بوظيفتي الزبون وموفر الخدمات، للمزيد من المعلومات حول هذه النظم يمكن مراجعة الموقع http//ar.wikipedia.org/wiki/P2P

الإسرائيلي للمحطات الكهربائية والتلفزية ولمراكز الاتصالات، ومكنت الأفراد والجمعيات من كشف الحقائق العسكرية المراد إخفاؤها، فحركت الرأي العام العالمي على أوسع نطاق.

إن ذلك لا يعني احتكار من طرف السلط لوسائل الإعلام العمومية من جهة، واحتكار فردي لهذه التقنيات الحديثة مرتبط بالحركات الاجتماعية من جهة أخرى، فالجهتان تعتمدان على كلا الوسيلتين الإعلاميتين. إلا أن تطور شبكات التواصل الفردي منح المجتمع المدني قدرة أكبر على التحكم بالأمور والتدخل، وقدرة أعلى على التنظيم الشعبي لأولئك الموجودين خارج النظام التقليدي. لذلك فإن ما نشاهده أمامنا مع هذا الانفجار لوسائل التواصل الجماهيري الفردي، يتجلى وكأنه استنباط وتصوير لأشكال جديدة وعلاقات دولية متطورة. وقد يشكل هذا النظام الحديث فرصاً جديدة لخدمة صورة الإسلام، وكذلك لحوار ثقافي واسع بين الحضارات والأديان[1].

3. المناهج والآليات الجديدة لدعم الخطاب الإسلامي في المجتمع الإعلامي

لابد من التذكير في هذا الإطار بما يمكن لبعض القادة العرب والمسلمين من مواقف تاريخية، نبهتنا منذ أواسط القرن الماضي، إلى ضرورة اعتماد الوسائل التثقيفية والتضامنية والإعلامية، من أجل تعزيز السلم والرخاء في العالم، ودعم سبل الحوار والتفاهم بين الشعوب والأديان والحضارات وترسيخ قيم التسامح.

وقد توسعت مجالات استخدام شبكة الأنترنيت وباقي الوسائط الإعلامية الحديثة التي تختلف مضامينها، إذ نجد بعضاً منها ذات نزعات إيديولوجية غارقة في الظلامية، أساسها التضليل وتزييف الحقائق ونشر الأراجيف التي ليست من الدين في شيء. ولا تخفى التأثيرات لهذه الوسائل الجماهيرية في عقول عامة الناس، وخاصة منهم الشباب، مما يدعو إلى ضرورة التصدي للأفكار المتطرفة ودحض مزاعمها وترهاتها. فالتحرك الإعلامي مطلوب بكل إلحاح، وإذا أردنا بناء خطتنا المستقبلية على قواعد علمية، فما علينا إلا الاعتماد على الأسس التي تأكدت جدواها في مجتمعات أخرى ونجحت في تطوير توجهات الرأي العام بها. فالمقومات النظرية للإعلام الاجتماعي يمكن توظيفها بكل نجاعة لخدمة صورة الإسلام وسمعة المسلمين. فالأهداف واضحة والطرق الملائمة لذلك مهيأة والوسائل متاحة.

(1) مجلة Le monde diplomatique لوموند ديبلوماتيك، العدد الثامن، شهر أغسطس، 2006.

الأهداف

لقد كتب الكثير حول هذا الموضوع، وثبتت على مر الأيام مجموعة من الاعتبارات. وقد تعمق المشاركون في هذا الموضوع خلال اللقاء الإعلامي الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي في 15 أبريل 2006 بمكة المكرمة، بهدف التصدي إلى تداعيات أحداث 11 سبتمبر وتصحيح الانطباعات السلبية عن الإسلام.

فخرج الباحثون بمجموعة من التوصيات الهامة، نذكر منها :

* الدعوة إلى تمسك الأمة الإسلامية بثوابتها الدينية وبتراثها الفكري والثقافي والتربوي وبمنظومة القيم التي جاءت بها الشريعة الإسلامية السمحاء، وذلك مع مراعاة ثقافة المخاطب وكيفية توصيل الرسالة إليه.
* توظيف المناهج الإعلامية الحديثة في خدمة القضايا الإسلامية وإبراز معاني الرسالة المحمدية التي تؤكد على الحرية والسلام والعدالة والحوار، وتسعى للتفاهم بين الشعوب وتعميق العلاقات الودية القائمة على التعاون والمحبة بين البشر جميعاً.
* تنظيم الحملات الإعلامية المستندة إلى أسس علمية حديثة لصدّ محاولات الإساءة إلى الإسلام، وتفنيد الافتراءات على حقائقه التي تشنها جهات مناوئة، ودفع تهمة الإرهاب عن الإسلام والمسلمين.
* الاستفادة في الخطاب الإعلامي الحديث وتدعيمه بالآراء والأفكار الإصلاحية النيرة للعلماء المسلمين والأئمة الصالحين.
* الدعوة إلى إعداد مشروع رقمي متكامل يطلق عليه اسم "الحاسوب الإسلامي" لنشر القيم الإسلامية لدى الشباب في مختلف أنحاء العالم.
* المساعدة على ابتكار حاسوب للتعليم قابل للانتشار بأقل التكاليف مثل الحاسوب الأخضر.
* التخطيط لإطلاق صاروخ نحو القمر في شكل منارة بالتنسيق مع الأديان السماوية الأخرى، لنؤكد في كل لحظة تعلق الإسلام بالسلام وتمسك المسلمين بالتعايش السلمي.
* تكوين لجنة رفيعة المستوى مؤلفة من علماء متخصصين في علوم الإعلام والاتصال والعلاقات العامة والشؤون الدينية، وتوكل إليها مهمة وضع استراتيجية متكاملة لحصر الأهداف ووضع الخطة وضبط المراحل التنفيذية وتحديد الشعار وضبط آليات التقييم.

الخطة

تتمثل في توضيح الأهداف التي سبق ذكرها مع ترتيب الأولويات، واعتبار المستوى الفكري للمجتمع المستهدف وتحليل هذه الأهداف في ملحقات مرجعية وفي ثلاثة مستويات :

- مستوى محلي في نطاق برنامج متماسك وغير متناقض مع البرامج الإقيمية الأخرى المماثلة.
- مستوى إقليمي إسلامي ويكون الهدف من الرسالة تقريب وجهات النظر بين المسلمين من القضايا العالمية والتحديات الكبرى.
- مستوى عالمي يهدف إلى إبراز نقاط الوفاق مع الأديان الأخرى، وخاصة منها الأديان السماوية ومجالات التفاهم بينها.

المراحل

إن الخطة لا يمكن أن تأتي بمردودها، إلا إذا كانت على عدة مراحل، تكون الأولى للإعلام ببعض الحقائق، والثانية للإقناع بها، والثالثة لحمل المجتمع على تغيير سلوكه كنتيجة لذلك. وتتطلب هذه المرحلة فترة أطول ومجهوداً أكبر، خاصة أن الأمر يتعلق بتغيير وضع متجذر في أعماق التاريخ كما لاحظنا في البداية.

الشعار

وقد يكون هناك شعار رئيس وشعارات فرعية : ويكون الشعار الأول رابطاً بين الإسلام والسلام باعتماد الآية الكريمة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾.
أما الشعارات الظرفية، فهي تختلف من مستوى إلى آخر، ويمكن ربطها بالآيات التالية :

أهداف الشعار	الآية الكريمة	السورة
الشعار الرئيس	﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾	البقرة، الآية 208
شعار موجه لغير المسلمين	﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾	البقرة، الآية 256
شعار موجه للمسلمين بالخارج	﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾	آل عمران، الآية 104
شعار موجه للمسلمين في داخل البلدان الإسلامية	﴿ **لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾	الرعد، الآية 11

التقييم والمطابقة للواقع

وهذا يعني ضرورة التأكد من جدوى الخطة في مختلف مراحل التنفيذ، ومن مطابقة مضمون الرسالة مع الواقع، فلا مجال للادعاء أمام الغير «إننا اليوم أحسن أمة أخرجت للناس» إذ أننا واعون بنقائصنا.

الرمز المعبر

يكون الرمز عادة من خلال عنوان مختصر أو صورة معبرة أو علم يرفرف أو لحن موسيقي، أما بالنسبة لموضوع يتصل بالإسلام، فلا يصح أن يكون ذلك بوسيلة تقليدية، وإنما بالاجتهاد لاختيار رمز متميز لم يسبق له مثيل. ولم لا يكون ذلك بالإعلان عن مشروع حاسوب إسلامي أو تركيز جامع على سطح القمر.

الخاتمة

إن الاستراتيجية الإعلامية أصبحت ضرورية أكثر من أي وقت مضى لمعالجة صورة الإسلام وسمعة المسلمين شرقاً وغرباً، ولابد من وضعها بكل مقوماتها موضع التنفيذ. لقد دفعنا الثمن غالياً لمحاولة فسخ آثار أحداث سبتمبر 2001 دون نتائج تذكر. فهل نحن موافقون على دفع ثمن حاسوب إسلامي متميز مستند على منظومة إعلامية رقمية شاملة وبرمجيات تعريف من حين لآخر بالفضائل الإسلامية. وهل نحن مستعدون لإقامة مَعْلَم إسلامي متكامل مع الحضارات الأخرى فوق سطح القمر كمنارة لكل المهتدين ندعو منها للسلم والمحبة ونحث من خلالها على التآخي والتعايش بين كل الشعوب والأديان. وقد تساعدنا هذه المنارة بإشعاعها على توحيد الرؤية الشهرية والتقريب بين المسلمين وتكون رمزاً لتطلعهم للمعرفة والعدالة والعلم والحداثة.

الإسلاموفوبيا : دلالات المصطلح وأبعاده

ذ. محمد قجة (*)

"الإسلاموفوبيا".. مصطلح بدأ يتردد بكثرة وبإلحاح على صفحات الجرائد وقنوات الفضاء ولغة السياسيين. ولعل الترجمة الأدق لهذا المصطلح المراوغ هي **"التخويف من الإسلام"**.

منذ أيام أطلق الجنرال الأمريكي "جون أبي زيد" تحذيراً يقول فيه : "إذا لم يتم التصدي للتشدد الإسلامي بحزم، فإن الحرب العالمية الثالثة سوف تقع لا محالة".

وهذا التصريح التحذير... لا يأتي من فراغ، بل هو جزء من سلسلة متناغمة، بدأت أصواتها تتناثر هنا وهناك، في شكل يبدو أنه مصادفة، ولكن هذه الأصوات يربط بينها خيوط خفّية، وأحياناً ظاهرة، سواء أكانت تلك الأصوات صحفية، أم سياسية، أم أكاديمية، أم ذات مرجعيات دينية متفاوتة المستويات.

ونحن نعلم أنّ الرئيس الأمريكي جورج بوش دأب منذ بداية حكمه، على إطلاق التصريحات التي تنال من الإسلام والمسلمين، ويصفهم بالفاشية والتخلف والإرهاب والقمع ومعاداة الديمقراطية، ويصف نفسه في الوقت نفسه، بأنه ممثل السماء وموفد العناية الإلهية.

وتتدحرج التصريحات عبر القارات، وتأخذ أشكال مقالات ورسوم كاريكاتورية، وخطب ومحاضرات سينمائية وبرامج تلفزيونية، وبلغ ذلك ذروته على لسان بابا الفاتيكان بتصريحاته المعروفة.

هذه الموجة المحمومة من العداء للإسلام والمسلمين، وللعرب منهم بصورة خاصة، هل هي "وليدة أحداث نيويورك، أم هي وليدة الصراع مع ما يسمى بتنظيم القاعدة، أم هي وليدة الفترة التي أعقبت السقوط المدوي للمنظومة السوفيتية"؟.

(*) الأمين العام لاحتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية ورئيس جمعية العاديات.

هذا كله يجعلنا نطرح مجموعة من الأسئلة في محاولة للإجابة عليها :

ـ لماذا الخوف من الإسلام؟

ـ هل للموضوع جذور تاريخية؟

ـ هل الموضوع منحصر لدى ثقافات الغرب، أم هو ذو بعد عالمي؟

ـ كيف يمكن معالجة هذه الظاهرة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات، لابد لنا من ملاحظة أن هذه الظاهرة "الإسلاموفوبيا" قد غدت مرضاً يتم فرضه على أجهزة الإعلام من خلال إشاعة ثقافة رفض الآخر والتطرف والكراهية وإثارة الأحقاد. وهنا لا يمكننا التعميم العشوائي في أن المجتمعات الغربية مصابة بفيروس هذا المرض على جميع مستوياتها؛ فالدراسات الموضوعية موجودة لدى كثير من الباحثين والأكاديميين، ولكنها تبقى تدور في إطار نخبوي بعيد عما تتناوله أجهزة الإعلام الموجَّهة أساساً وفق معايير سياسية.

ولعلنا نذكر أن بعض مشاهير الفكر والأدب في الثقافات الأوربية، كانت لهم مواقف إيجابية من التراث الإسلامي، بل مواقف إعجاب لدى بعضهم، فهناك "غوته، وبوشكين، ولامارتين، وغارودي، وجاك بيرك، وبرنارد شو".

وقد تكون هذه المواقف الإيجابية تركت انطباعاً معاكساً لدى الرأي العام الغربي المسيّس، فبرنارد شو مثلاً يقول منذ عام 1936م بأنّ الإسلام سوف يكون له شأن كبير خلال عقود قليلة، وهذا الكلام يستخدمه المغرضون لمزيد من التخويف وإذكاء الأحقاد والكراهية.

يدور مصطلح "الإسلاموفوبيا" حول تكريس صفات سيئة يُتهم بها الإسلام، ويتم زرعها في أذهان الغرب بوسائل مختلفة. وتتركز هذه الصفات في أنَّ الإسلام كما يزعمون، دين متحجر منغلق عدواني يؤمن بالعنف ويرفض الآخر، ويهدد جيرانه، ولا يعترف بالثقافات الأخرى لدى الشعوب، وبالتالي يناصبها العداء.

واللافت للنظر، والداعي للاستغراب، أنَّ بقية الأديان في العالم لا يُنظر إليها بهذه العدوانية وهذه الكراهية. ونحن نعلم أنَّ هناك ديانات كبرى كالبوذية والتاوية والكونفوشية والهندوسية، وتنتشر أقليات وجاليات كثيرة منها في المجتمع الأمريكي والمجتمعات الأوربية من غير أن تلقى ذلك العنت والتمييز العنصري والمضايقات التي تلقاها الأقليات ذات الأصول الإسلامية عامة، والعربية خاصة.

بل إن هناك العبارة الشهيرة التي أطلقها أحد المفكرين الغربيين يقول فيها: "الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا"، وهو يقصد بالشرق الحضارة الإسلامية وبالغرب الحضارة الأوربية وامتدادها الأمريكي. وهذا فهم خاطئ جغرافياً وتاريخياً وفكرياً.

من ناحية ثانية، يجب أن نعلم تماماً أن هذه الظاهرة ممتدة عبر القرون وليست وليدة أحداث ربع القرن الأخير.

ولعل المفكر العربي الفلسطيني المرحوم "إدوارد سعيد" كان من أفضل الذين شخّصوا هذه الظاهرة في كتابه الهام "**الاستشراق**"، وهو الذي يعري بموضوعية ومنهج علمي، أساليب الاستعمار في رسم الصورة المشوهة للعربي والمسلم بشكل نمطي مبرمج في الكتب المدرسية وأفلام السينما وكل وسائل الإعلام.

وهنا أود أن أشير إلى الكتاب الآخر الهام الذي أصدرته الباحثة "مادلين نصر"، وهي من أصل لبناني، بعنوان : "**صورة العربي في الكتاب المدرسي الفرنسي**"، وهي صورة بالغة القبح والكراهية، وتعكس النفسية الحاقدة المتجنية لمؤلفي الكتب المدرسية.

وسواء أكانت وراء تلك الحملات والكتابات مؤسسات سياسية أو لاهوتية أو أنثروبولوجية، فإنَّ الأمر لا يختلف في نهاية المطاف، بل إنَّ هذه المؤسسات كثيراً ما تعمل وفق نسق مدروس توزع فيه الأدوار بدقة ومهارة.

في عام 1978 عقد في ولاية كلورادو الأمريكية مؤتمر تبشيري تقبع خلفه الفئات المتصهينة من الكنيسة، ووصف هذا المؤتمر بلدان العالم الإسلامي بأنها "معاقل الشيطان الحصينة". ومن الغريب أن نسمع هذا المنطق الذي ينتمي إلى عصر محاكم التفتيش في العصور الوسطى، ويبدو أن عقلية المحافظين الجدد التي تدعي الوحي اللاهوتي، لا تختلف عن عقلية منظري محاكم التفتيش ذات السمعة السيئة.

وإذا عدنا قرابة قرن إلى الماضي واستمعنا إلى آراء مستشرقين من أمثال رينان، وشافت، وغولدزيهر، لرأينا الوجه القبيح يطل علينا في مزاعمهم بأن الحضارة العربية ليست إلا نتاج عقل إسلامي منغلق يعادي الابتكار، ولم يقدم أيّ أثر علمي ملموس، وأن المسلمين لم يكونوا سوى نقلة للفكر الإغريقي.

بل إنَّ رينان الفرنسي يلغي كلَّ الشعوب الأخرى ويقول: إن العقل الأوربي هو الوحيد المنفتح المبدع، وكل ما سواه عاجز بليد غير منتج.

وهذه الصورة الحاقدة نراها في كثير من الأدبيات والسينما والفنون، صورة تقدم الشرق الإسلامي من خلال أعاجيب "ألف ليلة وليلة"، ومفهوم الحريم وأسواق النخاسة، والعنف البدائي المتوحش. وكأن الفكر الغربي أراد أن يُسقط ذاته الفظّة على الآخر المسلم، فنحن نعلم أنَّ الذي أباد الشعوب الأصلية في أمريكا واستراليا هو الإنسان الأوربي، وأنَّ الذي مارس استعباد الشعوب ونهبها هو الغرب عموماً، وأنَّ تجارة الرقيق الأبيض المعاصرة تفوق آلاف المرات ما ورد في قصص "ألف ليلة وليلة"، وأن العنف البدائي الوحشي هو الذي نراه يومياً في شوارع المدن الأمريكية حينما يقتل الإنسان إنساناً آخر من أجل حفنة دولارات.

ومع ذلك يأتي كتاب "هنتنغتون" ليضع الإسلام عدوّاً أول للحضارات البشرية المعاصرة، ويأتي كتاب الباحث الأنثروبولوجي "شتراوس" ليقول : "إنَّ الدين الإسلامي يجب أن يصنف ضمن الديانات البدائية".

وعلى الرغم من أن العنف المعاصر له أسبابه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية القاهرة، وعلى الرغم من أنَّ ظاهرة العنف لا ترتبط بالعالم الإسلامي وحده، كما يحاول الإعلام الغربي تصوير ذلك، وكلنا يعلم ماذا حصد العنف في إفريقيا بين القبائل، وماذا يحصد بين الهندوس والتاميل والسيخ، وفي "الباسك" وإيرلندا الشمالية، وحركات أمريكا اللاتينية، فلماذا تلصق تهمة العنف والقتل بالعالم الإسلامي وحده؟.

وقد حاول بعض منظّري المخابرات الامريكية الإيهام بأنَّ الإسلام عدوٌّ للحضارات المعاصرة كلها. وحاول هؤلاء المنظرون إثارة النعرات في مناطق شتى في العالم، بأساليب مختلفة تمتد عبر القارات، نعرات عنصرية وعرقية ومذهبية وتاريخية، في محاولة محمومة لتفتيت هذا العالم أكثر مما هو مفتت، أو تجزئته أكثر مما هو مجزأ.

وحينما يأتي تصريح الجنرال الأمريكي "جون أبي زيد"، فإنه يعني الخيار الحربي للحسم بعد ثبوت عدم جدوى الخيارات الأخرى، وهو خيار تقول به المؤسسة الصهيونية الإنجيلية التي تتحكم اليوم بصناعة القرار الأمريكي. وقد نجحت في الاختراق اللاهوتي للكنيسة الإنجيلية، بحيث غدا قيام دولة الكيان الصهيوني وحمايتها، واجباً دينياً لدى أتباع هذه الكنيسة المتصهينة.

ولعل كتابات "لندسي" في هذا المجال خير دليل على توجّه الفكر السياسي المشحون بالكراهية، ومن أبرز كتاباته، كتابه "**الكراهية الأبدية**"، وفيه يقول "لندسي":

«إنَّ الخطر الأعظم الذي يتهدد الحرية والسلام العالمي اليوم هو الأصولية الإسلامية. وإن الكراهية تجاه هذه الأصولية يتجاوز عمرها أربعة آلاف سنة، وإن على العرب أن يتخلوا عن كل طموحاتهم السياسية والاقتصادية، ويسلّموا بوجود إسرائيل حتى يتحقق السلام″.

إن هذا الكلام يفسر لنا الحقد التاريخي الذي ضرب العراق، ولم يكتف بالأهداف العسكرية، بل قصف التاريخ الممتد أكثر من أربعة آلاف سنة، وقتل أكثر من مليوني عراقي. وهو حقد ممتد في عبثه الهمجي في فلسطين ولبنان وأفغانستان والسودان والقرن الأفريقي... حتى إندونيسيا تحت مسمى ″الشرق الأوسط الكبير″.

إنها الصورة النمطية في قالب مسبق الصنع. وهي صورة بدأت تنتقل إلى الأقليات العربية والمسلمة في المجتمعات الغربية، حيث بدأت هذه الأقليات تعاني من التضييق والتمييز والاضطهاد، في مجتمعات تضم أشتاتاً من كل أنحاء العالم. ويمكن تتبّع هذه الظاهرة في كتابات كثيرين من الباحثين من أصل عربي رصدوا بمنهجية عالية أشكال التجني في الكتب والإعلام والسينما، ولا سيّما في الولايات المتحدة، ومن أبرز هؤلاء الباحثين ″جاك شاهين، إدموند غريب″، وقبلهما بجدارة ″إدوارد سعيد″. ولعل أهم كتاب في هذا المجال هو ″**كيف شوهت هوليوود شعباً**″ من تأليف ″جاك شاهين″.

إن الحديث عن مواجهة هذه النمطية الظالمة، وهذه الكراهية الحاقدة، يقودنا إلى محاور متشعبة يمكن رسم ملامحها بالنقاط التالية:

1. دور الجاليات العربية والمسلمة في توحيد مواقفها وتكوين قوة ضغط في مجتمعات مؤلفة أساساً من نسيج ديموغرافي متعدد.

2. دور الإعلام العربي في الخروج من سباته العميق، ووضع إستراتيجية لمخاطبة الآخر، تقدم الصورة الحقة للحضارة الإسلامية التي كانت دائماً ولا تزال، تؤمن بالتسامح وبالأديان الأخرى، وتعترف بالآخر، ولا تمارس القمع والقتل والإبادة.

3. محاولة التنسيق بين وسائل الإعلام في الدول العربية والإسلامية والاتفاق على حد أدنى من المعقولية في مخاطبة الذات ومخاطبة الآخر.

4. تنظيم المؤتمرات والندوات العالمية في المدن الأوربية والأمريكية لتوضيح صورة الإسلام لدى النخبة، ثم لدى العامة، وبكل الوسائل الممكنة.

5. توظيف المال العربي الهائل في مجال الإعلام: شراءً واستئجاراً وإعلاناً وتنظيماً، لأنّ المستهدف في النهاية، هو كل التراث العربي بجميع أشكاله.

6. محاولة ملامسة القضايا الساخنة كالإرهاب، ونظم التعليم، وقضايا المرأة، والاندماج الاجتماعي لتكون محاور في تلك الندوات.

ولعلّ هذه الندوة التي نعقدها في إطار احتفالات حلب عاصمة الثقافة الإسلامية حول مفهوم "**الإسلاموفوبيا**"، نقطة في خطوات البداية المعقولة.

كلمة السيد محافظ حلب
الدكتور المهندس تامر الحجّة

بسم الله الرحمن الرحيم

أسعد الله أوقاتكم

أتوجه أولاً بالشكر الجزيل إلى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة لدورها الكبير في احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، ابتداءً من اختيار مدينة حلب لهذا الحدث الجليل، ومروراً بما قدمته المنظمة من مساهمات في البرامج والندوات.

وتأتي هذه الندوة لتؤكد جوهر الاحتفاليات المتعاقبة بعواصم الثقافة الإسلامية، ومهمة هذه الاحتفاليات في إبراز صورة الإسلام وحضارته المرنة المتسامحة المعترفة بالآخر، في وقت تسعى معه كثير من القوى الظالمة، إلى تشويه صورة هذه الحضارة، وإلصاق التهم الكاذبة بها؛ من قمع وإرهاب ودماء.

ولقد حاولنا في احتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية، أن نركز على إبراز هذه الصورة الناصعة الحقّة للحضارة الإسلامية، من خلال الندوات والمحاضرات وإصدارات الكتب والمهرجانات والمعارض.

وإنّني أغتنم هذه الفرصة، لأجدّد الشكر لكل من ساهم في إنجاح هذه الاحتفالية، وللسادة الباحثين المشاركين في هذه الندوة. متمنّياً لهم طيب الإقامة في بلدهم وأهلهم، في حلب المحروسة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة

- إيسيسكو -

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه

أصحاب المعالي،

أصحاب السعادة،

السادة والسيدات،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

يسعدني بادئ الأمر أن أنقل إليكم تحيات معالي الدكتور عبد العزيز بن عثمان التويجري، المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وتمنياته لكم بالنجاح والتوفيق، ويسعدني أيضاً أنقل باسم معاليه، خالص آيات الشكر والتقدير لمعالي الدكتور رياض نعسان آغا، وزير الثقافة في حكومة الجمهورية العربية السورية، راعي هذا الحفل ولمساعديه الأكفاء على تعاونهم الكريم مع المنظمة الإسلامية، في تنفيذ العديد من الأنشطة والبرامج التي تندرج في برنامج الاحتفاء بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية لسنة 2006، وهو البرنامج الذي تندرج هذه الندوة التي نحتفل بافتتاحها اليوم، في إطاره. كما يسرني أن أنقل باسم معاليه، الشكر والثناء لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت على دعمها وتعاونها مع المنظمة الإسلامية المتمثل في عقد العديد من الندوات العلمية التي عالجت عدداً من القضايا الملحة في دولنا ومجتمعاتنا العربية الإسلامية، كما أشكر الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، التي كانت من أوائل المؤسسات التي تعاونت وساهمت معنا في تنفيذ أنشطة في مجال العمل الإسلامي المشترك.

ويسعدني أن أشيد بمستوى التعاون والاهتمام الذي ظللنا نتلقاه من الأمانة العامة لاحتفالية حلب منذ بداية هذا العام، وعلى رأسها سعادة الأخ الأستاذ محمد قجة. كما أزجي باسم معاليه عبارات الشكر والتقدير للجنة الوطنية السورية للتربية والثقافة والعلوم، وأمينها العام سعادة الأخ الدكتور علي الرحال، على هذا التعاون الذي كان من ثماره تنفيذ عشرات الأنشطة والبرامج المندرجة في خطط عمل المنظمة الإسلامية على مدى العقدين المنصرمين.

أصحاب المعالي،

أصحاب السعادة،

السادة والسيدات،

لاشك أنكم تدركون أن الصورة النمطية السلبية التي تدمغ بها بعض الأجهزة الإعلامية الغربية الإسلام والمسلمين، ليست ظاهرة حديثة بل ذات جذور تاريخية وفكرية تمتد لقرون عديدة، بدْءاً من ظهور الرسالة ومروراً بالحروب الصليبية، والهجمة الاستعمارية، والظاهرة الاستشراقية، إلا أننا نلحظ منذ حين، تفاقم هذه الظاهرة التي تحولت من عداء للإسلام والمسلمين إلى إشاعة الخوف منه ووصمه بالعنف والإرهاب ومجافاة المنطق والعقل، وهو ما عرف اصطلاحاً بظاهرة "الإسلاموفوبيا"، ولقد كان تنامي هذه الظاهرة، كما أنكم لاشك تدركون، مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ومطّرداً، بالتطور التقني الهائل الذي شهده مجال الإعلام والاتصال والذي تمثل في انتشار القنوات الفضائية وشبكة الأنترنيت، وتطور صناعة الإنتاج السينمائي بكل ضروبه وغير ذلك من وسائط الاتصال المختلفة المطردة التطور التي أصبحت في متناول يد كل شخص. وما تقوم به من دور خطير ومتعاظم في السيطرة على العقول، وترسيخ الصور النمطية التي توجه الرأي العام حيثما تريد، وتزرع الخوف والكراهية في عقول النشء تجاه الإسلام والمسلمين، وهكذا، شرعت بعض الأجهزة الإعلامية الغربية المتحاملة على الإسلام والمسلمين، في التزود منذ حين من الرؤى الاستشراقية السالبة المتراكمة عبر القرون، وإعادة بثها على نحو واسع وفاعل بين الجماهير بعد أن كانت محصورة التداول في أوساط النخب. وقد بلغت هذه الظاهرة ذروتها في أيامنا هذه كما هو معلوم، مع حملة الإساءة للإسلام التي تولى كبرها صحيفة ييلاندس بوستن الدنماركية بنشرها رسوماً مسيئة للرسول الكريم محمدﷺ في سبتمبر من العام الماضي وما أعقب هذه الحادثة من تداعيات، منها بثّ فيلم مسيء إلى رسول الله محمد بن عبد اللهﷺ من

إحدى المحطات التلفزيونية الدنماركية. ورغم الوقفة الحازمة التي وقفها المسلمون في وجه هاتين الحادثتين، فإننا مازلنا، مع الأسف، نشهد تصعيداً في حملة العداء هذه، وآية ذلك الإشارات السابقة التي وردت في محاضرة البابا بنديكت السادس عشر التي رمى فيها الإسلام بغياب العقل والخير والمنطق والمنهج العلمي، وغير ذلك من المقالات والرسوم الهازئة التي فتئت تصدر في بعض الإصدارات الغربية، وليس لها من هدف سوى الإساءة إلى الإسلام والمسلمين.

أصحاب المعالي،

أصحاب السعادة،

السادة والسيدات،

إن المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة انطلاقاً من مواثيقها الداعية إلى حماية الثقافة الإسلامية من كل غزو فكري أو تشويه إعلامي، ووعياً منها بأهمية الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وضمان موقع متميز للحضارة الإسلامية بين باقي الحضارات الإنسانية المعاصرة، لتدرك تماماً، أن التشخيص والرصد المتواصل لمختلف مظاهر تشويه الإعلام الغربي لصورة الإسلام وحضارته، لهو أمر مهم ولكن الأهم من ذلك هو الاهتداء إلى أنسب الطرائق وأعمقها تأثيراً، وصولاً إلى تصحيح تلك الصورة عن طريق حسن استخدام تقنيات الاتصال الحديثة، وإعداد الرسائل الإعلامية والثقافية النافذة، واستغلال ما توفره هذه التقنيات من مقدرات لتعزيز الفهم والتفاهم بين الشعوب والحضارات، بعيداً عن كل توتر أو احتقان، استناداً إلى القيم المشتركة بينها، المتمثلة في الحب والإخاء والتسامح والاحترام المتبادل والتضامن والعدل.

أصحاب المعالي،

أصحاب السعادة،

السادة والسيدات،

إن الأمل معقود بعون الله وتوفيقه، على أن تصل هذه الندوة التي يسهم في أبحاثها ويشارك في جلسات عملها نخبة من علمائنا ومفكرينا وأساتذتنا، العاملين في المجالين الإعلامي والدعوي، أن تصل هذه الندوة إلى نتائج وتوصيات تتناول مختلف السبل والوسائل والوسائط الإعلامية التي ينبغي توظيفها لإبراز صورة الإسلام في

العالم كما ينبغي أن تكون، والتصدي للحملات الجائرة الساعية إلى زرع الخوف والكراهية تجاه الإسلام والمسلمين.

أصحاب المعالي،

أصحاب السعادة،

السادة والسيدات،

أود قبل اختتام هذه الكلمة، أن أجدد عبارات الشكر والتقدير باسم معالي المدير العام في المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة للجمهورية العربية السورية، ممثلة في وزارتي الثقافة والتربية والتعليم ولوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، على التعاون المستمر المتمثل في عقد هذه الندوة وغيرها من الأنشطة التربوية والعلمية والثقافية على مدى العقدين الماضيين، ويسعدني أيضاً أن أشكر للعلماء الأجلاء والأساتذة والمفكرين الفضلاء، قادة العمل الإعلامي والدعوي والثقافي في الدول الأعضاء، ما بذلوه من جهود في إعداد الدراسات والبحوث التي تؤلف مجتمعة مادة هذه الندوة، والتي تمضي بما تحويه من مضامين وموجهات، في اتجاه وضع برامج تنفيذية لتفعيل دور الإعلام في إبراز الصورة الحقيقية للإسلام وبحث فرص التعاون والتنسيق بين المؤسسات المعنية في العالم الإسلامي وخارجه من أجل استثمار أمثل لوسائل الإعلام وتوظيفها وتوجيهها نحو تصحيح صورة الإسلام والمسلمين، ومعالجة ظاهرة الخوف من الإسلام، وبيان الحدود الفاصلة التي تنتهي عندها حرية التعبير، وتبدأ عندها التجاوزات والإساءة إلى الأديان والمعتقدات.

كما لا يفوتني أن أشكر ضيوفنا الكرام الذين شرفوا حفلنا بحضورهم واهتمامهم ومتابعتهم.

والله أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير لأمتنا وللإنسانية جمعاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

البيان الختامي والتوصيات

بدعوة من المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ إيسيسكو ـ ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، والأمانة العامة لاحتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية لسنة 2006، وانطلاقاً من المبادئ والرسالة الهادفة إلى حماية استقلال الثقافة الإسلامية من كل غزو فكري أو تشويه إعلامي، ووعياً بأهمية الدفاع عن الإسلام والمسلمين، وضمان موقع متميز للحضارة الإسلامية بين باقي الحضارات الإنسانية المعاصرة، وفي ظل تصاعد الحملات الإعلامية المتحاملة على الإسلام والرامية إلى تشويه صورته، فإن هذه المؤسسات ـ في حدود مهامها واختصاصاتها ـ قد تحملت مسؤولية معالجة الأمر والدفاع عن الإسلام عقيدة وشريعة وحضارة. وإسهاماً في تحقيق ذلك، ونهوضاً ببعض أعبائه من خلال التخطيط لإعداد مشروع برنامج متكامل للرد على حملات التشويه الإعلامي، وتطلعاً إلى وضع رؤية استراتيجية تبصّر بالأهداف والإجراءات الواجب اتباعها وتحديدها بحسب الأولويات، وتتعرف بدقة على الإمكانات الواجب توفرها، وتدرس الظروف المحيطة، وتضع المناهج والوسائل التي تحقق الأهداف المنشودة، فقد تم تنظيم الندوة العلمية حول دور وسائل الإعلام في إبراز صورة الإسلام في العالم ومعالجة ظاهرة الخوف من الإسلام "الإسلاموفوبيا"، التي عقدت تحت رعاية السيد الدكتور رياض نعسان آغا، وزير الثقافة بالجمهورية العربية السورية، بمدينة حلب، خلال الفترة من 20-22 شوال 1427، الموافق 11-13 نوفمبر 2006، في إطار الاحتفال بحلب عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2006.

بدأت الندوة بجلسة افتتاحية تحدث فيها كل من مدير الأمانة العامة لاحتفالية حلب عاصمة الثقافة الإسلامية لعام 2006، وممثل الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، وممثل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، وممثل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، وسماحة مفتي الجمهورية العربية السورية، والسيد محافظ حلب، نيابة عن السيد الوزير راعي الندوة.

وقد عقدت ثلاث جلسات عمل، تمحورت الأولى حول سبل توظيف وسائط الاتصال المتعددة في إبراز صورة الإسلام في العالم، في حين تمحورت الجلسة الثانية

حول موضوع استثمار البث الفضائي في إبراز صورة الإسلام في العالم، أما الجلسة الثالثة فكان موضوعها دور الصحافة المكتوبة في إبراز صورة الإسلام في العالم.

وبعد مناقشة أوراق العمل المقدمة للندوة، توصل المشاركون إلى التوصيات التالية :

1. الدعوة إلى صياغة خطاب إعلامي واضح **يعتمد المبادرة وليس ردة الفعل**، وذلك باستثمار تقنيات المعلومات ومختلف وسائط الاتصال المتعددة.
2. دعوة الإيسيسكو للتعاون مع المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية والتمويلية في إعداد مشروع رقمي متكامل، يشتمل على منظومة معلوماتية ومؤسسات إنتاجية، تعمل على تقديم الفكر والثقافة والقيم الإسلامية إلى الإنسانية جمعاء.
3. تعزيز سبل التعاون والتنسيق بين مختلف الجهات والمؤسسات التربوية والإعلامية والثقافية والتمويلية، لاستثمار البث الفضائي في إبراز صورة الإسلام في العالم، من خلال إنتاج أفلام توثيقية ومشاريع درامية.
4. تجديد آليات العمل وأساليب التعامل مع مختلف الشعوب والثقافات لمخاطبتها بلغاتها ومنطقها ولإبراز القضايا والموضوعات المرتبطة بالإسلام وحضارته، وتوظيف الوسائل كافة، التي من شأنها أن تؤثر فيها، وتوجهها لتصحيح نظرتها إلى الإسلام والمسلمين.
5. دعم فكرة إنشاء مرصد لجمع وتحليل المعلومات والأفكار، التي تتناول الإسلام وحضارته بالتشويه، والتنسيق في ذلك مع المراكز والجمعيات الإسلامية في الغرب، ودعوة الإيسيسكو إلى التعاون مع المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية والتمويلية لوضع استراتيجية إعلامية، لإبراز الصورة الصحيحة للإسلام والمسلمين، ومواجهة ظاهرة الإسلاموفوبيا.
6. تعزيز الانفتاح على مؤسسات المجتمع المدني واعتماد الدبلوماسية الشعبية وتوظيف السياحة الثقافية في تصحيح الآراء والمغالطات حول الإسلام والمسلمين لدى أفراد المجتمعات الغربية.
7. دعوة المنظمات الدولية إلى تفعيل المواثيق والقوانين المبينة للحدود الفاصلة بين حرية التعبير وبين التجاوزات والإساءة للأديان.

8. دعم الجاليات والأقليات الإسلامية في الغرب لتوضيح الصورة الصحيحة للإسلام، والتواصل مع المراكز والمعاهد العاملة في أوروبا وأمريكا وغيرها من دول العالم، لتحقيق هذا الهدف.

9. الدعوة إلى بناء جسور الحوار والتواصل مع المثقفين من الإعلاميين والمفكرين، من أجل توخي الصدق، والنزاهة الفكرية، والموضوعية المهنية، في الحكم على الوقائع والأحداث المرتبطة بالعالم الإسلامي، من خلال عقد الدورات التدريبية وورشات العمل والندوات واللقاءات.

10. دعوة الإيسيسكو للقيام بالدراسات الميدانية التي تبحث ظاهرة الإسلاموفوبيا وكيفية مواجهتها.

11. الدعوة إلى الانطلاق في إبراز صورة الإسلام للعالم، من خلال تصحيح الصورة التي يقدمها المسلمون عن الإسلام من الداخل، وتغيير حال الأمة وتصحيح أوضاعها وترشيد أحوالها.

والله الموفق.

الفهرس